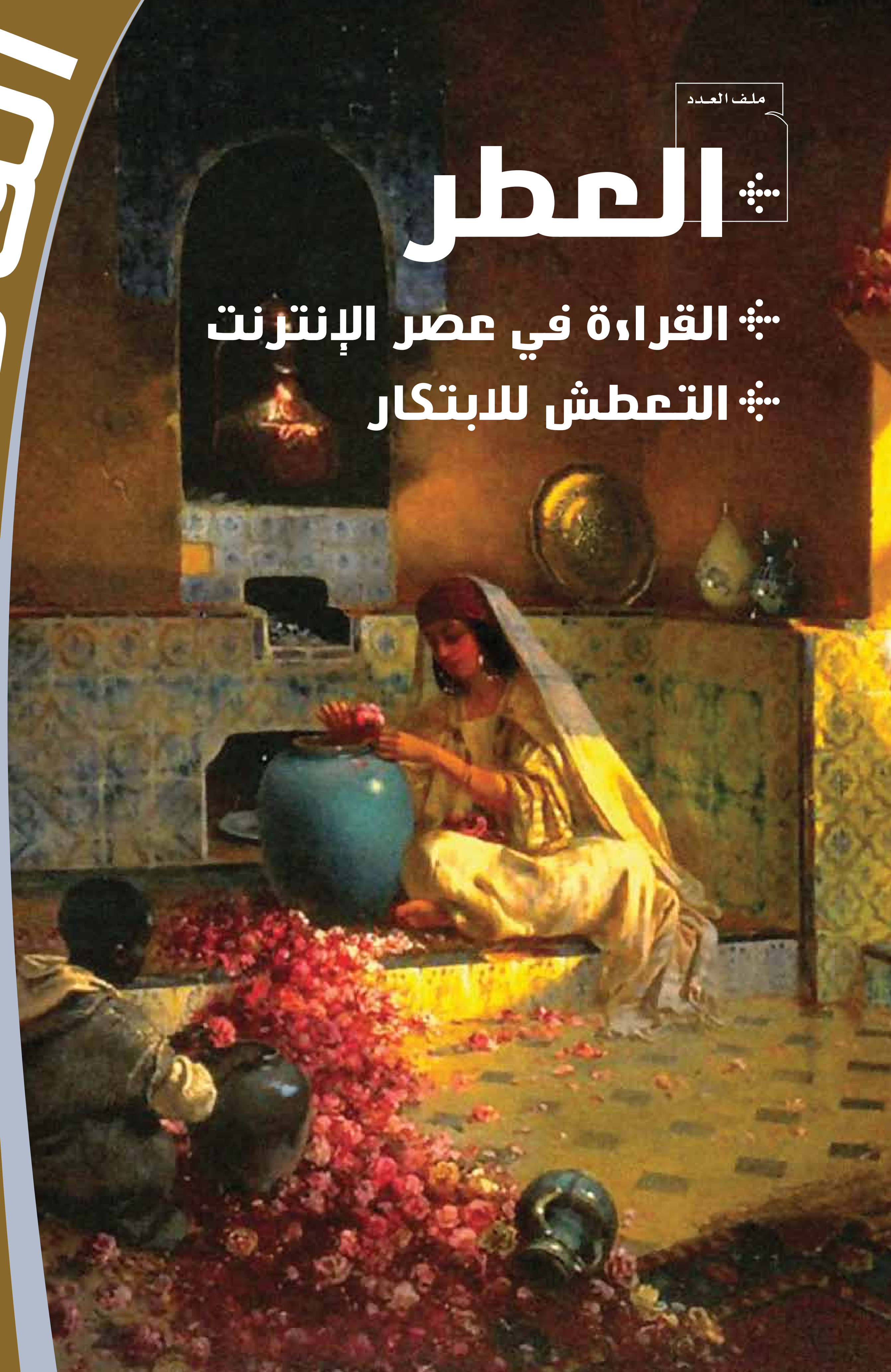
القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • مارس - أبريل 2011



ملف العدد

العطر

القراءة في عصر الإنترنت

التعطش للابتكار

2 العدد
المجلد 60



قافلة الأبحاث

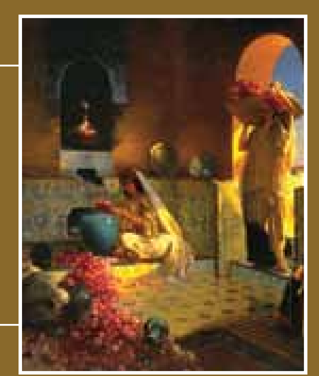
تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بإجراء أبحاث ميدانية متعمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. وتهدف هذه الخطوة إلى كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي، وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي.

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع، وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث، حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.



ليس ثمة ما يترك أثراً في النفس
ما يتركه العطر في نفوس الناس
وفضاءاتهم وذكرياتهم وليلهم ونهارهم.
في مقدماته جميل، وفي خواتيمه
أجمل. لقد جعل له في التاريخ فصولاً،
وفي الصناعة تاريخاً.

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية
(أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
خالد إبراهيم أبوبشيت

مدير عام الشؤون العامة
ناصر عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد الدميني

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

إعداد وإنتاج



ص ب 65701 الرياض 11566
المملكة العربية السعودية
هاتف: 2128005 1 00966
فاكس: 4401367 1 00966

إحدى شركات



Saudi Research & Marketing Group

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

مارس - أبريل 2011
ربيع الأول - ربيع الآخر 1432

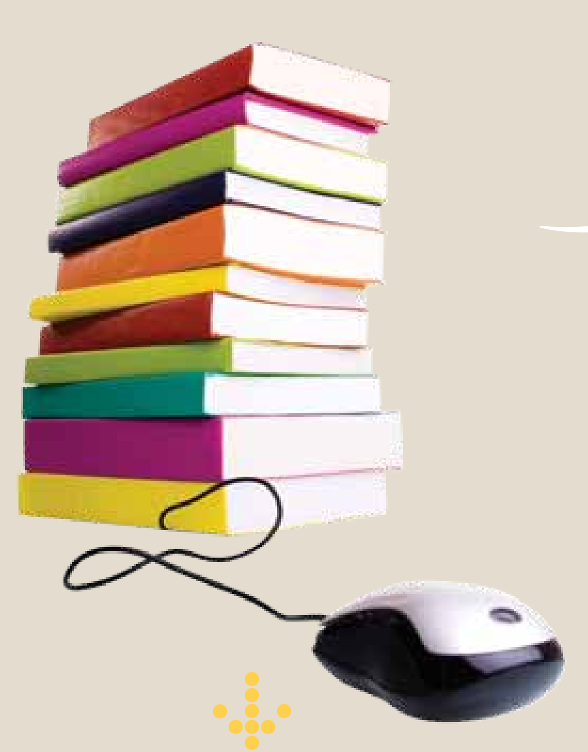
توزع مجاناً للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

- **الهواتف:** فريق التحرير 00966 1 212 8005 Ext. 1754
00966 2 651 1333 Ext. 3612
00966 3 835 2065 • 00966 3 833 5749
البريد الإلكتروني: alqafilah@sspc.com.sa
الاشتراكات 00966 3 874 6948
فاكس 00966 3 873 3336

رسالة المحرر

1 قضايا

في ظل الثورة الرقمية هل سيحافظ الكتاب الورقي على مسماه «خير جليس»، أم أن عالم الإنترنت سيزيحه عن مقعده لتحل الكتب الإلكترونية محله؟ ماذا يجب أن نقرأ؟ وهل العصر الرقمي يشكل تهديداً لصناعة النشر التقليدي؟ جملة من التساؤلات تثيرها القافلة كقضية في مستهل هذا العدد. يشارك في محاورها عدد من المهتمين بهذين العالمين: عالم القراءة، وعالم الإنترنت. ويجيب عن هذه الأسئلة موضوع القراءة في عصر الإنترنت.



أما في باب «قول في مقال» فتكمل محاور هذه القضية، وذلك من خلال عرض لما كتبه الأكاديمي والروائي الإيطالي أمبيرتو إيكو لكتاب المؤلف هارولد بلوم «مختارات المؤلفات الغربية» (The Western Canon) ويجيب فيه عن سؤال: في زمن العولمة ماذا يجب أن نقرأ؟



2 طاقة واقتصاد

مناخ الاقتصاد نستعرض فيه موضوع نزاهة الأسواق المالية، وأثر التلاعب في كفاءة السوق. أما فيما يخص الطاقة فنستعرض في هذا الباب عدداً من الموضوعات الملحة التي تثير المهتمين في الوقت الحاضر كرعب الطاقة النووية، ورعب تقنية النانو.





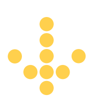
3 علوم وبيئة

مناخ البيئة نستعرض فيه موضوعات عدة أولها يتعلق بالطاقة النظيفة التي أصبحت مطلباً ملحاً، وموضوع عن تلوث الماء والطعام بالبكتيريا وخطط الوقاية منه. كما نستعرض ستة ابتكارات حديثة منوعة.

الفاصل المصوّر



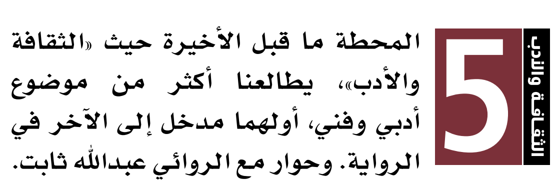
عندما تلتقط العدسة لحظات الكوارث الكبرى تثير في النفس مشاعر أكبر من الصورة. في هذا الفاصل اخترنا عدداً من الصور التي تعبر عن الهزة الأرضية التي ضربت شمال اليابان في 11 مارس 2011 وما أعقبها من مد بحري عظيم.



4 حياتنا اليوم

هي ذلك الزاد الممتع الذي نركن إليه. نستعرض في هذا المناخ عدداً من الموضوعات التي تمس الحياة اليومية وتفاصيلها.. بدءاً من إسبانيا حيث الماتادورز هم أبطال الموت الأنيق، وموضوع يشغل بال الأسر في جميع أنحاء العالم تجاه أطفالهم وأصدقائهم المتخيلين.





5 الثقافة والأدب

المحطة ما قبل الأخيرة حيث «الثقافة والأدب»، يطالعنا أكثر من موضوع أدبي وفني، أولهما مدخل إلى الآخر في الرواية. وحوار مع الروائي عبدالله ثابت.
كما نطالع هيبة العلم وكبرياء الروح من خلال قراءة في شخصية المؤرخ عبدالعزيز الدوري. أما في الفن فنقرأ الصور بألوانها.
وللتفاحة الكبرى نصيب من هذا المناخ الثقافي. إنها نيويورك بشوارعها وصحفها اليومية.





6 ملف العدد

هذا العدد ختامه مسك حيث الرائحة والطيب والعطر. نستعرض فيه تاريخ العطر وقوافله، وتركيباته. ومن أين تأتي الرائحة الزكية التي يدوم عبقها في الذاكرة. نقبض على الرائحة والعطر لنقدمه في ملف شامل ومتكامل.

الرحلة معاً

أخلاق هذا الزمان

هل نحن نعيش في عصر تتغيّر فيه الأخلاق أو تتبدل؟ لنتذكر وبشيء من التأمل ذلك الحديث الشريف: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق». لا يتحدث نبينا المصطفى، صلى الله عليه وسلم، هنا عن عزيمته لتغيير أخلاق الناس، ولا لإبادة أولئك الذين لا أخلاق لهم، ولا للطعن في أخلاق الأمم التي سبقته. كان ببصيرته النبوية يعرف أن لكل عصر أخلاقه، وأن مكارم الأخلاق تتراكم زمنيًا لتخلق المثل والقيم التي تعيش عليها المجتمعات البشرية، وتعزز موقع الإنسان كصانع للخير والفضائل، ومقاوم لنزعات الشر والعنف القادرة على تهديد الوجود الإنساني برمته، وإنهاء منزلته كمستخلف في عمارة الأرض.

كم مرة سمعت قريبًا أو صديقًا يتحدث إليك عن تغير أخلاق البشر أو سوئها أحيانًا، أو أن بعضهم يجانبها أصلاً؟! الحقيقة أن أخلاقنا وطباعنا وحتى صفاتنا الأصلية تتغيّر، أو تتخذ أشكالاً أخرى، وعبثًا نحاول استعادة ملامحنا الفطرية، أو تلك الخصال التي تربينا عليها وكبرنا معها، أو تلك العلاقات البلورية الصافية التي كانت ركنًا دافئًا وعذبًا مع رفاق طفولتنا ومراهقتنا!
كانت العواطف والمشاعر وخصال التكافل الإنساني كافية لنعيش حياة سعيدة مليئة بالطاقة، والأحلام، وقادرة على صد شظف العيش، وبطش المدرسين، وقسوة العائلة، والجفاف المعرفي والمعلوماتي.

كنا نعتقد واهمين أن العيش في المدن الضخمة والانخراط في التكتلات البشرية الضخمة سيكونان كافيين للقضاء على الفجوة المعرفية والتعليمية التي خبرناها، وسيقلبان كفاف العيش وقسوة الحياة إلى نعيم، وسيسهلان علينا أن نتخالط مع العالم ونؤثر فيه كما يؤثر فينا، بل ويمتلكان أحيانًا أغلب مفاتيحها، لكن حياتنا المعاصرة في هذه المدن قد أنتجت عددًا من الإشكالات والعوائق تولدت من تعقد الحياة ومطالبها وتقاطعها مع ثقافات العالم وأدوات إعلامه الضاربة وتشابك المصالح الدولية معه.

ماذا يحدث لأخلاقنا؟

عبر الحقب التاريخية تبدو العلاقة بين التقدم الحضاري لأمة ما، وبين الأنماط الأخلاقية التي ينتجها ذلك التقدم مثار نقاش دائم، بل إن فلاسفة عريقين كانوا يرصدون التغيرات التي تطرأ على أخلاق الناس وقيمهم وعاداتهم عندما يتعرضون لمؤثرات حضارية.

أورد هنا مثالاً أورده الباحث الألماني ويل ديورانت في كتابه المؤسس «قصة الحضارة»، فعندما زار العالم الإنجليزي روجر أسكم إيطاليا عام 1550م كتب عنها: «أحمد الله إذ لم أقم في إيطاليا إلا تسعة أيام، ومع هذا فقد شاهدت في هذا الزمن القصير من الانغماس في الذنوب والتحرر من قيود الأخلاق أكثر مما سمعته عن بلدتنا النبيلة، لندن. لقد رأيت هناك أن في مقدور المرء أن يرتكب الخطايا دون أن يتعرض للعقاب ودون أن يهتم بخطاياه أي إنسان».

أشكال التبدل الجارف في القيم والأخلاق التي تنتجها الصراعات التاريخية بين الدول أو داخل المجتمعات نفسها، ضخمة، وليس هنا فسحة لرصدها، فما يعنينا هو قراءة القلق الأخلاقي الذي يطال كل وجوه حياتنا.
الباحث والفيلسوف التشيلي، جون باينس، يسخّر أحد كتبه المهمة لدراسة «أخلاق الأمم في القرن الحادي والعشرين»،



شارحًا أن الإنسان المعاصر لا يمتلك أخلاقيات ثابتة، فمعاييره تخضع للمصالح والعواطف والرغبات، وهو لم تردعه لا العقائد السماوية ولا المبادئ الأخلاقية عن أن يقع في الأخطاء، أو أن يتماهى مع الجوانب اللاأخلاقية، فتطغى عليه النزوات ويتراجع عن ارتياد الفضائل الإنسانية، بل ليصعب عليه التمييز بين الضحية والجلاد، وهذا لا يحدث في الحقول السياسية فقط، بل في الجوانب الحياتية والإدارية والعملية. ويرى أن الأزمة الأخلاقية التي يعيشها العالم لا تكمن في عدم كتابة الدساتير الأخلاقية والقوانين والتشريعات، ولكن في تفعيل تطبيقاتها بصرامة عادلة. وليس أسهل، طبعًا، من إيراد ألوف الحالات في الدول التي تحتكم للقانون، لكنها تنجو في النهاية من المحاسبة تجاه أي مخالفات قانونية كبرى.
قد نسأل إذًا بما أن الحاضن الأول لنشوء الأخلاق والقيم هو العائلة، فأين ذهبت أهميتها؟

إذا مارسنا بعض التأمل، سنرى أننا نعيش وأبناؤنا وبناتنا تحت سقف واحد، نلتقي بهم ونخوض معهم في شؤون الحياة المختلفة، لكننا سرعان ما نلمس أن مصادر ثقافتهم وأفكارهم وحتى مفرداتهم هي غير تلك التي علمناهم إياها ودربناهم عليها. هناك إذًا نهر معرفي يجري أمامهم، ولا أحد يملك زمام منعهم من السباحة فيه، واقتناص ما ينسجم مع روحهم ورضاهم الشخصي. ذلك النهر هو بلا حراس ولا مراقبين، ولا توجد سوى رقابة وحيدة هي إرادة أفراد هذا الجيل تجاه فهم ما يقرؤون ويشاهدون ويسمعون وبلورته، في حين لا تجدي نفعًا أخلاقية المنع، فالحماية الشرسة يمكن أن تكون معوّقًا معرفيًا وعاطفيًا وتدفع النشء إلى الحياة السهلة، أو الحياة الافتراضية التي تنتشر على التلفاز والإنترنت، حيث يغرقون في الأوهام وتستلب إرادتهم، وقد تتسرب إليهم الأمراض الأخلاقية أو حالات التشكك القيمي من حيث لا يعرفون.

لكن العرض الأكبر الذي يشكل امتحانًا، ولا نقول تهديدًا للأخلاق أو صانعًا لها، هو: سلطة الصورة. هذه السلطة، التي كتب عنها بغزارة لا آخر لها، تستمد مكانتها الراسخة من كونها مؤثرًا ضاربًا على بنية الأفكار والمشاعر وعلى نسيج النظام التربوي والنفسي للأفراد، فضلاً عن تقاطعها مع أساليب اقتصاد السوق، والمشكلة أن النظام المالي والاقتصادي الذي يحكم حركة المجتمعات، كما يحدث في عالمنا اليوم، أصبح منافيًا للطبيعة، ولا أدل على ذلك من جملة الانهيارات المالية التي أصابت مفاصل الاقتصاد العالمي في العقود الأخيرة، حيث أصبح الجميع يجرون عربة الديون الهائلة لتصبح فقاعات ضخمة ينهار بعدها النظام المالي كله!

من جهة أخرى، فإن التكتلات الصناعية الكبرى في العالم لم تتأخر في جعل الصورة بمختلف أركانها عنصرًا في فرض السيطرة على منظومة الأفكار والقيم التي تخترق العالم. وهكذا نعثر على الاندماج الغريب بين قنوات التسلية الشهيرة والقنوات الإخبارية والاقتصادية رغم تباعد هوياتها، لكن هذا الاندماج ينتج قيمًا جديدة تكرّس في عقول البشر. ولنلاحظ مثلاً أننا نقدح في محطات إخبارية محددة في فترات السلم والهدوء، لكننا نعود إليها بشغف ساعة حلول الكوارث أو اندلاع الحروب أو حالات الاضطراب الاجتماعي أو الكشوفات الجديدة، وهكذا نعود إلى منح المصداقية الكاملة لتلك القنوات التي كنا نبذناها.
ولكن هل هناك فرصة كي يتناقص مدّ الشرور في العالم ؟
أعود إلى باينس، لألتقط من أسبابه العديدة ثلاثة أسباب: الأول هو الأنانية، وهي ليست أنانية أفراد فقط، بل أنانية قوى ومنظمات وربما أمم لم تعد تبالي بمعاناة الآخرين، وفقدت أحاسيسها بمختلف أشكال البؤس الإنساني، بل إنها تمارس نهبًا منظمًا للمصادر الاقتصادية مقابل قطرات تسد عطش شعب ما أو جوعه، وهنا تسود حكمة الصراع على السلطة الشهيرة: «الغاية تبرر الوسيلة». أما السبب الثاني فهو: أهمية السيطرة على الذات، بحيث نتمتع بالقدرة الدائمة على الصمود في وجه الدوافع والعواطف السلبية التي تغري الجميع بالوقوع في الخطأ، فنحن نتصرف كبرابرة متحضرين والجميع يتحركون بوحي من عواطفهم لا بأوامر من عقولهم، أما السلوك الرفيع عند الإنسان فينتج من تحكمه الواعي بتصرفاته ودوافعه وأفكاره وأن تكون مرتبطة بقيمه العليا.
وثالثًا: هو الجهل بالخير والشر معًا. والمعضلة هنا هو أن يترك لكل فرد تفسير قيم الحياة مثل الحب والصداقة والعدل تفسيرًا فرديًا أمام غياب توافق اجتماعي وإنساني على تعريف هذه القيم، بل إن التاريخ يحفل بالنماذج الإنسانية الخيرة التي تعرضت للتشويه والقتل، وكل هذا يخلق أزمة أخلاقية ونزفًا للقيم والمثل الحياتية.
هذه بعض مكونات الإنسان اليوم، فكيف تسمو أخلاقه ليصبح جديرًا بخلافة الله على الأرض؟!

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.



حمزة شحاتة شاعر لم يطوه النسيان

جاء بالقافلة العدد 6 المجلد 59 نوفمبر- ديسمبر 2010م ما انتظرته وبحثت عنه طويلاً في العديد من مجلات الثقافة والأدب العربية والسعودية على وجه الخصوص، فقد جاء في باب الثقافة والأدب موضوع، حمزة شحاتة قامة مديدة في أغوار مجهولة، بمناسبة مئوية ميلاده. والحقيقة أن هذا الشاعر الفذ لم يلق المكانة اللائقة به وبموهبته هذه الموهبة الشعرية التي عرفتها فور قراءتي لإحدى قصائده التي وقعت عليها عيناي في أوائل ثمانينيات القرن الميلادي الماضي وأثبت أبياتها في نهاية مقالي. لذا أردت أن أشارككم الاحتفاء بهذه المئوية. حمزة شحاتة الشاعر الفلسفي، عميق الفكرة، صاحب الرمزية في الشعر والذي يُعد من رواد المدرسة الحديثة في الشعر.

ولد حمزة شحاتة ابن الحجاز في مكة عام 1910م وتربى في مدينة جدة حيث تلقى تعليمه أولاً، ثم درس في مدرسة الفلاح ومنها تخرج، وأتيح له أن يطَّلع على ألوان واسعة من الثقافة والعلوم والفنون. كما أتيح له السفر إلى الهند، للعمل سنوات عدة، ثم يعود إلى وطنه متنقلاً بين عدد من الوظائف الحكومية والأعمال الحرة. ذاع صيته في كل مناطق الحجاز حتى رحل إلى القاهرة عام 1944م وعاش فيها كما كان يعيش في الحجاز منتهج العزلة، فهو يرى نفسه غريب الروح والعقل بين الناس، ترفعه سخريته عن الواقع درجات، وتقية حدة مزاجه من الوقوع في شرك الاهتمامات الصغرى لسائر الناس الذين تغريهم مباهج الحياة وتجذبهم متعها العابرة. فلقد كان حمزة شحاتة مشغولاً في شعره بالعدل وحرية المصير والقدرة على اتخاذ القرار وتغير المسار. لقد تأثر بالشاعر جبران خليل جبران في التأمل وتأثر بجماعة أبوللو بالخيال المُحَلق، فلا يصعب على قارئ شعر حمزة شحاتة أن ينسبه إلى المدرسة الرومانسية في الشعر العربي الحديث، التي كان من أعلامها في مصر: علي محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل، وإبراهيم ناجي، ألمع الأسماء في جماعة أبوللو الشعرية. فقد قُدِّر لحمزة شحاتة أن يعيش في القاهرة العاصمة الثقافية للعرب في هذا الوقت، واستطاع أن يجاور عن كثب مجتمع القاهرة الأدبي والشعري. كل هذه العوامل صنعت من هذا الشاعر فارساً من فرسان الشعر، إذ اتسم شعره بالرصانة والجزالة وعذوبة الكلمات. والغريب أن الشاعر حمزة شحاتة عاش في مصر في سنواته الأخيرة وارتبط بها، وتشابه اسمه مع الأسماء الشائعة في مصر، الأمر الذي جعل الكثيرين يعدُّونه من شعراء التجديد في مصر، وقد غاب عنهم وجهه الحجازي الأصيل. لذا يرى بعض النقاد أن شعر حمزة شحاتة يكاد يكون صورة قريبة الروح والملامح والسمات من شعر ناجي. ففيه رقته وشجاه الشفيف وتجاربه الملتاعة وموسيقاه المتدفقة المنسابة، فضلاً عن عاطفته التي صبغت شعره كله وجعلته قريباً إلى النفس عميق النفاذ إلى الوجدان. توفي الشاعر في القاهرة عام 1970 ونقل جثمانه إلى مكة المكرمة. و«غادة بولاق» إحدى أجمل قصائده التي كتبها أثناء سنوات إقامته في مصر يقول فيها:

ألهمتُ - والحب وحي - يم لُقياكِ
رسالة الحسنِ، فاضت من مُحياكِ

من أين يا أفقي السامي، طلعت بها
حقيقة ما اجتلاها النور لولاكِ

كانت بنفسي، وقد طال المدى حُلُما
فصورته لعيني اليوم عيناكِ

يا فرحة النيل، يا أعياد شاطئه
يا زهر واديه، يا فردوسه الزاكي

يا ذخر ماضيه من فن وعاطفة
قيدته بهما لما تصباكِ

سهير الشاذلي، طنطا - مصر.



مجنون ليلى أشهر مريض قلب

طالعت واستمتعت بقراءة ملف العدد، القلب، بالقافلة نوفمبر- ديسمبر 2010، ولما كان لي بالموضوع اهتمام كان هذا التعليق.

إذا علمنا أن الشعر العربي هو شاهد عدل على أن الطب العربي كان قد شب عن الطوق باكراً، فينبغي علينا الاحتفاء بهذا الميدان، لما يزخر به من أبعاد إنسانية، وعواطف متدفقة، وأحاسيس نبيلة، وتجارب متباينة في مرارتها وحلاوتها.

فالطب فرع من فروع العلم، وهو بإجماع اللغويين والمتأدبين: علاج الجسم والنفس. والطبيب أو الطب «بتشديد الطاء وفتحها»: هو العالم بالطب «بتشديد الطاء وكسرها»، والمتطبب: الذي يتعاطى علم الطب. وليس بطبيب حقيقي. جاء رجل إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- فرأى بين كتفيه خَاتم النبوة، فقال: إن أذنت لي عالجتها فإني طبيب، فقال له النبي -عليه السلامَ- «طبيبها الذي خلقها». وقديماً كانت كلمة الطب تدل على العالم بالطب المعالج أمراض الناس الجسمية والنفسية، يقول الشاعر القديم:

إني أسائل كل ذي طب
ماذا دواء صبابة الصب؟

ودواء عاذلة تباكرني
جعلت عتابي أوجب النحب

ويطلق العرب على «النطاسي» الطبيب.

قال أوس بن حجر:

فهل لكم فيما إلي فإنني

طبيب بها أعيا النطاسي حذيماً

ويطلق العرب، كذلك، على الطبيب المداوي «الآسي» وعلى الدواء «الأساء» يقول الحطيئة:

هم الآسون أم الرأس لما

تواكلها الأطبة والأساء

لقد تلفَّتت قلوب العرب إلى الطب وخصائصه، وحلَّقت أخيلتهم في آفاقه، وطوَّفت أفكارهم في ميدانه، واستعاروا من قاموسه ألفاظاً في حللها الطبية، ودبجوا بها أشعارهم، وغالباً ما كانوا ينقلون المنى من عالم الحقيقة إلى دنيا المجاز، فهذا جرير يخلع الصحة على بعض الأفكار والسقم على بعضها الآخر في قوله:

رأى الناس البصيرة فاستقاموا

وبينت المراض من الصحاح

والحقيقة أن ميدان الطب قد أفاد منه الشعراء حين يمَّموا ساحته أيَّما فائدة، فعلّوا من ألفاظه، ونهلوا من أساليبه، وحاكوا في تصويرهم الأدبي صوراً طبية، وصبوا هذا كله في قوالب أشكال فنية رائعة، تنبئ عن ثقافتهم، وروعة تجربتهم، وحرصهم على اصطياد الأفكار والصور من شتى المصادر. ومن بين ما حوى ديوان الشعر بين أبوابه وأغراضه التي نظَم الشعراء فيها قصائدهم، باب لعلم الطب، خصوصاً الناحية التشخيصية، لذا نرى شعراء كباراً تلمع أسماؤهم في ديوان الشعر العربي طرقوا هذا الباب وتركوا لنا أشعاراً تحتاج بالفعل إلى إحكام العقل وكد الذهن «بعيداً عن مجالات الجمال ورؤى الإلهام والخيال التي يحتفل بها الشعراء العرب» من هؤلاء قيس بن الملوح «مجنون ليلى» الذي قدَّم لنا وصفاً دقيقاً لمرض القلب وهو يشخص حالته.وقد أكدت الدراسات الحديثة أن العوامل النفسية تسهم بشكل ملحوظ في تكوين أمراض عضوية كمرض تصلُّب شرايين القلب، فكلما زادت الحالات النفسية وتعددت في شخص واحد زادت خطورة أمراض شرايين القلب عليه. كما حددت الدراسات خمس حالات من الأعراض أو الأمراض النفسية التي تشكل خطورة على القلب وهي: الكآبة، القلق، الاضطرابات الشخصية والسلوكية، العزلة الاجتماعية، الضغط النفسي المزمن. وجل ما ذكرته هذه الدراسات لا يخرج في أغلبها عما وصفه مجنون ليلي، فقد ذكر في قصائد عدة أدق وصف عُرف لمرض شرايين القلب في تاريخ الطب العربي والعالمي حتى القرن الثامن عشر، كما يمكن أن ندعي أنه لم يسبق المجنون شاعر ولا طبيب في وصف آلام الذبحة الصدرية وآلام الجلطة القلبية، ويبقى ادعاؤنا أن المجنون قد توفي حتماً بالسكتة القلبية نتيجة تصلب الشرايين، فقد أدى انسداد شريان القلب التاجي إلى جلطة قلبية سببت الوفاة.والآن مع بعض أشعار المجنون التي ندعي أنها تصف هذا المرض: في البداية يقول المجنون وقد علم منذ البداية أنه مقتول بحبها:

خليلي أمّا حُب ليلى فقاتلي

فمن لي بليلى قبل موت علانيا

ويقول محدثاً قلبه الذي أودى به الحب ولم يجدَ طبيباً له:

ألا أيها القلب الذي لجّ هائماً

بليلى وليداً لم تقطع تمائمه

أفق قد أفاق العاشقون وقد أبى

لما بك أن تلقى طبيباً تلائمه

ثم يقول إنه مقروح يئن شوقاً ويغصُّ من شوقه بشرابه:

ولي كبدُ مقروحة من يبيعُني

بها كبداً ليست بذاتِ قروحِ

كما يقول:

إذا ما استطال الدهر يا أم مالك

فشأن المنايا القاضياتِ وشانيا

صلاح الشهاوي، طنطا - مصر.



من قصص الفن والحياة

سيبقى الفن حاجة إنسانية، يستوي في هذه الحاجة ساكن المغاور والكهوف وساكن ناطحات السحاب، والغني والفقير، والكبير والصغير، فلا غنى للإنسان عن تزيين بيته وحاجاته اليومية وهو يسعى إلى أن تكون دائمًا أكثر جمالاً، من الكأس الفخارية إلى الكأس البلورية، وكل ما يستخدمه لا بد أن يكون جميلاً، سواء في ذلك عصا الشيخ العجوز أو قلم الشاب، وحين يذكر الفن تذكر قصص كثيرة عن الفن والفنانين، وبعضها محض خيال، وبعضها الآخر حقيقة، ولها جميعًا دلالات وإيحاءات.

....

وضع أحد الفنانين صخرة مرمرية كبيرة في ساحة المدينة، وبدأ ينحت فيها، وفي كل يوم كان يمر به طفل وهو في الطريق إلى المدرسة، فيقف يتأمل عمله في الذهاب والإياب، إلى أن أنجز الفنان تمثاله، وهو فارس يمتطي صهوة جواد، وفي يوم الاحتفال، أزيحت الستارة عن التمثال، فتقدم الطفل من الفنان وسأله: «كيف عرفت أن هذا الفارس كان يختبئ هو وحصانه داخل هذه الصخرة؟» والقصة تدل على عفوية الطفل وبراءته، فهو يظن أن الحصان والفارس كانا في قلب الصخرة، وأن الفنان استخرجهما منها، كما تدل على دقة الفنان في صنع التمثال، ومحاكاته الدقيقة للواقع.

....

مرضت إحدى الفتيات، وانتابها الشعور باليأس من الحياة، فأغلقت نافذة غرفتها، وأخذت تنتظر الموت، وكانت كل أمنيتها أن تعرف متى ستموت، وذات يوم زارها أحد الفنانين، وما إن خرج من بيتها، حتى أخذ في رسم شجرة ذات أوراق خضراء على جدار مقابل لنافذة غرفتها المغلقة، ولما انتهى من رسم الشجرة، أسرع إلى زيارتها، وطلب منها أن تفتح النافذة، ولما رأت الشجرة أخبرها أنها ستموت عندما تأخذ أوراق الشجرة بالاصفرار، وما عليها إلا أن تعيش حياتها إلى أن تصفر أوراقها وتسقط، وأخذت الفتاة تعيش حياتها العادية، وزال عنها المرض واليأس.

....

بنى أحد ملوك الصين قصرًا فخمًا، ورصد جائزة كبيرة لمن يزين جدارين متقابلين في بهو القصر بالصور، ووعد أن تكون الجائزة الكبرى لصاحب الصورة الأجمل، وتقدم إليه فنان من الصين، وآخر من اليونان، وأخذ كل منهما في العمل، وجعل بينهما ستارة، بحيث لا يرى أحدهما عمل الآخر، وفي يوم الافتتاح دخل الملك مع الحاشية على القسم الذي كان يعمل فيه الفنان اليوناني، فدهش أمام اللوحة الرائعة التي رسمها، إذ صوّر طبيعة خلابة، فيها حقول وأشجار، تكاد تنبض بالحياة، ثم أزيحت الستارة، وتوجه الملك إلى القسم الذي كان يعمل فيه الفنان الصيني، فوجده قد غطى الجدار بمرآة كبيرة، عكست صورة الجدار المقابل، وظهر في الصورة المنعكسة الملك وحاشيته وهم يتجولون داخل تلك اللوحة، فظهرت وقد عجت بالحياة، وحار الملك لمن سيحكم بالجائزة الكبرى، وحكم بها أخيرًا للفنان الذي وضع المرآة، لأنه جعل اللوحة تمتلئ بالحياة.

تدل القصة على أن في الفن اتجاهين الأول يحاكي الحياة ويقلدها، كما في المرآة، والثاني يبدعها ولا يقلدها.

....

تلك بعض قصص الفن والحياة، وفيها ما يدل على حاجة الإنسان إلى الفن، وحاجته إلى الحكاية، وهما معًا متكاملان، وتلك هي متعة الفن ومتعة الحياة.

أحمد محبك، حلب - سوريا

قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب **القافلة** برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

الثراء الواضح

لقد اطلعت على مجلتكم الموقَّرة في المركز الصحي لجامعة الملك فهد للبترول والمعادن، وقد أُعجبت كثيراً «أنا وولدي الصغير 10 سنوات» بالموضوعات المفيدة والشيقة التي احتوت عليها مجلتكم الغراء، والثراء الواضح والتنوع في الموضوعات، وحسن العرض، وجمال الصور، والتنظيم والطباعة، حيث وفرت للقارئ كل عناصر المتعة والإفادة، لذا رغبت في الاشتراك بالمجلة، وفي حال موافقتكم، أرجو أن تُرسل إليَّ على العنوان التالي:

عاطف عبدالباسط عبده إبراهيم
الظهران

القافلة: نرحب بك صديقاً للقافلة، وستصلك أعدادها تباعاً -إن شاء الله-.

رمز ثقافي

إنني أحد المعجبين بمجلتكم الغراء والتي تحتوي على العديد من الموضوعات الثقافية والعلمية والتي تشكّل رافداً ومصدراً ثرياً من مصادر المعرفة والتي تشرفت بقراءتها والاطلاع على بعض إصداراتها، والتي أصبحت رمزاً ثقافياً نعتز ونفخر به، نظراً لإسهاماتها في إمداد الأجيال الثقافية بالثقافة والعلم في ثوب قشيب ينم عن جهد بارع في إيصال الوجبة الثقافية للمتلقي وفتح نوافذ العلم مشرعة أمام عينيه، لذا فإنني أكون ممتناً لكم بتزويدي لإصداركم الشهري أو الدوري من مجلتكم الغراء.

محمد عمر بن جحلان
جدة

القافلة: مرحباً بك صديقاً للقافلة.

تجديد صداقة

يسرني أن أكتب لسيادتكم راجياً تجديد صداقة قديمة بدأتها كقارئ لكم ثم كاتباً مشاركاً معكم وذلك منذ سنة 1984 تقريباً، وأرجوكم التكرم بإعادتها للتواصل، وأدعو الله أن تستمر إلى ما شاء الله.وأنتهز الفرصة فأطلب من سيادتكم التكرم بمعاودة إرسال أعداد مجلتنا الغراء«القافلة» وكل مطبوعاتكم الأخرى. وكل الشكر لسيادتكم مقدماً ودائماً.

ملاك ميخائيل شنوده عبدالله
الإسكندرية، مصر

القافلة: نشكر لك هذه الأريحية، ويسعدنا أن نستجيب لطلبك في إعادة أواصر الصداقة معك وتزويدك بأعداد القافلة مستقبلاً.

انقطاع

أرغب في إشعار سعادتكم بانقطاع وصول مجلتنا الغالية إلى عنواني، حيث كان آخر عدد تسلمته هو رقم 3 من المجلد 59 «مايو - يونيو 2010».آمل التفضل بتوجيه الإدارة المختصة لديكم لمعالجة سبب الانقطاع، ومعاودة إرسال المجلة، مع التكرم بتزويدي بالأعداد التي صدرت بعد آخر عدد وصلني كما هو مذكور أعلاه. علماً بأني أكتب لسعادتكم عن هذه المشكلة للمرة الثانية حيث لا يزال الانقطاع مستمراً.

د.عبدالعزيز بن محمد الرميح
الرياض

القافلة: نأسف لهذا الانقطاع غير المقصود، وسنعاود إرسال القافلة وتزويدكم بالأعداد التي لم تصلكم.

مدينة الثقافة

أود أن أتوجه وأتقدَّم بالشكر والتقدير لكل أعضاء مجلة القافلة على ما يقدِّمونه من مجلة رائعة. مجلتكم وما تحويه من موضوعات مفيدة وشيقة يجب ألا يطلق عليها اسم «مجلة» بل يجب أن يطلق عليها «مدينة الثقافة»، حقاً إنها أشبه بمدينة من الثقافة والمعرفة التي ليس لها حدود. وبكل تأكيد لا يدل هذا إلا على جهودكم المتميزة والرائعة، ولكم جزيل الشكر والتقدير.

أحمد أنيس الديسي
خميس مشيط

أفتقد القافلة

ما حزَّ في نفسي وأرقني هو انقطاع مجلتكم الغراء «القافلة» عن مواصلتي، فبعد أن أصبحنا خليلين، وبعد أن تعلق قلبي وفكري بها وفي عز عطائها لي من علم ومعرفة وثقافة وإعجاز وإنجاز إذا بي أفتقدُها، أنتظرها في موعدها فلا تحضر إليَّ، فلعل المانع خير..

كانت مكتبتي المتواضعة تزخر وتفتخر بأعدادها الشيقة وتطلب المزيد مع مطلع كل هلال فإذا بها تشكو إليَّ هجران الحبيب «القافلة» لها. فمتى يعود التواصل ويلتقي المحبان ويعود الوئام؟وأعتقد أن السبب الرئيس لانقطاع المجلة عني هو تخرجي في الجامعة «جامعة الملك عبدالعزيز»، حيث تغير عنواني البريدي السابق، فضلاً عن انشغالي بعد التخرج بالبحث عن فرصة وظيفية، وتعييني مدرساً وذلك خارج مدينة جدة في منطقة نائية لا توجد بها خدمات بريدية، والسبب الأهم هو عدم إخباركم بتوقيف المجلة مؤقتاً حتى يتم استقراري وذلك للأسباب آنفة الذكر.

وأخيراً وبعد أن تم استقراري في مدينة جدة أرجو منكم قبول اعتذاري مع أسفي الشديد لكل ما صدر مني من تقصير.

عبدالعزيز الغامدي
جـدة

القافلة: نشكرك على ثنائك للقافلة، ونرحب بك مجدداً، وسنحرص على إيصال أعداد القافلة إليك بصورة منتظمة.

تجديد العهد

كنت وما زلت أتابع مجلة القافلة التي تصدرها شركة أرامكو، فأنا أحد موظفيها السابقين وعملت فترة طويلة جعلتني قريباً من المجلة الغنية بإبداعاتها، فهي بستان رائع يضم في جنباته ثقافات عدة، ويطرح معلومات قيمة تواكب التطورات السريعة في عصر التقنية الذي نعيشه هذه الأيام، لذلك تحفل بالجديد دائماً في طيات صفحاتها، والتي يجد القارئ متعة في قراءتها والاحتفاظ بها كمرجع علمي ثقافي.

وحرصاً مني على تجديد العهد واقتناء كل عـدد يصدر لها، أود أن أكون ممن يسعده الحظ بالحصول على نسخة من كل عـدد يصدر منها، علماً بأن ابني موظف في الشركة وطلبت منه عمل طلب باسمي لأتشرف بالحصول على «القافلة» باستمرار.

أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لجميع القائمين على تحرير المجلة الرائعة على جهودكم في إبراز هذه الكنوز الثقافية عبر رسالتكم الثقافية، أتمنى أن أجد ضالتي لديكم من خلال هذه الرسالة والتي آمل أن تصلكم وأنتم بألف خير.

توفيق محمد العباد

الهفوف

القافلة: نرحب بك صديقاً دائماً للمجلة، ونفيدك بأن المجلة ستصلك تباعاً بإذن الله على أمل أن تنال إعجابك دوماً.

المشتركون الجدد

مساعد عبدالرحمن القرعاوي، الجبيل الصناعية - متعب عجيان العتيبي، الرياض - يوسف عبدالله العليان، الرياض - هيثم الحج، الظهران - فهد خليل إبراهيم المحسون، الدمام - نديم ميان، الهند - عاطف الجوهري، جدة - أنس سلهب، الرياض - علي أحمد علي آل تركي، القطيف - عبدالله حسن الزاهر، العوامية - حسين بن جواد الجارودي، الخويلدية - حسين علي الناصر، الأحساء - حسين أحمد العائش، الأحساء - حسن بن طاهر محمد العليو، الأحساء - هيثم الزين، الرياض - عبدالله محمد العلي، الهفوف - عبيد مجيد، نيويورك - ربيع زعيمية، الجزائر - بلال سعد جليل الزبيدي، العراق - السيد الحسان الرزاقي، المغرب - بدر عبدالرحمن محمد أباحسين، الرياض - بندر الربيعي، بريطانيا - عبدالمجيد بوزيان، المغرب - محمد أحمد المحروقي، سلطنة عمان - عبدالعزيز محمد الجديع، الرياض - كمال بوعمامة، الجزائر - محمد عبدالرحمن العمر، الدمام - محمد بن محمد العدواني، مكة المكرمة - صالح بن محمد الثنيان، الأحساء - وائل عبدالعزيز إبراهيم، القاهرة - بسكمار التهامي، المغرب - توفيق محمد العباد، الهفوف - محمد بشير أغادي، الهند - حصة سلمان جعفر المولد، جدة - محمد ابن طلال الغامدي، الطائف - محمد بن علي الدويه، الأحساء - حسين بن علي نور الدين، القطيف - مهد فيصل أناس، الهند - محمد رافي، الهند - محمد عبدالله آل رضوان، القطيف - نجيب رضي حسن آل خلف، المروة - د.عباس أحمد الباز، الأردن.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحب بكم أصدقاءً لـ(القافلة) التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعدا -إن شاء الله-

نحن والبطل

أدهشني ملف القافلة عن البطل في العدد6 من المجلد 58 الذي خطه بتوفيق الكاتب هشام عودة، فقد استعرض قصص البطل في معظم المجالات، ولكن أود تسجيل ملاحظتي الشخصية.

البطل كما جاء في ملفكم الجميل «له صفات كامنة في قدرته الخارقة على إنجاز ما لا يستطيع أي كان إنجازه»، هذا تعريف شامل، لكني أرى وغيري، أن هناك ما يسمى ببطل الموقف وبطل التوقيت، فكما نعرف جميعاً أنَّ كلاً منا يمرُّ بظرف ما أو موقف معيَّن يجعله أمام خيارات عدة، فإما أن يختار الطريق السليم أو الحل السليم، وإما أن يتخذ الطريق الخطأ، ويحضرني في ذلك مثال لرجل أعمال كبير وناجح مهنياً عندما تحدَّث عن مراحل حياته العملية وكيف أنَّ والده كان شغوفاً بالتجارة وحاول كثيراً أن يبني نفسه، فأسس شركة للمقاولات وأخرى للاستيراد والتصدير، إضافة إلى محال أخرى ومطاعم، لكن كل هذه المشاريع التي كانت تستنزفه مادياً لا تكاد تؤمِّن مصاريف الأسرة. وعقب موت الأب وجد الابن وهو «رجل الأعمال» أنه أمام مهمة صعبة جداً، وبعد دراسة للوضع الجديد قرَّر أن يركز على شيء واحد ورأى أن الاستثمار فيه هو الأجدر والأنفع، واختار أن يقوم بتصفية كل المحال والشركات من أجل العمل في المطعم. كانت ديون والده عقب تصفية تلك الأعمال بلغت نحو مليون ريال وهو مبلغ ضخم جداً في ذلك الوقت، وبدأ العمل في المطعم فقط، بتوفيق من الله سدَّد الرجل ديونه، وبدأ تحقيق الأرباح، وقام بفتح فروع عدة للمطعم حتى أضحى يمتلك سلسلة من أشهر مطاعم المدينة. الذي أقصده هنا أن قرار الرجل «الذي أراه بطلاً» بتصفية كل الأعمال التي تركها والده والتركيز على ما رآه مناسباً كان قراراً استراتيجياً، أنقذ الأسرة من الديون وأمَّن حياة رغد وعز، فأصبح بطلاً.

والمغزى أن كل إنسان يتعرض لموقف في حياته أو تجربة تستدعي اتخاذه قراراً حاسماً وقد يكون صعباً أو محرجاً، يراه من حوله بالجنوني، لكن في حال اتخاذ القرار الصحيح أو المناسب الذي يقود إلى النجاح، سيكون متخذ القرار الناجح بطلاً دون شك.

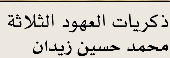
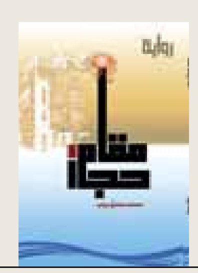
نسرين نجيب

الرياض

- **تعقيباً على ملف القافلة «البطل»، في العدد 6 من المجلد 58.**

قافلة النشر

جداول



ذكريات العهود الثلاثة
محمد حسين زيدان

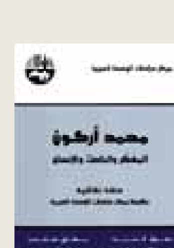
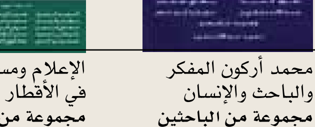
مقام حجاز
محمد صادق دياب

القَبليَّة عجز الأكاديمي ومراوغة المثقف
نعيمان عثمان

شيء من النقد شيء من التاريخ
علي العميم

التفكير بعد هيدغر أو كيف الخروج من العصر التأويلي للعقل؟
فتحي المسكيني

مركز دراسات الوحدة العربية




محمد أركون المفكر والباحث والإنسان
مجموعة من الباحثين

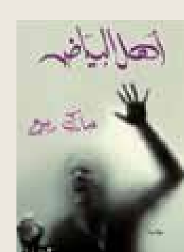
الإعلام ومسيرة الإصلاح في الأقطار العربية
مجموعة من الباحثين

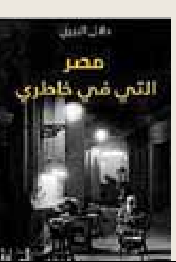
الطفل في الوطن العربي واقع واحتياجات
مجموعة من الباحثين

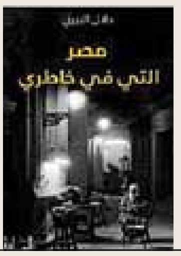
تدابير التاريخانية الحاضرية وتجارب الزمان
فرانسوا هارتوغ

تضخيم الدولة العربية
نزيه الأيوبي

دار الساقي




فرصتنا الأخيرة
عبدالله الثاني ابن الحسين

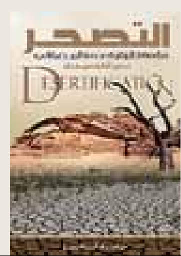
أهل البياض
مبارك ربيع

مصر التي في خاطري
دلال البزري

الملح تاريخ عالمي
مارك كورلانسكي

الديموقراطية الثورية
توماس جيفرسون

دار الفجر للنشر و التوزيع





علم الاجتماع العائلي المعاصر
أ.د.مديحة عبادة

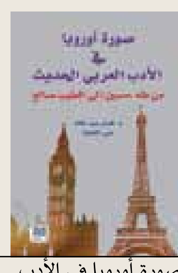
التصحر
د.أسامة حسين شعبان

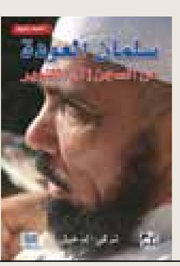
معالجة الأخطاء البشرية
أ.د.محمد عبده حافظ

اضطرابات السلوك عند الأطفال
د.عادل يوسف أبوغنيمة

التليفزيون النوعي
رفعت عارف الضبع

مدارك



الصندوق الأسود
عبدالله المغلوث

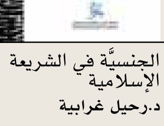
صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث
د.كمال عبدالملك

بوح ونواح
د.شاهر النهاري

سلمان العودة
تركي الدخيل

الشبكة العربية للأبحاث والنشر





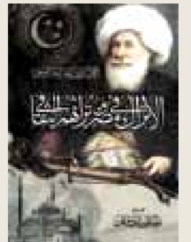
أعلام الفكر العربي
د.السيد ولد أباه

أيام العرب الأواخر
سعد العبدالله الصويان

الجنسيَّة في الشريعة الإسلامية
د.رحيل غرايبة

الأمة والدولة والتاريخ والمصائر (عدة مؤلفين)

دار الشروق


النبطي
يوسف زيدان

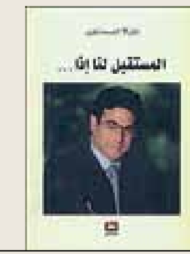
الطنطورية
رضوى عاشور

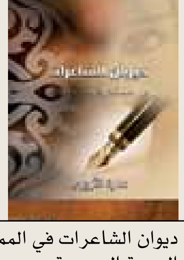
الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي
أكمل الدين إحسان أوغلو

كوكبنا الأزرق في قيود خضراء
فاتسلاف كلاوس

الفارابي





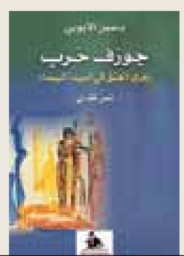
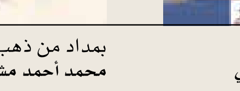
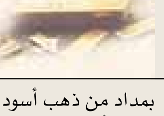
تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب
د.جورج قرم

المستقبل لنا إذاً..
نقولا الصحناوي

ديوان الشاعرات في المملكة العربية السعودية
سارة الأزوري

تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي
د. يمنى العيد

رياض الريس للنشر والكتب


على حافة الصمت
لمى إسماعيل

جوزف حرب
ياسين الأيوبي

بمداد من ذهب أسود
محمد أحمد مشاط

أم كلثوم نغم مصر الجميل
جهاد فاضل

القراءة في عصر التقنية

وخير جليس في الزمان.. الإنترنت!



على الرغم من إقبال جمهرة كبيرة من الأجيال العربية الشابة على سبر أغوار العالم الافتراضي، فإن المحتوى العربي «النظيف» لا يزال قليلاً جداً على الإنترنت. فريق القافلة يسبر أغوار هذا القلق من خلال وجهات نظر بعض الكُتَّاب.

مخاوف جمة من أن يقتلع تسونامي الإنترنت شجرة القراءة «الورقية» الوارفة التي أظلَّت العالم لقرون طويلة، كان خلالها الكتاب خير جليس، ومصدراً وحيداً للعلم على السواء، ولا سيما في ظل تلك السهولة التي تمكن بها الشبكة العنكبوتية زائرها من الحصول على المعلومة في زمن وجيز، مفسحة المجال لممارسة تطبيقات أخرى بدأت تحتل مساحات شاسعة من حصة القراءة.

يرى محمود تراوري، الكاتب، ورئيس القسم الثقافي في جريدة الوطن، أنه «لا يمكن النظر إلى أمر القراءة دون التطرق لمسيرة التنمية في العالم العربي منذ ظهور الدولة القطرية الحديثة في بدايات القرن العشرين، وما حمله من تراكمات قرون من السبات والجهل والأمية، وما تلا ذلك من مشكلات تنموية. كل هذه الأمور مجتمعة، أفضت إلى حالة من التشيؤ، وضعف مخرجات التعليم، وشيوع مشاعر الإحباط واليأس، لذلك أتصور أن محدودية القراءة، أو اقتصارها، كما هو الآن، على المسلِّي والاستهلاكي السطحي، إنما يرجع لخلل في الأنظمة الدراسية والاجتماعية التي لم تفلح في أن تجعل القراءة جزءاً أساسياً من الممارسة الحياتية اليومية للفرد العربي، بل بالعكس، فمناهجنا كلها تلقين، ومادة المكتبة والقراءة والمطالعة، مادة هامشية جداً، لا تنعم بأي جدية في التعاطي معها على مستوى التعليم. من هنا يمكننا أن ندرك نوعية العلاقة غير الجيدة بين الطالب والكتاب. وهناك، أيضاً، بعض وسائل الإعلام وما تفعله، إضافة إلى المأزق الأخلاقي الجمالي الذي نعيش فيه، من حيث الأمية البصرية، وتردٍّ في مستوى الذائقة وتراجع للقيم. وكلها أسباب تفضي إلى إهمال القراءة وتسطيح الوعي أو انعدامه كلياً».

ويؤكد تراوري: «على هذا يكون النتاج أفراداً غير جادين، ومفاهيمهم للحياة لا تخرج عن المتعة، دون الإحساس أبداً بأنهم عالة على الشعوب والمجتمعات. وأعتقد أنه، خليجياً، كان للوفرة المالية وطفرة النفط منذ سبعينيات القرن الماضي، دور أو مسؤولية إلى حد كبير في ذلك. فلم تكن هناك معايير صارمة تضبط عملية الابتعاث، حتى عادت أجيال تحمل أعلى الشهادات، ولكنها على مستوى الوعي والمعرفة لا يعوّل عليها.

واستدعى تراوري رؤية عالم الاجتماع «دوركايم» حول الاستهلاك، «حين رأى أن الثورة الصناعية في زمنه أنتجت رغبات استهلاكية غير قابلة للإشباع، وتؤدي إلى تآكل الأساس الأخلاقي للنظام الاجتماعي. بشكل ما، هذا ما يحدث في تعاطينا، كعرب، مع شبكة الإنترنت. فدراسة حديثة أعدتها لجنة بالأمم المتحدة أكدت الندرة الشديدة للمحتوى العربي على الشبكة الدولية، إذ لا يتعدى 3٪ من إجمالي المحتوى العالمي.

فعل ماض

يرى خالد السهيل، مدير تحرير صحيفة الاقتصادية الإلكترونية، الكاتب والمدون على الإنترنت، أن «النظرة المتجردة للأشياء، تقول إن ولوجنا عالم الإنترنت ونوافذ الإعلام الجديد، فتح آفاقاً واسعة، لكنه من يوم لآخر يسهم في تجفيف ما بقي من الود مع الكتاب المطبوع. هل هذا يعني أن فعل القراءة أصبح من الماضي؟ بالتأكيد لا. الجيل الجديد في العالم العربي كانت غالبيته على قطيعة مع القراءة قبل الإنترنت وبعدها. بل إننا لا نجانب الصواب إن قلنا إن هناك فئة تقرأ على الإنترنت أكثر مما قرأه جيل سبقهم. إنما يبقى هذا النسق يلاحق الأمر بشكل كمي فقط، ولا يعني أن الكيف يعطي مؤشرات إيجابية».

ويستدرك السهيل أن «العالم العربي، يكتنز جملة مزايا تجعله حيوياً، إذ لا شكوى من حالة شيخوخة في مجتمعاتنا، كما هو حال أوروبا، لكن الفارق بين الإنترنت بالعربي وسواه، أن الآخرين عملوا على إثراء محتواهم، فأصبحت الآفاق واسعة، بينما بقي المحتوى العربي ضحلاً، وغالبية الأفعال الإيجابية التي حاولت تخطي حالة فقر المحتوى، تتوسل بحلول بائسة، تعتدي على حريات الملكية الفكرية، وهي عشوائية، تنسخ هذا الكتاب أو ذاك بإحدى الصيغ المتاحة، ثم تلقي به في موقع للمشاركة، وتبدأ الأيدي تتناقل النسخ المقرصنة من المجلة أو الكتاب، عن طريق المنتديات ومواقع التواصل الاجتماعي. من هنا تجسد المعادلة واقع الأزمة والتي مفادها أن الفعل المؤسس والذي يتوخى إثراء المحتوى العربي، يبدو ضئيلاً ومحدوداً، لأن من يملكون الفكر، وهذه حقيقة يجب الاعتراف بها، ليس شرطاً أن يكونوا متصالحين مع الثقافة الإلكترونية، ومن يعملون في المجال التقني، يحتاجون إلى التثقيف كي يتمكنوا من وضع خارطة تقنية تستطيع أن توفر المحتوى الجيد وتثريه بشكل مستمر».

ويؤكد السهيل أن «التصفح على الإنترنت، للوسائط التقليدية أعطى مساحة مميزة للكتاب المقروء، لكن الملاحظ ندرة من ولجوا إلى هذه المنطقة كاستثمار بحكم

شح المردود المتوقع. هذا الأمر ينسحب بالتأكيد على التطبيقات المستجدة في مجال النشر مثل الآيباد، وبقية وسائط القراءة الإلكترونية. الأمر يحتاج إلى ضخ أموال من أجل إنشاء المحتوى العربي الجيد في الإنترنت، في مقابل المحتوى الرديء الذي يشبهه، إلى حد بعيد، الساندوتشات السيئة التي لا تضيف إلى الفكر شيئاً، وتعطي مضامين أقل ما يمكن وصفها به أنها تخلو من التهذيب».

ويستبعد السهيل أن يكون لإثراء المحتوى العربي على الإنترنت أي مردود استثماري، واصفاً إياه بالمغامرة، موضحاً بأنه لا ينبغي التعامل معها على هذا الأساس، «إنها فعل قومي لا يمكن التنصل منه، لأن الإنترنت هي الوسيط الوحيد الذي أصبحت الأجيال الجديدة تتلاقى من خلاله وتتفاعل وتنفعل. لقد نمت لدى شبابنا وفتياتنا فكرة التسوق الإلكتروني للحصول على أشياء متعددة على غرار الأجهزة الإلكترونية والأفلام والبرمجيات المختلفة والإكسسوارات، هذا النجاح مرتبط بكون محتواها ليس محكوماً بقضية التعريب. لكن المحتوى الفكري العربي، بوصفه فعلاً يختص بالجغرافيا العربية، يحتاج، حتى يصل إلى الشريحة الأكبر في عالمنا العربي، إلى أن تتوافق عليه حكومات عربية حتى تتمكن من تغيير الرقم الضحل الذي يمثله المحتوى العربي وترفع من شأنه.كما أن وجود عشرة ملايين مستخدم للإنترنت في السعودية يعني أن القراءة والتصفح غالباً ما يكونان من خلال الإنترنت. والنمو المستمر في التواصل عبر الإنترنت من خلال الأجهزة المحمولة، جعل فعل القراءة والكتابة، والفعل والتفاعل، تتم في كل وقت وفي أي مكان. إن واجب الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني أن تزيد من حجم مبادراتها الإثرائية للإنترنت، والأمر ينبغي أن يقفز من فخ الشعارات إلى الفعل الحقيقي الذي يستقطب المؤمنين بهذه الأفكار ويدعمهم، بدلاً من أن يبقوا يغردون خارج السرب، لأنهم لا يملكون الإمكانات التي تجعلهم يؤثرون في المشهد الإلكتروني».

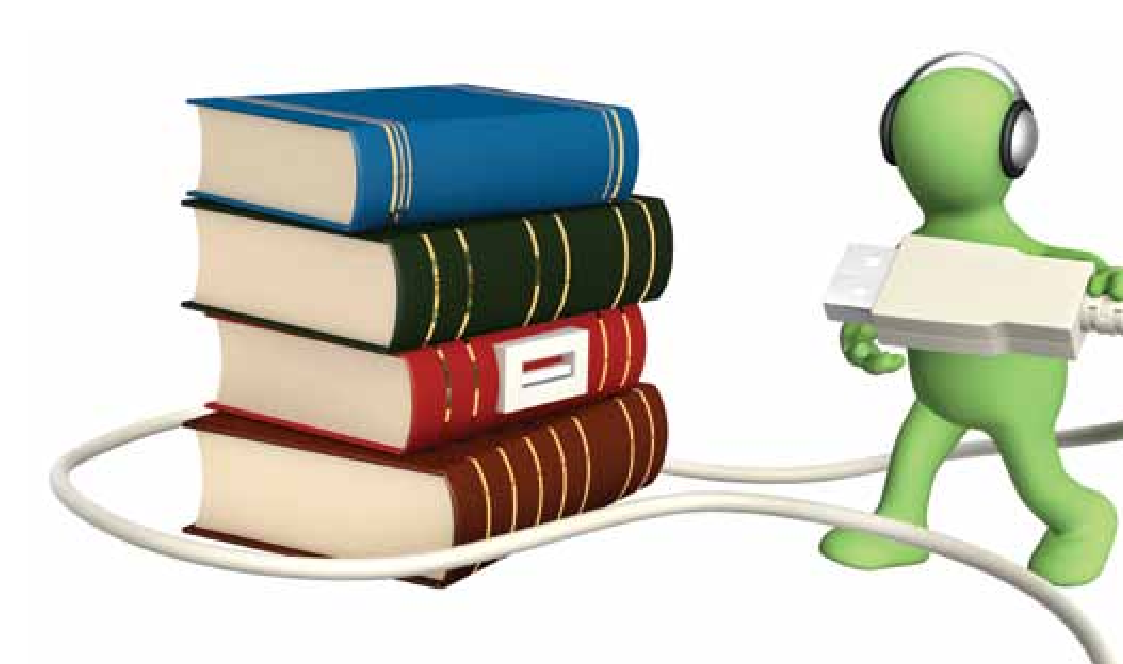
هل تؤدي ضحالة المحتوى العربي على الإنترنت إلى جعل القراءة فعلاً ماضياً بالنسبة للجيل الجديد الذي يقاطع الوسائط الورقية ولا ينفعل إلا من خلال بريق الشاشات الإلكترونية الساحر؟

ويؤكد السهيل أن «هذا هو الخيار الوحيد الذي يمكن أن يجعلنا ننأى عن الكابوس القادم المتمثل في السؤال الصاخب: هل تؤدي ضحالة المحتوى العربي على الإنترنت إلى جعل القراءة فعلاً ماضياً بالنسبة للجيل الجديد الذي يقاطع الوسائط الورقية ولا ينفعل إلا من خلال بريق الشاشات الإلكترونية الساحر؟».

البقاء للأجدى

ويصف عادل الحوشان، الكاتب والروائي السعودي، واقع القضية بأن النشر الورقي في السنوات الخمس الأخيرة يعاني أزمة قارئ، «وبالتالي أزمة اقتصادية تجارية، بعض الدول، وتسمية الدول تنطبق على «إمبراطوريات إعلامية عالمية»، سارعت إلى تسريح موظفيها أو تقليصهم، وبعض المؤسسات أقفلت مكاتبها أو حولتها إلى مؤسسات رقمية، بمعنى أوقفت إصداراتها الورقية، وبعضها غيَّر نشاطه إلى داعم لوجستي في مجال صناعة الإعلام».

ويرى الحوشان أن «العالم العربي متأخر كثيراً في تبني أفكار جديدة في النشر الإلكتروني، وهو في مؤسساته الإعلامية إعلام مقلِّد. هناك الكثير من الشواهد التي تثبت أننا نتخذ خطوات متأخرة بناءً على ما يفعله الإعلام الغربي، أمريكا أو أوروبا مثلاً. فالإعلام العربي لا أفكار لديه يمكن طرحها في البرامج الجماهيرية دون أن يكون المختبر أمريكياً بالدرجة الأولى، ويتمتع بتجربة زمنية كافية إلى درجة أنه أصبح مستهلكاً بالنسبة





لنا، باستثناء الإعلام الإخباري الذي يعتمد، أيضاً، على صناعة التقارير التي لا يمكن مقارنتها بالتقارير الإخبارية الغربية، ونحن نأتي لنفكر، باستنساخه عربياً، هذه النسخ التجارية تجد مساحات إعلامية فارغة يمكن أن تُعبأ بنسخ مكررة، بما أن الفضاء الإعلامي العربي لم يجد بعد غير الظواهر ليركز عليها، إعلام لم يجد في نفسه القدرة بعد على صياغة إعلام جديد ومولّد للأفكار أو صناعته».

ويشير الحوشان إلى ما ذهب إليه الباحث والمفكر د.عبدالرحمن حبيب في دراسة مقارنة بين الكتاب الورقي والكتاب الإلكتروني من «انخفاض إجمالي مبيعات الكتب 1.8٪ عام 2009م مقارنة بالعام الذي قبله، حسب التقرير الأخير لجمعية الناشرين الأمريكان (AAP). وهذا الانخفاض لا يعكس عدد الكتب المباعة بل قيمتها. بالمقابل فإن مبيعات الكتب عبر الإنترنت ترتفع سنوياً بمعدل 71٪ منذ عام 2002م. فهل انخفاض إجمالي المبيعات سببه، جزئياً، ارتفاع مبيعات الكتب عبر الإنترنت؟ بعضهم يقول إنها مجرد مصادفة، خصوصاً مع الأزمة الاقتصادية العالمية، فالكتب المباعة بالإنترنت تمثل 1.3٪ فقط من إجمالي مبيعات الكتب «حوالي 313 مليوناً من 23.9 مليار» لعام 2008م، ونسبة 3٪ لعام 2009م. لكن التقارير المبكرة عن 2010م بالولايات المتحدة، تشير إلى استمرار زيادة مبيعات الكتاب الإلكتروني، حيث ارتفعت بنسبة 193٪، مثلت 9٪ من إجمالي جميع المبيعات، بينما واصلت مبيعات الكتاب الورقي انخفاضها، وتتفاوت النسبة حسب موضوع الكتاب، إذ إن بعضها زاد مثل الكتب المدرسية والتعليمية».

ويقول د.حبيب إن ثمة استنتاجات رغائبية منحازة للكتاب الورقي رغم أن الأرقام تشير إلى عكس ذلك، لأن هذه الأعمال تصدر من قطاع النشر الورقي ما يشير إلى وجود مصلحة في طريقة تحليل النتائج والاستنتاجات، لكن الأكيد أن ثمة تغييراً كبيراً بدأت ملامحه العالمية تظهر على عادات القراءة نفسياً واجتماعياً واقتصادياً مع ظهور الإنترنت والكتاب الإلكتروني، ما يوحي بأنه بعد بضعة عقود قد يتحوَّل الكتاب الورقي إلى مجرد زخرفة تراثية توضع لتزيين الأماكن».

كما يبيِّن الحوشان أن «الانحياز التقليدي للورق ملتصق إلى حدٍّ ما بالعادات البشرية اليومية أو الحياتية، والتخلص منها يستلزم وجود بدائل، هي الآن في أوج نموها وتطورها، مع وجود تقنيات حديثة قادرة على تغيير هذه العادات بشكل لا يمكن الوثوق بما ستفضي إليه في عالم النشر، ما لم يتحوَّل النشر العربي إلى سوق تفكر كيف تسهم في استثمار التقنية من أجل الثقافة والفن والأدب، والإنسان قبلها بعلاقاته المفتوحة بالعالم».

إلى الثورة الرقمية سِرْ!

أتى العصر الرقمي وشبكة الإنترنت بتحديات كبرى لصناعة النشر التقليدي غدت تهدِّد ما ألفه الناس من وسائل قراءتهم. جايسون إبستاين* الذي خاض تجربة واسعة في صناعة النشر وعمل في واحدة من أكبر دور نشر للكتب في العالم، راندوم هاوس، يعرض لكتاب «تجار الثقافة: صناعة النشر في القرن الحادي والعشرين» لعالم الاجتماع البريطاني جون ثومبسون.

Merchants of Culture: The Publishing Business in the Twenty-First Century, by John B. Thompson, Polity, 432 pages.





قدَّم الباحث الاجتماعي البريطاني جون ثومبسون في كتابه دراسة استقصائية مسهبة حول نشر الكتب في الوقت الراهن في الولايات المتحدة وبريطانيا، محذراً من خطأ الانسياق وراء ظاهر الأرقام التي قد نطالعها حول النشر الورقي والنشر الإلكتروني، بقوله: «قراءة الواقع تقول إن مبيعات الكتب الإلكترونية حققت حضوراً كبيراً، أمام تراجع مبيعات الكتب المطبوعة، بيد أن هذه قراءة سطحية لواقع النشر، فنحن لا نزال بعيدين كل البعد عن اعتماد الناشرين على مبيعات الكتب الإلكترونية بديلاً للكتب المطبوعة، أو حتى الاعتماد عليها في حصة من عائداتهم».

يعتقد ثومبسون أن صناعة النشر لا تزال في مرحلة مخاض لم تتكشف نتائجه بعد، مستشهداً بالتأثير الكبير الذي أحدثته مطبعة جوتينبيرغ على صناعة الكتب في أوروبا، مؤكداً مجدداً أن هذا التغيير التاريخي، شأنه شأن جميع المشاريع البشرية، لن يكون له القول الفصل في عالم النشر. لكن هذا التوجس من ثومبسون لم يمنعه أن يعبِّر عن سعادته بما تحقق من إنجاز لهذه الصناعة، بتمكن المقيمين في أقاصي الأرض حالياً من القراءة لكتاب مثل سو تونج بو، ومارك توين، وليو تولستوي بعدة لغات، مشيراً في الوقت نفسه إلى كتابي «رأس المال» و«المنبع» متوقعاً أنهما سيلقيان، شأنهما شأن الكتب الرقمية السابقة، صدى أوسع من ذي قبل لدى أولئك المعرضين عن القراءة.
ينبغي للمتحمسين للكتاب الرقمي الأخذ في الحسبان أنه في الوقت الذي يتوسع فيه نطاق الإعلام الإلكتروني، تتراجع جودة إصداراته. تدبروا هذا الانحدار: برامج متميزة مثل Masterpiece Theatre إلى Jersey Shore، ومن شخصيات بارزة مثل فرانكلين روزفلت وأدليا ستيفينسون إلى سارا بالين، ومن الطاهية جوليا تشايلد إلى راشيل راي. تخميني أن المستقبل الرقمي الذي يتيح للجميع أن يصبحوا كُتَّاباً مشهورين سيقف عند مفترق طريقين: أحدهما طريق ضيق تجاه نتاج متنوع متعدد اللغات، أكثر تخصصاً بمتوسط جودة أعلى، والآخر أكثر اتساعاً ينفتح انحداراً نحو مساحة أكبر من التهافت وعدم الترابط، بينما تواصل الحكمة المضيئة من الأعمال المتميزة والنقد البنّاء الحفاظ على الجوهر والتفريق بين الغث والسمين.

إن طرق الحفظ الإلكترونية ضعيفة، وهي موضع لتلقي أي هجمات غير متوقعة، أو للتلف والمسح من دون قصد بما في ذلك المواقع الخاضعة لأنظمة مستبدة أو أفراد متعنتين. إن المخطوطات التي يرجع تاريخها إلى ألفي سنة لن تأخذ طريق الأقراص المدمجة أو مادة الفينيل، بل ستبقى بسبب محتواها القيم الذي ينبغي حفظه، في حين ستزداد دائرة استعمال الكتب والألواح الإلكترونية، وغيرها من التصاميم المستقبلية التي تحتاج إليها الموسوعات المعرفية، وكتب الأطالس، والكتيبات، وما إلى ذلك من الإصدارات التي تخضع للمراجعة المستمرة والتي يتأتى تحميلها الآن مادة مادة.

إن الصناعة التي درسها ثومبسون في كتابه، دع عنك المستقبل الرقمي الذي وصفه من بعد، لم يكن يتأتى تخيلها قبل 52 عاماً عندما كنت أعمل في دار راندوم هاوس محرراً، حين كانت ثقافة الكتاب الناجح الذي لا يزال مطلوباً بغض النظر عن سنة صدوره، علامة تميز وخدمة حضارية. كنا فخورين بقائمة كتبنا المشرقة وقسنا كل قرار تحريري بقائمة كتب معروفة مسبقاً، هي التي حافظت على مستوى مرتفع لصناعة نشر قوية لعقود، وظننا حينئذ أنه سيكون لهذه القائمة هذا التأثير على الدوام. أخذ محررو الدار على عاتقهم كل المسؤوليات ما عدا تلك المتعلقة بالاستقلال المطلق. كان هناك ثمانية أو تسعة منا في مراتب متساوية بشكل أو بآخر في تلك السنوات، وذلك بمساندة مساعدي التحرير وفريق عمل فني صغير يتكون من خبير دعاية، ومدير مبيعات مسؤول عن عشرات أو يزيد من المراسلين، ومدير إنتاج، ومدير فني، ومدير الأعمال، ومحررين، وموظف استقبال، وعامل سنترال، وعدد من موظفي المستودعات، والمؤسسين الذين يتقاسمون سكرتيراً واحداً. كانوا جميعهم يضطلعون بمتابعة الأحداث الكبرى وإصدار قرارات تحريرية للمحررين، إلا في الحالات التي تنطوي على مخاطر غير اعتيادية. كان الترحيب كبيراً بأفضل الكتب مبيعاً، لكنها لم تكن مسألة حياة أو موت كما هي اليوم. إذ كانت

قائمة أكثر الكتب مبيعاً تحظى بدورة طويلة من الطلب على قوائم الكتب العادية، التي كانت تحتل واجهات مئات المكتبات في المدن والضواحي. كانت إجراءاتنا غير رسمية، إذ لم نكن نعقد أي اجتماعات.

على النقيض من حال السوق اليوم الخاضع لهيمنة حلقات محلية قليلة، فإن ملكية معظم المكتبات تعود إلى مُلاَّك محليين وتدار من قِبَلهم أيضاً. كما أن فرق العمل كانوا قراءً نهمين يقدِّمون التوصيات لزبائنهم. كثير منهم كانوا أصدقاءنا وأمناء أسرارنا الذين يبقوننا على اتصال بأوضاع السوق.

تحتوي الكتب، أكثر مما يؤلف في وسائل أخرى، على الحضارات، على ذلك الحوار المستمر بين الحاضر والماضي، من غير هذا الحوار فإننا ضائعون لا ريب

كل صباح كنت أذهب إلى القبو حيث غرفة البريد لقراءة طلبات اليوم، قبل أن أتوجه صاعداً الدرج إلى مكتبي. كانت دار راندوم هاوس تشع سعادة ونجاحاً، وقد أصبحت حقيقة، بعد أن كانت حلماً جميلاً عند كل من وليم فوكنر، وجين جاكوبس، وبيل ستايرون، وتيد جيزيل، وجون أوهارا، وجيم ميتشنر، وروبرت بن وارن، عندما احتفظ أصحاب الدار بالمشكلات المؤرقة لأنفسهم بينما كنا نقضي أيامنا ولياليناا بصحبة أولئك المؤلفين. كانت الشركة تجني الأرباح، لكن الناتج المادي كان مجرد وسيلة وليس هدفاً بعينه. ما كان يشكّل لنا أهمية قصوى هو العمل نفسه.

عندما التحقت بالشركة عام 1958م، كانت مبيعاتها تقل عن ثمانية ملايين دولار. ونظراً لأنها شركة ذات ملكية خاصة، فلم يولِ أيٌّ منا اهتماماً أو يدرك قيمة ذلك، إلى أن حوّلها المُلاّك إلى شركة عامة لتحديد حد أدنى للقيمة التقديرية لأغراض عقارية مستقبلية. وبعد استحواذ مجموعة من الشركات الصغيرة، بما فيها شركة ألفرد نوف، قام المُلاك، تمهيداً للتقاعد، ببيع الدار إلى شركة RCA عام 1965م مقابل أربعين مليون دولار، وكان مبلغاً خيالياً.

تصورنا أن شركة RCA التي تملك واحدة من أكبر شركات الإنتاج الموسيقي، تأثرت بقائمة أكثر الكتب مبيعاً لدى الدار، تم انتزاع شركة RCA من قبل شركة جنرال إلكتريك، التي لم تجد سبيلاً إلى الانتفاع بها وسط محركاتها النفاثة، وقاطراتها، فتم بيع الشركة مجدداً إلى شركة كوندي ناست. وجدت دار راندوم هاوس نفسها في نهاية المطاف، مثقلة بالأعباء، فانتقلت ملكيتها إلى الناشر الألماني العملاق برتلسمان، مقابل بليون دولار، وعُدّ سعراً مذهلاً عام 1998م، بالنسبة لشركة ناضجة وناجحة في صناعة ثانوية. ببلوغ هذه المرحلة، تلاشت معالم الدار التي كنت أعرفها.

تحتوي الكتب، أكثر مما يؤلف في وسائل أخرى، على الحضارات، على ذلك الحوار المستمر بين الحاضر والماضي، من غير هذا الحوار فإننا ضائعون لا ريب. ولكن الكتب شأن تجاري أيضاً، وهو ما يدور عليه ثومبسون في كتابه. فهو من حيث كونه عالماً اجتماعياً يدرس في هذا الكتاب «تخصص» نشر الكتاب كما لو كان ثقافة غريبة. لقد «أصغى تماماً إلى أناس يتكلمون لغة لا يفهمها حتى أمسك أخيراً بقواعد نحوها فصار كلامهم عنده مفهوماً». من هذا المنطلق أعاد ثومبسون «بناء منطق تخصص صناعة نشر الكتاب».

إن ما بذله في كتابه من جهد غدا قصة ثقافة يتهددها الاضطراب وهي تواجه تغيراً عميقاً في طرائق إنتاجها وهو مثقل بماضيها بما يجعله غير قادر على اغتنام الفرص التي يتيحها التغير التقني.

لو تأتى لثومبسون أن يبدأ كتابه بما انتهى إليه، ووصف ثقافة النشر وهي في مرحلتها الانتقالية إلى المستقبل الرقمي، لكان قد أتى بقصة أشد إثارة.

بدأت مشكلة النشر بشكل عام في الثمانينيات، عندما انقلب كيان تجارة الكتب على نحو غير متوقع، نتيجة للتحول الديموغرافي من المدن إلى الضواحي. فلقد لاحت ملامح اختفاء أصحاب المكتبات العريقة والمستقلة والمدنية، واختفت معهم القوائم الثمينة للكتب الخالدة وملاك الكتب والكتبة المدركين لشغف قرائهم المميزين وميولهم. يرجع ذلك إلى أن القرّاء أنفسهم قد هاجروا إلى الضواحي. ظهر بديلاً عن المكتبات الحقيقية سلسلة من معارض الكتب الصغيرة في الأسواق العامة والمراكز التجارية، التي تدفع قيمة إيجار المعرض نفسه الذي يدفعه معرض بيع الأحذية المجاور معتمدة على الطريقة نفسها في جمع العائدات. أثرت هذه التحولات، أيضاً، في دار راندوم هاوس التي فقدت هويتها شأنها شأن غيرها من دور النشر. استعارت هذه المحال خطتها التجارية من مطاعم مكدونالدز للوجبات السريعة . فأصبحت الكتب تعامل معاملة سندويتشات الهامبورجر، كقطع سريعة الانتقال وبسلطة إغرائية ضخمة يعمل على تقديمها فريق عمل غير معقّد لطبقة عادية من الزبائن، تنظر إداراتهم إلى الكتب على أنها وحدات، بينما لم يعد هناك أي نوع من التواصل مع الناشرين.

هكذا ذابت قوائم الكتب الخالدة، وأصبح الناشرون يعلقون

جل آمالهم الآن على أكثر الكتب مبيعاً. وهي بالنسبة لأولئك الناشرين الرأسماليين طامة وقعت على رؤوسهم، وطفرة بالنسبة لوكلاء المؤلفين الكبار الذين تمكنوا الآن من المتاجرة بأسماء المشاهير في مزاد علني، مجبرين الناشرين بذلك على المخاطرة بضمانات أعظم؛ بهدف تحمل مسؤولية تزويد محال المراكز التجارية بأفضل الكتب المتاحة مبيعاً. وبهذا لن تتمكن من تكبد نتائج العجز وتعويض خسائر فشل هذه الضمانات وشحن النسخ غير المباعة وإعادتها إلى المخازن سوى الدور الثرية فقط.

منذ أصبح الحجم إلزامياً، كان لا مفر من التوجه إلى دمج الشركات ولا يزال التوجه نحو مزيد من الدمج. والنتيجة ظهور التكتلات المتداعية اليوم بعلاماتها الوهمية التي تدعمها طبقات من إدارة مكلفة وعاجزة في الوقت نفسه عن الاستجابة بكل المقاييس للتوسع الذي طرأ على السوق الرقمية، ما استدعى ابتكار أساليب جديدة أساسية لم يفرضها الناشرون، بل فرضتها السوق الإلكترونية نفسها؛ جوجل، وأمازون، وأبل. الأمر الذي يلقى استجابة ضئيلة ومتأخرة من قِبَل الناشرين.

في منتصف الثمانينيات، اقترحت على زملائي في راندوم هاوس أن نعمل على إنشاء فهرس، يرسل بالبريد المباشر، يضم حوالى 40.000 عنوان مختارة من القوائم الخاصة بجميع الناشرين حتى يسهل على القراء استعراض القوائم وطلب ما يشاؤون من طريق رقم مجاني. لم تكن التجارة عبر شبكة الإنترنت شائعة بعد، لكن تباشير العالم الرقمي كانت تلوح في الأفق، وأصبحت كلمة «وسطاء» ذات رنين خاص. وطرحت فكرتي في ضوء عدم مقدرة بائعي التجزئة المتزايدة على تخزين قائمة شاملة، ما يتيح لنا فرصة بيع قوائمنا للقرّاء مباشرة. كنت، بلا شك، أزمع اقتناص الفرصة التي سبقنا إليها موقع أمازون في الأخير. رفض زملائي الفكرة برمتها خوفاً من استثارة غضب بائعي التجزئة، وربما لأن القوائم المتداخلة تقترح إظهار ألفة غير لائقة بين المنافسين، كانت اعتراضات معقولة حينذاك.

إن التغير التقني مثمر. فالرهبان في حجرات النسخ في أديرتهم لم يخترعوا المطبعة، ومربو الخيول لم يخترعوا السيارات، وصنّاع الموسيقا لم يخترعوا أجهزة التخزين (iPod)، ولم يطلقوا مواقع مثل آي تونز iTunes. في مطلع القرن الجديد وجد الناشرون أنفسهم مقيدين داخل سجن التاريخ ومحاطين بالابتكارات الرقمية المباغتة، وقد فوتوا فرصة حرجة أخرى اختطفها موقع أمازون أيضاً، بتشكيل دليلهم الرقمي العالمي هذه المرة، وبذلك يقدِّمون خدمة مباشرة لمستخدمي الكتب الإلكترونية، وفق شروطهم التي يملونها أثناء قيام الموقع بجمع الأسماء وعناوين البريد



الإلكتروني والأسماء المفضلة لدى الزبائن. وسيترتب على هذا الخطأ الاستراتيجي تبعات كبيرة لاحقاً.

يقول ثومبسون في كتابه: «مهما يحصل، فإن الكتاب في حالتيه المطبوعة والإلكترونية التي أصبحت تجذب القراء على نحو كاف سيبقى يلعب دوراً مهماً في حياتنا الثقافية والعامة. إن الكتب لهي شكل راقٍ من أشكال التواصل تتلاقى فيه عبقرية الكلمة المكتوبة في وسيلة للتعبير مع وسيلة للتواصل وعمل من أعمال الفن.

لقد أثبت الكتاب حضوره من حيث كونه أحد أكثر الأشكال الثقافية إرضاءً للذات، ولا يتصور أن يختفي في الوقت القريب. غير أن البنى الأساسية والعوامل المحركة التي غدت تميز عالم تجارة النشر ستهتز لا ريب بطرائق جديدة وغير متوقعة».

كيف سيكون عليه حال الكتب من بعد إنتاجاً وتوزيعاً؟ من سيقوم بهذا العمل أو ذاك؟ وكيف سيقومون بذلك؟ وأي دور سيلعبه من بعد الناشرون التقليديون؟ وأين سيكون محل الكتاب في البيئات الجديدة الرمزية والمعلوماتية التي ستظهر في السنوات القادمة؟ كل ذلك أسئلة ليس في حاضرنا جواب واضح عليها. مهما يكن من أمر، فثمة طرائق للتفكير في المستقبل الإلكتروني. وتتيح دراسة ثومبسون للوضع الراهن نقطة انطلاق جيدة في ذلك.

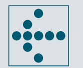
* أطلق جايسون إبستاين الطبعة التجارية للكتب ذات الغلاف الورقي في الولايات المتحدة سنة 1952م عندما كان محرراً في دابلداي. وكان مؤسساً لمطبوعة نيويورك ريفيو في سنة 1963م.

قول في مقال

في زمن العولمة..
ماذا يجب أن نقرأ؟

ماذا يجب أن نقرأ إذا ما كانت أزياء المصممين الأوروبيين تصنع في الصين، وإذا ما كنا نستخدم الحواسيب اليابانية، وإذا ما كان سكان نابولي يتناولون الهامبرجر بدلاً من البيتزا؟ الأكاديمي والروائي الإيطالي أمبيرتو إيكو يضع الحروف على النقاط وليس العكس، في زمن العولمة ماذا يجب أن يقرأ طلاب المدارس؟





عرَّف هارولد بلوم في كتابه The Western Canon، «مختارات المؤلفات الغربية» بأنها «مختارات الكتب في مؤسساتنا التعليمية»، مشيرًا إلى أن السؤال الحقيقي الناتج عن ذلك هو التالي: «أي كتاب يتعين على المرء الذي لا يزال يرغب في القراءة أن يختاره في تاريخنا الحديث هذا؟». كما يرى بلوم أنه يمكن للمرء، في أفضل الأحوال، أن يقرأ في حياته جزءًا بسيطًا فقط من المؤلفات العديدة الرائعة التي وضعها الكتَّاب الذين عاشوا وعملوا في أوروبا والأمريكتين، ناهيك عن سائر الكتَّاب في أنحاء أخرى من العالم.

وإذا ما أردنا الالتزام بالتقليد الغربي وحده، فما هي الكتب التي يترتب على الأشخاص قراءتها؟

لا شك أن المجتمع والثقافة الغربيين قد تأثرا بشكسبير ودانتي، وبالكتَّاب القدامى أمثال: هوميروس، وفيرجيل، وسوفوكليس. لكن، هل تأثرنا بهم لأننا قرأنا مؤلفاتهم مباشرة؟

يذكرني ذلك بحجة أطلقها بيار بايارد في كتاب بعنوان «كيف تتحدث عن كتب لم تقرأها؟». ومفادها أنه من غير الضروري قراءة كتاب بالكامل لإدراك أهميته الكبرى. فيبدو واضحًا، مثلاً، أن الإنجيل ترك أثرًا عميقًا في الثقافتين اليهودية والمسيحية في الغرب، وحتى في ثقافة الأشخاص غير المؤمنين، إلا أن ذلك لا يعني أن الأشخاص كافة الذين تأثروا به قد قرؤوه من البداية إلى النهاية. وينطبق الأمر نفسه على مؤلفات شكسبير أو جيمس جويس.

فلكي يكون الإنسان مثقفًا أو مسيحيًا صالحًا ، هل عليه قراءة «سفر الملوك» أو «سفر العدد»؟ وهل عليه قراءة «سفر الجامعة» أم يكفي أن يعرف بطريقة غير مباشرة أن هذا السفر يدين «باطل الأباطيل»؟ على هذا، فإن «قائمة المختارات» لا تشبه المنهج الدراسي الذي يشكل مجموعة الكتابات التي يتعين على الطالب قراءتها بحلول نهاية دراسته.

تبدو المشكلة اليوم معقدة أكثر من أي وقت مضى. وخلال مؤتمر أدبي دولي عقد، أخيرًا، في مدينة موناكو، دار نقاش حول موقع قائمة المختارات الأدبية في زمن العولمة. إذا ما كانت مثلاً أزياء المصممين الأوروبيين تصنع في الصين، وإذا ما كنا نستخدم الحواسيب والسيارات اليابانية، وإذا ما كان سكان نابولي يتناولون الهامبرجر بدلاً من البيتزا.

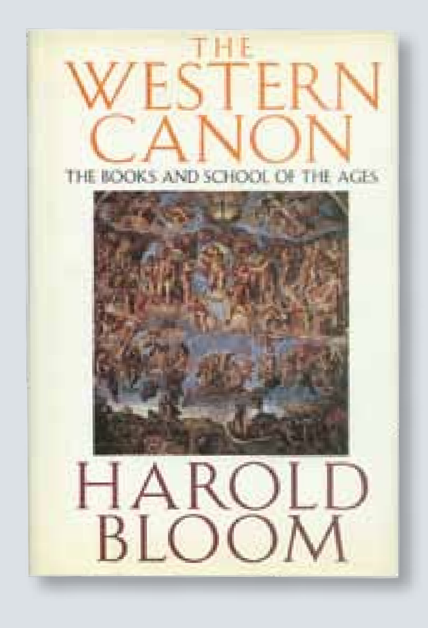
باختصار، إذا ما تقلصت رقعة العالم لتتخذ أبعادًا ضيقة، حيث يطالب الطلاب المهاجرون في أنحاء الكرة الأرضية بأن يتم تدريسهم تقاليدهم الخاصة. فكيف ستكون حينئذ «قائمة المؤلفات الجديدة»؟

جاءت إجابة بعض الجامعات الأمريكية عن هذا السؤال على شكل تحرك بدلاً من أن يبدو لائقًا بدا غير لائق إلى حد الغباء. فقد اقترح بعض الناس، وبما أن جامعاتنا تضم عددًا كبيرًا من الطلاب ذوي الأصول الأفريقية، التخفيف من تدريسهم شكسبير، وتكثيف تدريسهم الأدب الأفريقي. إنه بالفعل اقتراح ساخر قد يدفع ثمنه الطلاب كافة الذين يستعدون لخوض غمار العالم الحقيقي دون فهم المراجع الأدبية العالمية مثل مناجاة هاملت الشهيرة بعبارة «أن تكون أو لا تكون»، فيحكم بذلك عليهم بالبقاء على هامش الثقافة السائدة. ويجب فعليًا توسيع نطاق قائمة المؤلفات الحالي بدلاً من استبدال آخر به.

وعلى غرار ما تم اقتراحه أخيرًا في إيطاليا حيال الدروس الدينية الأسبوعية التي تعطى في المدرسة، فيجب على التلاميذ تعلم ما يتيسر عن القرآن والتعاليم البوذية إلى جانب الإنجيل. وعلى حد سواء، ما من سوء في أن يتم تدريس تلاميذ القسم الثانوي، إلى جانب حضارة اليونان القديمة، ما يتيسر من التقاليد الأدبية العربية، والهندية، واليابانية أيضًا.

سافرت منذ فترة قصيرة إلى مدينة باريس للمشاركة في مؤتمر حضره مفكرون أوروبيون وصينيون. وقد شعرت بإحراج كبير، لأن نظراءنا الصينيين كانوا مطلعين كل الاطلاع على إيمانويل كانْت، ومارسيل بروست، لدرجة مكنتهم من وضع مقارنة بين لاو تسو وفريديريك نيتشه «بغض النظر عن صحتها أو عدم صحتها»، فيما بدا معظم الأوروبيين غير قادرين على الذهاب أبعد من حدود كونفوشيوس، حتى إنهم اعتمدوا، أحيانًا، على تحليل ثانوي المصدر.

واليوم، يواجه هذا التصور المثالي والعالمي بعض الصعاب، فيمكن تدريس الشبان الغربيين «الإلياذة»، لأنهم سبق لهم أن سمعوا عن هكتور وأغاممنون، ولأن إلمامهم الثقافي الهزيل يشمل تعبيرات مثل: «حكم باريس» و«عقب أخيل». يشار في هذا الصدد إلى أن طالبًا أجرى اختبارًا لدخول جامعة إيطالية ظن خلاله أن



مصطلح «عقب أخيل» يشير إلى مرض على غرار التهاب مفصل الركبة أو التهاب مفصل المرفق.

ورغم ذلك، كيف يمكن إثارة اهتمام هؤلاء التلاميذ بالملحمة السنسكريتية «مهابهاراتا» أو «رباعيات عمر الخيام» على نحو يبقي هذه الأعمال مطبوعة في ذاكرتهم؟ هل يمكننا صياغة منهج تربوي يتناسب مع العالم الذي يشهد عولمة، في حين يبدو أن الأكثرية الساحقة من الغربيين المثقفين تجهل كليًا أنه بالنسبة للجورجيين، فإن إحدى أعظم القصائد في التاريخ الأدبي تعود إلى الشاعر الجورجي شوتا رستافلي بعنوان «الفارس في جلد النمر الأسود». وفي حين يختلف الباحثون، في حد ذاتهم، حول ما إذا كان الفارس، في النسخة الجورجية الأصلية، يرتدي فعليًا جلد نمر أسود أو نمر أو فهد؟ هل يمكننا أن نصل نحن إلى هذا الحد أم أننا سنستمر في التساؤل: «من هو شوتا»؟

النووي و النانوي



على الرغم من الفوائد العظمى للطاقة الذرية وتقنية النانو ثمة هواجس مقلقة لخروج هاتين التقنيتين عما يفيد الناس إلى ما يضرهم د.عقلا الحريص يتناول الرعب النووي وتطبيقاته الواسعة.

في عام 1959م تنبأ العالم الأمريكي ريتشارد فينمان R.Fynman بإمكانية السيطرة على الذرة وتساءل عما يمكن أن يحدث إذا تمكنا من تحريك الذرات وصفها واحدة واحدة بالشكل الذي نحتاج إليه. كان ذلك يُعد ضرباً من الخيال. لكن في السبعينيات ظهر اسم تقنية النانو NanoTechnology، وهي تقنية التحكم في تركيب المواد والأجهزة من خلال التحكم بالذرات التي تتكون منها هذه المواد.

على ذلك فهذه التقنية تعني التحكم بالذرات في مدى وحدة القياس: النانو. والنانومتر يساوي 10^{-9} م، أي واحد من البليون من المتر «واحد من مليار من المتر»، وهو ما يساوي تقريباً طول خمس ذرات مصفوفة جنباً إلى جنب. وفي الثمانينيات، كانت بدايات ثورة هذه التقنية الفتية، والتي، حتى الآن، لم تتضح معالم خيرها وشرها بشكل كامل، بخلاف الحال بالنسبة للطاقة النووية.

من حرب النجوم إلى حرب النانو

الرعب النووي:

لعل أساس العلوم النووية الحديثة وأجدرها بالذكر هنا هي دراسات العالِمَين بلانك وأينشتاين في مجال الكم والنسبية الخاصة، والتي كان أهم نتائجها تحديد علاقة الكتلة بالطاقة، والتي تمخضت عام 1905 تقريباً عن معادلة أينشتاين المشهورة $E = mc^2$، حيث E هي الطاقة، وm الكتلة، C سرعة الضوء (والتي تبلغ 300 ألف كم في الثانية). وهذا يعني أن هناك طاقة هائلة تكمن في الكتلة.

لم يلتفت العالم بجدية إلى هذه المعادلة إلا بعد أكثر من ثلاثين عاماً، وذلك حين اكتشفت ظاهرة انشطار نواة اليورانيوم، والتي أتت نتيجة بحوث وتجارب متواصلة من عدد من العلماء على تفاعلات الجسيم الجديد، النيوترون، مع العناصر المختلفة. وتساءل العالم بوهر مذهولاً وهو



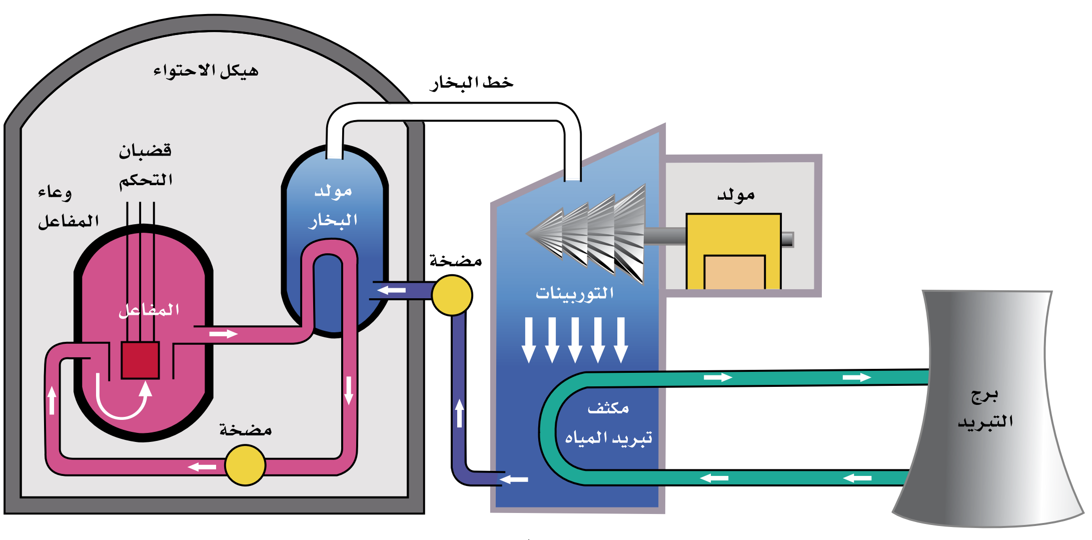
يناقش أينشتاين في هذه الظاهرة، ما مقدار الطاقة التي يمكن أن تنتج من مثل هذا الانشطار!

في هذه الأثناء اشتعلت الحرب العالمية الثانية، فكان من الطبيعي أن تتجه الأنظار إلى هذا المخزون الرهيب من الطاقة، وكيفية استغلاله عسكرياً. لقد كان ذلك حاضراً في أذهان العلماء في أمريكا، فحذروا الرئيس الأمريكي من احتمال أن تستغل ألمانيا نتائج تلك الأبحاث في إنتاج أسلحة نووية لخدمة أهدافها العسكرية. وقد أخذ هذا التحذير مأخذ الجد. فأعطي العلماء في أمريكا الضوء الأخضر للسير في هذا الاتجاه بشكل سري للغاية.

أشرف العالم الإيطالي فيرمي Enrico Fermi وزميله زيلارد Leó Szilárd على بناء أول مفاعل نووي في العالم، والذي تم تشغيله عام 1942م معلناً بذلك انطلاق مشروع مانهاتن، حيث كانت الأبحاث تجري باستخدام ذلك المفاعل على قدم وساق حتى تم تتويج ذلك المشروع بأبشع تاج، وهو إنتاج أول سلاح نووي، وكان ذلك عام 1945م. فتم بنجاح، في صحراء نيفادا بنيومكسيكو في 16 يوليو 1945م، تفجير أول قنبلة نووية في التاريخ، فكانت النتيجة مرعبة، وفوق كل تصور.

هددت أمريكا اليابان، لكن اليابانيين لم يأبهوا بالتهديد، فصدرت الأوامر بإلقاء القنبلة النووية الأولى، التي سماها الأمريكان «الولد الصغير» Little Boy، على مدينة هيروشيما، وكان ذلك في السادس من أغسطس 1945م، فقتل عشرات الألوف من البشر في لحظات، وتحولت المدينة إلى خراب. وبعد أيام من هذه الفاجعة، وكان ذلك في التاسع من أغسطس، صدرت الأوامر بإلقاء القنبلة الثانية التي سميت «الرجل السمين» (Fat Man) على مدينة ناجازاكي، فكانت تلك هي القاصمة، وكانت كافية لإيقاف الحرب واستسلام اليابان، والذي تزامن كذلك مع انتهاء الحرب العالمية الثانية.





نموذج لمحطة نووية

نهض العالم أجمع يستنكر استخدام هذا السلاح المخيف، وفي الوقت نفسه، نحا عدد من الدول منحى آخر، فسعت سعياً حثيثاً إلى تصنيعه أو امتلاكه. فقد رأت أن هذا السلاح يعطيها القوة والمهابة. فبرزت خلال العقود الماضية دول عظمى ترّست نفسها بهذا السلاح، بل توالت البحوث في هذا المجال، حتى تمكن العلماء من إنتاج ما يسمى بالقنبلة الهيدروجينية، والتي تفوق قوتها قوة القنبلة النووية بعدة مرات، وهي تقوم على ظاهرة الاندماج النووي، مما يمكن القول تجاوزاً بأنها عكس ظاهرة الانشطار النووي. استمرت الأصوات عالية ومنادية بوقف انتشار هذه الأسلحة المرعبة، واتجه العالم إلى استغلال هذه الطاقة الهائلة لخدمة الإنسان ورفاهيته، فكانت أمريكا وروسيا سباقتين في هذا المجال. فقد أنشأتا أول مفاعلين نووين يهدفان إلى إنتاج الطاقة الكهربائية، وكان ذلك في عامي 1951م و1952م. وقد كان من ثمار تلك التوجهات العالمية تأسيس الوكالة الدولية للطاقة الذرية عام 1957م، وإصدار معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية عام 1968م.

تقنية النانو هي تقنية التحكم في تركيب المواد والأجهزة من خلال التحكم بالذرات التي تتكون منها هذه المواد

تسابقت دول كثيرة منذ ذلك الحين إلى بناء مفاعلات نووية وتملكها بهدف الحصول على الطاقة الكهربائية أو لإجراء البحوث العلمية، حتى وصل عدد المفاعلات النووية في الوقت الحاضر إلى أكثر من 430 مفاعلاً. وتعتمد بعض الدول، مثل فرنسا، على محطات المفاعلات النووية لإنتاج ما يزيد على 60٪ من احتياجها من الكهرباء.

تطبيقات واسعة

بعيداً عن إنتاج الكهرباء، فإن للمفاعلات النووية تطبيقات واسعة، من أهمها البحوث العلمية المتقدمة في المجالات المختلفة، وتحلية المياه المالحة، وإنتاج النظائر المشعة، وتحليل العناصر بالتنشيط النيوتروني، والتصوير النيوتروني. هذا إضافة إلى استخدامها في بعض أنواع الغواصات والبواخر الضخمة بديلاً للوقود التقليدي.

يثير معارضو الطاقة النووية التكاليفُ العالية لبناء المفاعلات، والمخاوفُ المتعلقة بالسلامة، وصعوبةُ التخلص الآمن من النفايات المشعة. ولقد ساءت سمعة الطاقة النووية بسبب حادث تشيرنوبل عام 1986م، وحالياً بسبب كارثة محطة فوكوشيما في اليابان. وهذا حتماً هو ما سيتبادر إلى ذهن القارئ مباشرة عند الحديث عن التطبيقات السلمية للطاقة النووية.

كلا المحطتين، تشيرنوبل وفوكوشيما بدأتا العمل في السبعينيات الميلادية. ولكن يجب أن نقر بأن مفاعلات محطة فوكوشيما تتفوق في تصميمها على مفاعلات محطة تشيرنوبل فيما يتعلق بجوانب السلامة والأمان، ومن أهمها أن مفاعلات تشيرنوبل تفتقر لحاويات تحمي قلب المفاعل وتحمي البيئة من التسرب الإشعاعي عند وقوع الحوادث. فالإشعاع الذي تسرب من فوكوشيما أقل بكثير منه في حالة تشيرنوبل، وفقاً لما أشارت إليه وكالة السلامة النووية والصناعية اليابانية. هذا رغم شدة الزلزال وضخامة الطوفان الذي ضرب اليابان.

ويجدر بالذكر أن ردود أفعال الدول المتقدمة نتيجة هذه الكارثة كانت متباينة، فبين استمرار دعم الطاقة النووية، إلى تعليق، أو إيقاف المشاريع الجديدة والقائمة في انتظار مراجعة معايير السلامة. إن هذه الكارثة، في ظني، تدعم الخيار النووي لإنتاج الطاقة، وتحفز الصناعة النووية لتكثيف الجهود لتطوير جوانب السلامة

عند تصميم مفاعلات جديدة، مع العمل على إنهاء تشغيل المفاعلات الحالية التي لا تتوافر في تصاميمها تلك الشروط التي يجب أن تفرضها الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

ولعل التكلفة العالية نسبياً لبناء محطات الطاقة النووية يمكن التغاضي عنها، إذا علمنا أن تكاليف تشغيل المحطات النووية على المدى الطويل أقل بكثير مقارنة بالمحطات التقليدية، إضافة إلى أنها أكثر صداقة للبيئة في أثناء تشغيلها.

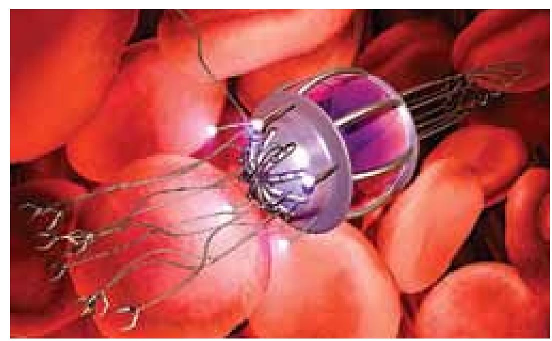
الرعب النانوي

بعد أكثر من عشرين عاماً من تساؤلات العالم فينمان وتنبؤاته، نشر العالم الأمريكي إ. دريكسلر (E. Drexler)، وكان ذلك عام 1986م، كتاباً بعنوان «محركات الخلق»، تحدث فيه بشكل مشوق حول تقنية النانو والمخاطر المرعبة المحتملة لهذه التقنية. لقد ذهب به خياله بعيداً حين ذكر إمكانية أن تتمخض هذه التقنية عن تصنيع روبوت «إنسان آلي» متناهي الصغر مبرمج وذاتي الاستنساخ «التكاثر»، ويمكنه اللعب بذرات المادة والتحكم بها، وهذا يعني تغيير كل جوانب الحياة الإنسانية.

مكث الخيال غير بعيد، واقترب من الحقيقة. فعلى أرض الواقع، تمكن علماء في أحد مختبرات شركة آي بي إم IBM، وبقيادة العالم د.إيجلر D. Eigler عام 1989م، من كتابة أصغر إعلان في العالم، حيث تمكنوا من كتابة اسم الشركة باستخدام 35 ذرة فقط من ذرات عنصر الزينون، وذلك باستخدام ذكي لمجهر المسح النفقي Scanning Tunneling Microscope، الذي ابتكره العالمان ج. بينيج G. Binnig و هـ. روهرير H. Rohrer عام 1981م. المواد كلها مكونة من ذرات مرتبطة وفق نسق معين، لذا، فإنه يمكننا أن نستبدل بذرة عنصر ما في منظومة من الذرات ذرة عنصر آخر، ما قد يبهرنا بخصائص جديدة لهذه المادة أو تلك، يمكننا أن نسخرها في الجوانب الحياتية المختلفة.

تقنية النانو يمكن أن تسعد البشرية في شتى مناحي حياتها، في صناعة المنتجات الاستهلاكية، وفي صناعة الحاسبات وأشباه الموصلات، وفي معالجات ومرشحات المياه، وفي الفضاء، وفي الطب والصحة، وفي الزراعة وإنتاج الأغذية، وفي مجال الطاقة البديلة، وفي المجالات العسكرية، وهنا يكمن الخطر.

إن تسابق عدد من الدول المتقدمة لعسكرة العلوم النانوية يزيد من خطورة هذه التقنية على الحياة البشرية. هذه



أنسجة ومجسات متناهية الصغر

الدول ترى أن هذه التقنية ستوفر لها وسائل قتالية غير تقليدية كانت في السابق تُعدّ ضرباً من الخيال العلمي.

من ذلك تصنيع طائرات تجسس نانوية، وإنتاج ملابس عسكرية تحوي أنسجة ومجسات مزروعة وكمبيوترات متناهية الصغر تقي من الرصاص وتراقب تغيرات جسم الجندي، ويمكنها تغيير لونها الخارجي بهدف التخفي والتمويه.

كما يجري حالياً تطوير معدات نانوية يمكنها إخفاء الجنود جزئياً، ومنحهم صفات غير عادية تخدمهم في أثناء القتال.

تشير بعض الإحصاءات إلى أن هناك نحو 400 مركز بحثي يعمل في مجال تقنية النانو. وأن إيران تحتل المرتبة الأولى في العالم الإسلامي في مجال تقنية النانو والمرتبة 32 على مستوى العالم. وتخطط لأن تكون في المرتبة 15 عالمياً بحلول عام 2015. بينما تحتل إسرائيل المركز الثالث عشر على قائمة الدول المنفقة على أبحاث النانو والتي يبلغ عددها 42 دولة حسب إحصاءات عام 2005م. ويجدر بالذكر أنه قد تم إنشاء عدد من مراكز تقنية النانو في المملكة خلال السنوات الخمس الماضية يدعمها توجه حكومة خادم الحرمين الشريفين لاستغلال هذه التقنية بأقصى ما يمكن لخدمة التنمية. وقد كانت مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية هي أول من بادر لإنشاء مركز وطني متخصص في هذه التقنية.

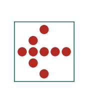
إن الهاجس الذي يراود المنادين بكبح جماح هذه التقنية، هو تحقق فكرة روبوتات النانو ذاتية التكاثر، وإمكانية فقد السيطرة عليها، ما يمكنها من التكاثر حينئذٍ بلا حدود، فتهيمن على حياة البشر.

إن المارد بالفعل قد خرج من قمقمه، وحكومات العالم كانت تتلكأ في مناقشة موضوع رقابة تقنية النانو، ويبدو أن فرصة فرض حظر عالمي، أو حتى تأجيل هذه التقنية قد سنحت ثم ذهبت. وها نحن نعيش الآن بين رعبين، نووي ونانوي.

نزاهة الأسواق المالية



ينصرف مفهوم التلاعب في الأسواق المالية إجمالاً إلى التصرفات التي يقوم بها متداول أو مجموعة من المتداولين لإحداث فرق مقصود بين سعر الورقة المالية وقيمتها بهدف الربح على حساب بقية المتداولين في السوق. د.محمد السحيباني يبيِّن لنا استراتيجية المتلاعبين في السوق وآثارها السلبية في الاقتصاد.



للتلاعب أثر سلبي في كفاءة السوق، لأنه يقوم على استدراج بقية المتداولين لتوفير السيولة، وتنفيذ الصفقات عند أسعار تبتعد بدرجة أو بأخرى عن قيم الأوراق المالية.

فالمتلاعب مغرر لغيره من المتداولين بالقول أو الفعل من خلال نشر الشائعات أو التصريح بمعلومات خاطئة، أو تنفيذ صفقات تولد أسعاراً أو كميات تفسد معلومات بقية المتداولين وتوقعاتهم، ويتصرف بناءً عليها لمصلحته. وهو باختصار يهدف إلى رسم صورة مختلقة للسوق، يأمل أن يخطئ المتداولون الآخرون في جعلها صورة حقيقية لما يجري في السوق.

لبيان التلاعب في الأسواق المالية بشكل أوضح، نسوق المثال الآتي، حيث يستخدم المتلاعب واحدة من أكثر استراتيجيات التلاعب شيوعاً وهي الشراء بسعر منخفض والبيع بسعر مرتفع تمهيداً لتنفيذ استراتيجية التلاعب، قام المتلاعب في البداية بإجراء بحث دقيق في أسهم السوق، فوجد أن سهم شركة الفقاعة مرشح جيد للتلاعب، لكون الشركة ناشئة ولديها بعض الفرص الواعدة، خصوصاً أنه اطلع في آخر تقاريرها على معلومة تفيد بأن الشركة ستقوم في الأسابيع المقبلة بتشغيل أحد مصانعها في الصين.

حالياً، لم تحقق شركة الفقاعة أي أرباح وسعر سهمها في السوق 20 ريالاً، ولدى الشركة 10 ملايين سهم، 30% منها فقط متاحة للتداول.
بدأ المتلاعب في تنفيذ استراتيجية بشراء أسهم شركة الفقاعة بكل هدوء، وفي الغالب باستخدام أوامر مقيدة هي الأوامر المحددة السعر. ومن الطبيعي أن تؤدي هذه الزيادة الصورية في قوى الشراء إلى ارتفاع أسعار الشركة مع مرور الوقت. بعد 40 يوماً من التداول، استطاع المتلاعب أن يشتري 300 ألف سهم بأسعار تراوح بين 20 و30 ريالاً، بمتوسط 25 ريالاً للسهم.

في اليوم 41 بدأ المتلاعب بحملة لإبراز أهمية الشركة ومستقبلها الواعد باستخدام عدد من الشخصيات الوهمية في منتديات الأسهم وغيرها من وسائل التواصل الإلكتروني مع مجتمع المتداولين في السوق. وقد تضمنت الحملة معلومات مفصلة عن مستقبل الشركة والمنتجات المبتكرة التي ستطرحها كما لو كان خبيراً في تفاصيل التقنيات التي تستخدمها، مع تقديم تقديرات أولية ومتفائلة لأرباحها. ولإضفاء مزيد من المصداقية على هذه الحملة، فقد ضمن حملته بعض المعلومات من آخر تقارير الشركة.

وقد اعتمد في هذه الحملة على التخاطب مع نفسه وربما مجادلتها أحياناً بأسماء متعددة في منتديات مختلفة ليعطي انطباعاً بأن هناك عدداً كبيراً من المحللين الماليين المتابعين لأداء هذه الشركة.

في صباح اليوم 51 صرحت الشركة بأنها بدأت تشغيل مصنعها في الصين، وهو خبر متوقع لمن قرأ آخر تقرير للشركة، ومن الطبيعي أن يظهر هذا الخبر في اليوم التالي في عدد من الصحف، وقد يعلّق عليه بعض الكُتَّاب والمحللين بشكل إيجابي. وكغيره من المتداولين، اطلع المتلاعب على هذه المعلومة التي ليس لها أي تأثير في قيمة سهم شركة الفقاعة بوصفها متوقعة منذ فترة، ولكنها كانت له بمنزلة الفرصة التي كان ينتظرها، حيث قرر بعدها أن يشتري 80 ألف سهم باستخدام أوامر سوقية قام بإرسالها للسوق عبر شركات وساطة مختلفة. وكما هو متوقع، تسببت هذه الأوامر بارتفاع سعر سهم الشركة، إذ ارتفع سعرها خلال 20 دقيقة من 30 إلى 33 ريالاً، وبمتوسط سعر شراء 31.5 ريال للسهم. ونتيجة لهذا النشاط الملحوظ على السهم، واحتلالها النسبة العليا في قائمة الأسهم الأكثر ارتفاعاً ذلك اليوم، تضمنت كثير من التقارير المتابعة للسوق في مساء ذلك اليوم واليوم التالي خبر تداولات الشركة.

استمر المتلاعب في نشر معلومات مفصَّلة عبر منتديات الإنترنت عن أهمية مصنع الشركة في الصين، متوقعاً أن يصل سعر الشركة من 60 إلى 70 ريالاً وربما أكثر من 100 ريال عندما يصل المصنع إلى مرحلة التشغيل الكامل.

من الطبيعي عندما يرتفع سعر سهم شركة الفقاعة بهذا الشكل، يتساءل بقية المتداولين عن سببه، ومتى بدأ في الارتفاع. وسيكتشفون أن ذلك حدث بسبب قصة مصنع الصين، وأن الارتفاع السريع بدأ بعد إعلان تشغيله. وعلى الرغم من أن الخبر لا يمثل جديداً لمتابع تقارير الشركة، ويجب ألا يؤثر في قيمتها، إلا أن الارتفاع بحد ذاته أعطى انطباعاً بأن هناك أموراً إيجابية أكثر مما ورد في الخبر، وأن هناك متداولين مطلعين يعتقدون أن قيمة الشركة ارتفعت. في ضوء هذه الاستنتاجات، قام كثير من المتداولين برفع توقعاتهم حول قيمة الشركة، بوصف أن التقنيات التي تستخدمها فعلاً أفضل مما كانوا يتصورون عند شرائهم لسهمها أول مرة. وتبعاً لذلك، قرروا استعجال الشراء وتحقيق معدل أعلى من الربح، بدلاً من الانتظار حتى يرتفع سعرها وتفوت عليهم هذه الفرصة الذهبية. ولكونهم يخشون أن يسبقهم غيرهم للاستفادة من هذه الفرصة، استخدموا أوامر سوقية لشراء أكبر عدد من الأسهم في أسرع وقت، ما دفع سعر السهم إلى مزيد من الارتفاع. في الوقت نفسه، ومع صعود سعر السهم، يقوم المتلاعب ببيع مخزونة من الأسهم بشكل تدريجي،



ليتخلص من نحو 200 ألف سهم، بمتوسط سعر بيع 40 ريالاً للسهم.

بالنظر للتغير الملحوظ في سعر السهم، قامت الهيئة المشرفة على السوق بالاتصال بشركة الفقاعة للاستفسار عن أسباب التغير الكبير في سعر سهمها، لترد على الهيئة بأنه ليس لديها أي علم عن سبب ما يجري في السوق. ودرست الشركة إصدار تصريح صحافي بأنه ليس لديها أي معلومة إيجابية جديدة تبرر هذا الارتفاع في سعر سهمها، ولكن محامي الشركة نصحها بألا تفعل، لاحتمال تعرض الشركة للمساءلة من بعض المتداولين. في المقابل، عندما يتصل الصحافيون بإدارة الشركة للاستفسار عن أي معلومات جديدة، يمتنع أي مسؤول عن التعليق، وأن من سياسة الشركة عدم التعليق على تقلبات السوق.

يكثر التلاعب في الأسهم التي لا يتابعها المتداولون المطلعون ومنها الأسهم ضعيفة السيولة، وكذلك أسهم الشركات الصغيرة التي يمكن تملك جزء كبير من أسهمها بسهولة

في اليوم 60، يكون قد اطلع عدد كبير من المتداولين على الارتفاع الملحوظ في سعر سهم شركة الفقاعة، والتي فسرها بعضهم بأنها مؤشر على أداء أفضل للسهم في المستقبل، بخاصة من قرأ منهم تعليقات المتلاعب في منتديات الأسهم. وقد يفسر بعضهم امتناع إدارة الشركة عن التعليق على أن هناك شيئاً ما سيحدث. وهؤلاء البعض هم من الضحايا الذين سيقررون شراء السهم. في المقابل، سيلاحظ بعض المتابعين أن السهم يتداول بسعر أعلى من قيمته، مع ذلك سيقررون الاحتفاظ بالسهم لاحتمال أن يكون هناك فعلاً معلومات مهمة في الطريق ستؤدي إلى ارتفاع ملحوظ في قيمة الشركة وسعر سهمها.

أما المتعاملون المطلعون على معلومات الشركة، وهم قلة، فسيستمرون بالبيع لأنهم يرون أن سعر السهم تجاوز الحد في الارتفاع عن قيمته، والمتلاعب يبيع معهم، لأنه يعلم يقيناً أن سعر السهم أعلى من قيمته. ومع تزايد البيع وبكميات كبيرة لتصريف 180 ألف سهم المتبقية في محفظة المتلاعب، ينهار سعر السهم ليصل إلى 30 ريالاً. ويتمكن المتلاعب من بيعها بسعر يبلغ في المتوسط 35 ريالاً للسهم. وخلال الأيام التالية استمر سعر السهم في الانخفاض إلى أن وصل إلى السعر الذي كان سائداً قبل استراتيجية التلاعب وهو 20 ريالاً للسهم.

نظراً لوجود نمط تداول غير عادي على سهم شركة الفقاعة في الشهرين الماضيين، قررت السوق المالية التحقيق في الأمر للتعرف إلى من تداول خلال هذه الفترة، ومن ربح خلالها. وقد أظهر تحليل البيانات وبشكل سريع أن المتلاعب في هذا المثال متداول رئيس في سهم الشركة، وحقق خلال هذه الفترة أرباحاً كبيرة. ولهذا قررت السوق إبلاغ هيئة السوق بحالة التلاعب في سهم شركة الفقاعة ودور المتلاعب فيها. وبعد قيام الهيئة برفع قضية ضد المتلاعب، وبداية التحقيق معه، دافع المتلاعب بقوة عن



موقفه، وأنه بكل بساطة متداول مطلع جداً على الأمور، وأنه بعد أن اطلع على المعلومات الإيجابية عن مستقبل الشركة في تقريرها الأخير، قرر امتلاك نسبة كبيرة من أسهم الشركة. وبعد الإعلان عن بدء تشغيل مصنع الصين زادت قناعته بنجاح الشركة ومستقبلها الواعد وقرر شراء المزيد من أسهمها، وبأسرع وقت ممكن، خشية أن يسبقه بقية المتداولين لاقتناص هذه الفرصة، خصوصاً أنه قرأ عدداً من التقارير الإيجابية عنها في الصحف والإنترنت.
وأشار إلى أنه وزع أوامر الشراء التي أرسلها على أكثر من شركة وساطة، لأنه خشي أن تستغل معلومات التداول التي يجريها لو قصر تداولاته على شركة وساطة واحدة.
وبيّن للهيئة أن الارتفاعات اللاحقة في سعر السهم أكدت صدق توقعاته. ومع اعترافه بكونه مسؤولاً جزئياً عن ارتفاع الأسعار، إلا أنه أكد أن آخرين كانوا يشترون مثله. كما وضّح لهيئة السوق أنه مع تزايد عدد المشترين، تأكد له أنهم سيدفعون بالسعر إلى أعلى من قيمته، ولهذا قرر البيع بمجرد تجاوز السعر لقيمة السهم في تقديره.

ونتيجة لقوة حجة المتلاعب، وعدم إمكانية إيجاد دليل مادي على أنه هو الذي نشر الشائعات حول السهم في مواقع الإنترنت، اكتفى المحققون بتحذيره، وعدم رفع قضية عليه أمام اللجنة القضائية المختصة.
ويمكن جعل هذا المثال أكثر واقعية بافتراض أن هناك مجموعة متواطئة من المتلاعبين، وليس المتلاعب واحداً فقط، وكذلك بافتراض أن المتلاعب نفذها في وقت أطول، إذ إن تنفيذ الاستراتيجية في فترة زمنية أطول يجعل من الصعب اكتشافها، وبالتالي إمكانية إثبات وقوع التلاعب في ساحة القضاء. ويلحظ من هذا المثال ما يلي:
المتلاعب يحتمي ويتترس بالمعلومات ليستخدمها في محاجة هيئة السوق، فهو يتحين الفرص، ويتابع أخبار الشركة وقطاعها والاقتصاد المحلي والدولي، ليلتمس منها الغطاء لقرارات تداوله بالبيع أو الشراء.

المطلع يتعب في البحث عن المعلومة وتحليلها، والمتلاعب يصنعها ثمينة ويحصل عليها رخيصة. ولهذا يكثر التلاعب في الأسهم التي لا يتابعها المتداولون المطلعون ومنها الأسهم ضعيفة السيولة، وكذلك أسهم الشركات الصغيرة التي يمكن تملك جزء كبير من أسهمها بسهولة.

للتلاعب أثر سلبي في كفاءة السوق، لأنه يقوم على استدراج بقية المتداولين لتوفير السيولة وتنفيذ الصفقات عند أسعار تبتعد بدرجة أو بأخرى عن قيم الأوراق المالية. أما في الأجل الطويل، فيؤدي استشراء التلاعب في السوق إلى زيادة احتمال وقوع الغبن في التداول، فتقل ثقة المتداولين في السوق، وينصرفون عنه، ما يتسبب في إضعاف سيولة السوق.وعليه فإن نزاهة السوق المالية وعدالتها شرط ضروري لقيام السوق بالدور المتوقع منها في مساندة الاقتصاد الحقيقي. وبالمنطق نفسه، يؤدي استشراء التلاعب في السوق المالية إلى حدوث العكس، أي قيام الاقتصاد الحقيقي بتعويض خسائر السوق المالية.

التعطش للابتكار



قبـل سنـة فقط، تبوأت المملكة العربية السعودية مكانة أكبر بلد في العالم فيما يخصُّ تحليـة ميـاه البحـر. وبكلفـة تقـدر بـ3.4 بليـون دولار، تنتج محطـة الجبيـل 2 لتحلية ميـاه البحـر 800,000 متـر مكعب من المياه يوميـاً. لقد كانت هـذه المنشأة هي الـ28 فـي ترتيـب منشآت تحلية ميـاه البحر التي تشتغل في البلاد، كليـة وارثن للأعمال في بنسلفانيا التفتت إلى موضوع تحلية المياه واستخدام الطاقة المتجددة في ذلك.

تشكل إنتاجية المحطة شريان الحياة بالنسبة للمملكة العربية السعودية، ذلك أن 70% من المياه العذبة التي يستعملها السعوديون تنتجها منشآت تحلية المياه المالحة.

إن تشغيل مثل هذه المنشآت يكلف غالياً. فالحكومة السعودية تقدر أن تشغيل كل محطات تحلية المياه سيكلف 1.5 مليون برميل من النفط يومياً، مع الأخذ في الحسبان أن عملية تحلية مياه البحر إلى مياه صالحة للشرب تعتمد بشكل كبير على الطاقة. وهذا هو السبب في البحث عن مورد طبيعي آخر لتحريك عجلة التحلية، وهو شمس الصحراء. بالتشارك مع شركة «إي بي إم» يطور البلد تقنية شمسية للاستعمال التجريبي في محطة تلبي حاجات 100.000 فرد. وليست هذه سوى تجربة واحدة في المنطقة، حيث الطلب المتزايد، وارتفاع أسعار النفط، وتضاؤل موارد المياه الجوفية جعل من إيجاد موارد بديلة أكثر فاعلية وأقل تكلفة أولية.

المنطقة ستضاعف من قدرتها على تحلية المياه بتكلفة تقدر بنحو 61.3 بليون دولار بين عامي 2009 و2016.

يمثل الشرق الأوسط وإفريقيا الآن نحو نصف القدرة العالمية في تحلية المياه، حسب «جمعية تحلية المياه العالمية»، مع استحواذ المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وحدهما على ما يناهز 30% من قدرتها المركبة. إن ازدهار عملية تحلية المياه في الشرق الأوسط دعمه الطلب المتنامي على الماء وتوافر طاقة رخيصة، فهذه العملية تعتمد بشكل كبير على الطاقة، التي تشكل 50% من تكاليف الإنتاج. والنتيجة أن البلدان التي لا تملك طاقة رخيصة تعاني تكاليف باهظة، غير أنه بالنسبة لأمم الشرق الأوسط الغنية بالهيدروكربونات، فإن عملية تحلية المياه تعد حلاً واضحاً لمعالجة ما ينقصها من المياه العذبة إذا وضعنا الطلب جانباً، فإن أبوظبي، أكبر إمارة في دولة الإمارات العربية المتحدة، تتمتع بقصب السبق في تشكيل تيار شهد نمواً كبيراً في قدرة تحلية المياه على مدى العقد الأخير.

لقد كانت البلد الأول في المنطقة الذي استعمل رأس المال الخاص لتمويل بناء «محطة المياه والطاقة» في عام 1998م.

اعتمد النموذج على نظام «بناء تملك وتشغيل وتحويل» الذي استعمل في تمويل المشاريع وكان شعاره البسيط: عوض شراء محطات المياه والطاقة من مقاولي الهندسة، توافق المنشآت على شراء كمية معينة من المياه والطاقة من مطور، يمتلك بدوره تدفقاً مضموناً من المداخيل ومخاطر أقل.

اكتسب نموذج «محطة المياه والطاقة» شعبية في المنطقة، لأنه يضمن أقل التكاليف الممكنة في إنتاج الطاقة والمياه.

كتب مؤخراً كريستوفر غاسون داعياً إلى مشاركة القطاع الخاص في الصناعة المائية، إن محطات تحلية المياه في الشرق الأوسط، التي يمولها القطاع العام على أساس «هندسة، مشتريات، وبناء»، في المعدل، كانت 10 – 30% أغلى من تلك التي يمولها القطاع الخاص. هذا النموذج المالي الجديد مرفق بنمو اقتصادي مستدام سريع في السنوات العشر الأخيرة، يعني أن القدرة العالمية لتحلية المياه قد تضاعفت بين 1999م و2009م، مع قيادة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا لمشاريع تحلية مياه البحر.

أكبر كل سنة

تقول ليزا هانثورن مديرة في «جمعية تحلية المياه العالمية»، إن المحطات تصبح أكبر كل سنة : من 300.000 متر مكعب من المياه كل يوم قبل عقد من الزمن، ضاعفت المحطات إنتاجها ثلاث مرات تقريباً. وتملك المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة أكبر 10 محطات في العالم، مع محطة «الجبيل الثانية» التي تحتل الصدارة حالياً بإنتاجٍ مقداره 800.000 متر مكعب من الماء يومياً.

على الرغم من أن الانكماش الاقتصادي الذي شهدته المنطقة، فإن ذلك لم يخفف في الظاهر من شهية المنطقة لتحلية المياه. ثم إن الكثير من الاقتصاديات بقي في صحة جيدة، مع تنامي أعداد السكان والاحتياجات الصناعية. في سوق المياه في الشرق الأوسط، توقعت نشرة «جلوبال ووتر انتليجنس» أن المنطقة ستضاعف من قدرتها على تحلية المياه بتكلفة تقدر بنحو 61.3 بليون دولار بين عامي 2009م و2016م.

يقول جارمو كوتلين كبير الاقتصاديين لدى «إن سي بي كابيتال» إن القطاع عانى بعض العقبات. وقد أسهمت الأزمة المالية في زيادة اهتمام الحكومات بمشاركة القطاع الخاص بسبب الموارد المتضائلة.

ينطبق هذا تماماً على بلدان مثل المغرب وتونس والأردن، التي تفتقر للموارد المالية التي تتمتع بها نظيراتها المصدرة للنفط. تقول هانثورن في هذا الصدد: «كانت تحلية المياه، عادةً، الملجأ الأخير لأنها تقنية مكلفة. غير أن النقص في البدائل وتوافر تمويل المشاريع على نحو جيد يعنيان أن عملية تحلية مياه البحر تصبح متاحة أكثر. الأمر المفاجئ هو أنه على الرغم من الترحيب الذي تلاقيه تحلية المياه وتطويرها، فإن الشرق الأوسط

يبقى، عموماً مستورداً أكثر منه مزوداً لهذه التقنية. فمعظم محطات تحلية المياه شيدتها شركات عالمية. يقول كوتلين: «هناك الكثير من الحديث الدائر بشأن اقتصاد المعرفة، لكن هناك حاجة إقليمية ملموسة لم تلب محلياً. لماذا لا نساعد على خلق عرض وربما تصديره أيضاً؟».

معالجة استدامة المياه

يردد شانون مكارثي نائب مدير «مركز بحوث الشرق الأوسط لتحلية المياه» تعليقات كوتلين. أنشئ هذا المركز في عام 1996م كجزء من عملية السلام في الشرق الأوسط لمعالجة قضايا استدامة المياه في المنطقة. وكان المعهد رائداً في بحوث تحلية المياه في وقت لم تكن فيه التقنية منتشرة كما اليوم. يقول مكارثي: «شيدت الكثير من المنشآت، لكن دون أن يعني هذا أن هناك خبراء في كل بلد يمكنهم تشغيلها أو اتخاذ قرارات بشأن تقنية تحلية المياه».

إضافةً إلى بناء القدرات، يركز المركز على منطقة أخرى تشهد اهتماماً متزايداً وهي استعمال الطاقة المتجددة، هذا التطور مهم بالخصوص لسببين: أولاً، من شأن الطاقة المتجددة توفير بديل للبلدان التي تفتقر إلى الهيدروكربونات في الشرق الأوسط وفي أماكن أخرى. ثانياً، من شأنها أن تساعد على تقليص البصمة الكربونية المهمة لتحلية المياه.

اشتغلت منظمات مثل «مركز أبحاث الشرق الأوسط لتحلية المياه» بموضوع الطاقة المتجددة وتحلية المياه لسنوات عدة، غير أن الجهود دائماً ما تتعثر على طريق المشكلات نفسها بسبب تكلفتها، من شأن الطاقة المتجددة أن تجعل تحلية المياه أكثر غلاءً مما هي عليه الآن. من وجهة نظر تقنية، لن يكون بمقدور طاقة الرياح والخلايا الشمسية إنتاج الطاقة بشكل مستمر (في حالة تقلص قوة الرياح أو حلول الليل) أو بكميات كافية لدعم محطة كبيرة للتحلية. كما أنها لن تتمكن من إنتاج العنصر الوحيد الأكثر أهمية في عملية التحلية في الشرق الأوسط وهو الحرارة.

إن عملية إزالة الأملاح المذابة من الماء لإنتاج المياه العذبة قديمة. واعتمد مستكشفون مثل جيمس كوك على تحلية المياه خلال رحلاتهم البحرية الطويلة. فقط بعد الحرب العالمية الثانية، سمحت الاختراقات التقنية بتطبيق تحلية المياه على نطاق أوسع.

هناك نوعان من تحلية المياه: أحدهما الحرارية والآخر الترشيح بالأغشية. فالعملية الحرارية تستعمل الحرارة لتوليد البخار وتقطير مياه البحر. أما العمليات بالأغشية فهي ميكانيكية وتستعمل الضغط فوق العالي لترشيح الأملاح الذائبة. تُعد تحلية المياه الحرارية تقنية أكثر نضجاً، كما أنها أكثر قوة، وأعطت نتاجاً أفضل فيما يخص المياه الراكدة وعالية الملوحة في الخليج. تنتج محطة الطاقة الحرارة التي يمكن استعمالها في عملية تحلية المياه لكن مع ظهور الطاقة الشمسية الحرارية المركزة، وهي نوع من الطاقة الشمسية التي تستعمل العدسات والمرايا لاستغلال أشعة الشمس وتوليد الحرارة، يمكن للطاقة المتجددة أن تصبح خياراً مهماً للغاية لتحلية المياه. يوضح فرانز تريب الباحث في «معهد الديناميكا الحرارية التقنية» أن التعرض للشمس والظروف الميدانية مثالية، ومن شأنها خلق الحرارة والطاقة على أساس ثابت بفضل تخزين الحرارة لأن المواد الضرورية لتشييدها رخيصة نسبياً. على هذا فإن تكلفتها ستنخفض بشكل كبير حسب التقديرات على مدى السنوات التي تراوح بين سنوات عشر وخمس عشرة سنة مقبلة.

تجريب الطاقة المتجددة

تعتقد هانثورن أن الطاقة المتجددة سيكتب لها النجاح حقاً عندما تقرر بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا تطويرها كجزء من سياستها في الطاقة. وهي تقول في ذلك: «معظم محطات تحلية المياه في أستراليا تشتغل بشكل غير مباشر بوساطة الطاقة المتجددة، إنها تستعمل تقنية التصفية، التي تستعمل الكهرباء من الشبكة، وتزخر أستراليا بطاقة رياح كبيرة».

أصبحت تقنية الترشيح بالأغشية أكثر انتشاراً في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، الطلب على الماء ثابت بشكل أكثر أو أقل عبر السنة، لكن الطلب على الكهرباء يرتفع بشكل كبير في الصيف بسبب التكييف. تضيف هانثورن: «الطلب على الكهرباء في الشتاء أقل بنحو 70٪ مما عليه الأمر في الصيف، وإنتاج البخار للتحلية مكلف للغاية». كان الحل عبارة عن محطات تحلية هجينة، حيث يمكن للتقنيات الغشائية أن تساعد على ملء الهوة بوساطة وحدات حرارية خلال أشهر الشتاء. كما يمكن للتقنيات قبل المعالجة المبتكرة أن تساعد على تجاوز مشكلات جودة المياه، يرجح أن يستمر الشرق الأوسط في ريادة سوق التحلية، لكن هانثورن تقول إن هناك الكثير من الأسواق الناشئة العطشى بما في ذلك الصين والهند وأستراليا.

اطلب العلم

2020م سنة مذهلة بحق

مدن المستقبل في عام 2020م سوف تزود نفسها بالطاقة الشمسية والوقود العضوي والمعادن المستخرجة من أرض القمر، وستحلق السيارات من تلقاء نفسها بدون سائق في شوارع هوائية تدار بالحاسب، وسوف تكون أجهزة الحاسب الآلي أكثر قوة من العقل البشري، ويكاد كل شيء ترغب فيه يتحقق لك بمجرد لمسة على شاشة أمامك. وستكون هناك قواعد للرجال الآليين على سطح القمر، وستزرع رقائق الحاسب عالية التقنية في دماغ الإنسان، وسترتبط بكين بلندن بقطار فائق السرعة، ينطلق فوق جسر سيكون الأطول في التاريخ. ولكثرة التوقعات التقنية التي تميز عام 2020م عن غيرها مما يعني أنها ستكون سنة استثنائية بكل المقاييس، سنستعرض بعض ما ستحمله لنا تلك السنة في جعبتها من إبهارات.

عام 2020م بالطبع لا يعدو كونه هدفاً زمنياً تم تحديده بناء على ما يقارب العشر سنوات من التنبؤات المرتجلة، وليس بالضرورة أن يكون عاماً متميزاً عن 2019م أو 2021م في هذا السياق، هذا ما قاله مايك ليبهولد، وهو أحد الأعضاء المميزين في معهد المستقبل في كاليفورنيا، والذي تحفل سيرته الذاتية بالعديد من الخبرات والمعارف في المجالات التقنية. وقد عمل مع شركة إنتل وأبل ومع شركة نتسكيب. ويقول مايك: إن هناك تقدماً كبيراً على صعيد مجالات التقنية المتعددة لا شك في ذلك، و2020م بالتالي تاريخ يمكن للمحررين والكتاب أن يعولوا عليه عندما تساورهم الرغبة في الكتابة عن المستقبل.

فبعد عقود من مساعدة شركات التقنية العالية في تطوير تقنياتها المتقدمة ونشرها حول العالم، فإن مايك ليبهولد يقوم الآن بمساعدة عملائه لتخطيط طويل الأمد لأعمالهم، وذلك حتى يتمكنوا من اتخاذ القرارات الصائبة في المدى القصير، وهو بذلك لا يملك مفاتيح سحرية، ولا يعتمد التنجيم وقراءة كرة الكرستال ليحدد منظومة المستقبل، بيد أنه يقوم هو وزملاؤه بمساعدة العملاء على قراءة ما يسميه هو «إشارات».. وهي أشياء تراها الآن في الواقع، وتتيح لك تصور تنبؤات معقولة لما يمكن أن ينطوي عليه المستقبل.

ومايك ليبهولد يتنبأ بعالم جميل بعد عشر سنوات من الآن، فيقول على سبيل المثال: «إنه بالرغم من التقدم الكبير في مجال صناعة الهواتف الخليوية واعتماد قوى اقتصادية كبيرة على إنتاجها، فإن باستطاعة معظم سكان العالم حيازة أجهزة خليوية شبكية، أو أجهزة ذات أحجام صغيرة جداً بحلول عام 2020م، وسوف يتم منح كل شخص موجود على ظهر الأرض خدمة الموقع الجغرافي التي تتيح له الدخول على شبكة البيانات والاتصالات العالمية، ولن يقف في طريق ذلك سوى القرارات السياسية».

كما أن استخدام بصمة التعرف على الوجه، والتعرف على البصمات البيولوجية الأخرى سوف يكون شائعاً، واستخدام أجهزة تحليل الصورة التي تتطلب عادة حاسبات آلية عملاقة فائقة السرعة، سوف يكون استخدامها أيضاً شائعاً ومتاحاً للجميع. وستتسارع وتيرة الاكتشافات والاختراعات العلمية بصورة مذهلة، وسوف نرى انتشاراً كبيراً لأشياء عالية التقنية بين أيدينا مثل الـ«أي آي» ووسائط خاصة تجعلك تخوض تجربة الغوص في الأبعاد الثلاثية المثيرة مثل فيو بوينت أنديبندنت 3 دي التي ستجعلنا نشعر فعلاً أننا في حقيقة لا في واقع افتراضي.

عبدالعزيز العريفي

الطاقة النظيفة مطلب ملح



تَغيُّر المناخ قضية تتعلَّق بالبيئة والتنمية معاً. هذا ما يقوله الاختصاصيون، وما يخشى منه أصحاب القرار في المنظومة الكونية. والتنمية قضية، في وجه من وجوهها، اقتصادية بحتة، عبر هذه السلسلة المنطقية، يصبح الارتباط بين البيئة والاقتصاد ارتباطاً عضوياً لا فكاك منه. محمد خضر يتحدث عن الفكرة الجوهرية للحصول على طاقة نظيفة.

ليس بقرار حكومي في أي بلد من بلدان العالم، يمكن أن يستيقظ العالم ذات صباح سعيد، على بيئة نظيفة، تنعم بالتوازن والصحة والعافية.
وليس حتى بقرار أممي. فما يحتاج إليه الكون في لحظته الراهنة، تراكم وعي إنساني، يتجاوز فيه أبناء العالم الثالث إحساسهم بالضيم من أبناء العالم الأول، وينحي الإفريقي فيه همومه جانباً، وتتواضع المجتمعات المتقدمة، لصالح بناء المعمورة، ولما فيه صلاحها: هواء نقي، وماء نظيف، وتناغم خلاق بين عناصر الكون، ومفرداته جميعها!



الفكرة الجوهرية هنا، تتمثل في سؤال: هل من سبيل لأن تتجاوز البسيطة محنها المتعلقة بمُناخها، وبيئتها، وتصحر مناطق واسعة فيها، وتراجع منسوب المياه أو تلوثها وكذا تلوث الهواء، والمجموع الخضري لصالح الإسمنت والإسفلت؟

المؤسسات الدولية المعنية، ومن بينها البنك الدولي على سبيل المثال، تتوقع أن يؤثر تغير المُناخ الناجم عن كافة نشاط البشر تأثيراً سلبياً في الإنتاجية الزراعية في مختلف المناطق المدارية وشبه المدارية، إلى جانب تدني كمية المياه ونوعيتها في معظم المناطق الجافة وشبه الجافة. تغيّر المناخ قضية تتعلق بالبيئة والتنمية معاً. هذا ما يقوله الاختصاصيون، وما يخشى منه أصحاب القرار في المنظومة الكونية. والتنمية قضية، في وجه من وجوهها، اقتصادية بحتة، عبر هذه السلسلة المنطقية، يصبح الارتباط بين البيئة والاقتصاد، ارتباطاً عضوياً لا فكاك منه.

هو إذاً، ارتباط يفرض حلولاً اقتصادية عاجلة، أي بمعنى أن على الاقتصاد العابر للقارات الذي كان في كثير من تجلياته، سبباً في التأثير في بيئة الأرض ومُناخها، وتوازناتها «المصانع الكبرى، والاحتباس الحراري، وصناعات الموت، وأسلحة مختلفة الأوزان والأنواع»، هو وحده القادر، بأدواته وحلوله متعددة الاستراتيجيات والمنهجيات، على أن يقدم دليلاً على حسن نواياه نحو كوكب يضج بصراعاته وأطماعه ومشاريعه التي لا تنتهي، وأن يجترح أفق خلاص كوني مبين.

فتغير المُناخ قضية، بحسب أرباب البنك الدولي، لا تحتمل الانتظار، وينبغي التصدي لها عاجلاً وليس آجلاً. منذ صدور بيان الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المُناخ الذي قدّم أدلة وشواهد علمية إضافية بشأن تغير المُناخ الناجم عن كافة نشاط البشر، ومروراً باستراتيجية المفوضية الأوروبية بشأن الطاقة التي دعت إلى الحد بشدة من انبعاثات الغازات الدفيئة، وتحقيقاً لهدف الاتحاد الأوروبي بشأن الوصول إلى ما نسبته 20%

من الطاقة المتجددة بحلول عام 2020، ومع الأمور التي أولاها القطاع الخاص في الولايات المتحدة لتغيّر المناخ، ثمة اعتراف متزايد الوتيرة بما تشكله مخاطر تغير المُناخ، والفرص الجديدة المتأتية من ذلك بشأن المضي قدماً نحو اقتصاد تقل فيه انبعاثات غازات الدفيئة.

الاقتصاد العابر للقارات هو وحده القادر، بأدواته وحلوله متعددة الاستراتيجيات والمنهجيات، على أن يقدّم دليل حسن نواياه نحو كوكب يضج بصراعاته وأطماعه ومشاريعه التي لا تنتهي

ها هي الصيحة تأتي إذاً من أكثر الجهات التي أضرت، ربما، ببيئة الكون وسلامة أحواله، في هذا السياق، طلبت قمة مجموعة الثمانية، التي عقدت في غلين إيغلز في اسكتلندا عام 2005م، من البنك الدولي تقديم خطة تساعد على تسريع وتيرة الاستثمار في الطاقة النظيفة من أجل بلدان العالم النامية، وذلك بالتعاون مع المؤسسات المالية الدولية الأخرى. وهو ما يشمل: زيادة القدرة للحصول على الطاقة، ولا سيما في إفريقيا جنوب الصحراء، وتسريع وتيرة الانتقال إلى اقتصاد تقل فيه انبعاثات غازات الدفيئة، والتأقلم مع تقلبات المُناخ وتغيره.

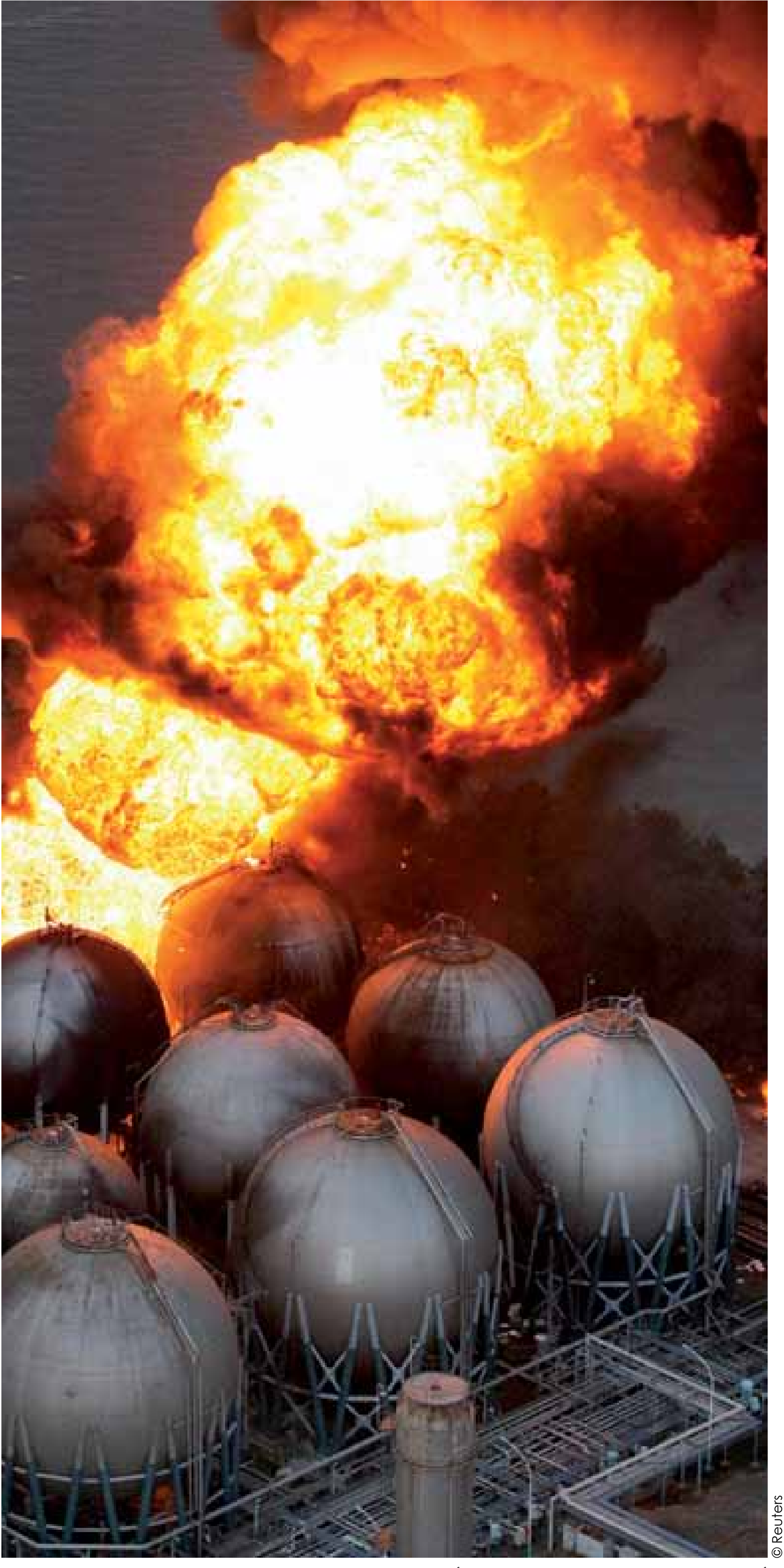
وفقاً لما تقدَّم، يحتاج قطاع الطاقة الكهربائية إلى 165 بليون دولار أمريكي من الاستثمارات كل عام من العقد الحالي. ولا تتوافر موارد تمويلية سوى لنصف هذه الاحتياجات. وهناك حاجة، أيضاً، إلى عشرات البلايين من الدولارات لتغطية التكاليف الإضافية اللازمة للتحول إلى اقتصاد تقل فيه انبعاثات غازات الدفيئة. وستصل التكاليف الإضافية لمشروعات الحماية من التقلبات المناخية المرتبطة بإعانات وتمويل بشروط ميسرة للبلدان النامية إلى حوالي بليون دولار سنوياً. بينما قد يصل إجمالي التكاليف التي يتحملها القطاعان العام والخاص في بلدٍ نامٍ إلى عشرات البلايين من الدولارات سنوياً.

إن الحد من انبعاثات الغازات الدفيئة الناتج عن التنمية، مع استمرار المفاوضات الدولية بشأن إطار ما بعد عام 2012م ضمن اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية المعنية بتغير المُناخ، ومساندة البلدان الغنية للبلدان النامية مقابل تحقيق نمو أكثر فائدة وأقل إضراراً بالبيئة، وتجميع غاز الميثان المنبعث في مقالب النفايات، وتحسين كفاءة استخدام الطاقة في إنتاج الصلب، والتوليد المشترك للطاقة باستخدام تفل قصب السكر، والطاقة المتجددة «الرياح، والحرارة الأرضية، والطاقة المائية»، وتغيير أنماط استخدام الأراضي، وتشجير المناطق القاحلة وإعادة التشجير، جميعها وغيرها، وسائل يمكن أن تساعد على التقليل من التغيرات البيئية المدمّرة، والحد من انبعاثات غازات الدفيئة بأشكالها ودرجاتها المختلفة: الانبعاث غير الخطر، والخطر، والانبعاث المدمّر.

بالتأكيد، لا يكفي تخصيص يوم في العام «في 14 أكتوبر 1986م اجتمع وزراء البيئة العرب في تونس العاصمة وقرروا أن يكون ذلك اليوم من كل عام يوم البيئة العربي»، ليتحقق قدر من الالتفات القومي للبيئة، ربما يحتاج الأمر إلى إطار



الخلايا الشمسية صديقة للبيئة وأفضل المصادر لتوليد الطاقة النظيفة في عصرنا الحالي.



أثار الدمار الذي لحق بمفاعل فوكوشيما في أعقاب الزلزال الكبير مخاوف واسعة حول العالم من تسرب الإشعاعات النووية.

استثماري معنيّ بالطاقة النظيفة، والبيئة النظيفة، والمُناخ النظيف من أجل تنمية حقيقية مستدامة.

يعرّف التلوث البيئي بأنه إحداث تأثير في البيئة التي تحيط الكائنات الحية بفعل الإنسان ونشاطه اليومي، ما يؤدي إلى ظهور بعض الموارد التي لا تتلاءم مع المكان الذي يعيش فيه الكائن الحي ويؤدي إلى اختلاله.

الإنسان، هو، إذاً، المسؤول، عن الإخلال بمنظومة البيئة الكونية، وعن هدم أركان استقرارها وتوازنها، فهو الذي يخترع، ويصنع، ويستخدم، وهو المكوّن الأساسي لسكان الكوكب. بالنظر إلى نتائج كارثتين كونيتين متشابهتين بالتسمية: تسونامي سومطرة الإندونيسية وتسونامي فوكوشيما اليابانية، يتبيّن لنا أن الإنسان المسكون بقلق دائم يتعلق بمواصلة تطوير بناه التحتية وخدماته الوطنية والرسمية، هو المسؤول عن نقل مخاطر تسونامي الثاني إلى درجة مروّعة حَبَسَ العالم أنفاسه أمامها.

فالتسرب الإشعاعي، كما حدث في قصة تشيرنوبل المؤلمة، ليس من الأخبار التي يمكن أن يمر عليها المواطن الكوني مرور الكرام. صحيح أن تسونامي سومطرة أخذ معه أرواح ربع مليون إنسان، وهو الرقم الذي قد لا يصل تسونامي فوكوشيما إلى عشره، أو ربما يصل إلى أكثر من ذلك بقليل مع احتساب المفقودين «حوالي 30 ألف مع المفقودين»، إلا أن ما تصاحب مع الزلزال البحري المدمّر الثاني، من مخاطر التسرب الإشعاعي من أربع محطات قريبة من مركز الزلزال، يضع الإنسانية أمام أسئلة جوهرية مصيرية حاسمة: إلى أي مدى يحتاج الكون إلى كل هذه الوسائل العلمية التقنية المتقدمة، عندما يتعلق الموضوع بتوفير مصادر طاقة، أو تطوير تقنيات زراعية، أو تسريع خدمات بلدية مدينية عديدة؟

المظاهرات التي اجتاحت بعض شوارع طوكيو وغيرها مطالبة بترشيد استخدامات الطاقة، والتقليل من استخدام الطاقة النووية على وجه الخصوص، قد تدخل في سياق الإجابة عن هذا السؤال أو هذه الأسئلة!

فهل يدرك الإنسان، قبل فوات الأوان، فداحة المسؤولية الأخلاقية التي تنتظر البيئة الكونية منه أن يتصدى لها، وأن يشرع في تطبيق عدالة بيئية تأخذ في الحسبان الآثار المترتبة على الأضرار البيئية بصفتها جزءاً لا يتجزأ من السياسة البيئية الحكيمة القويمة؟!



غيمة صناعية

ربما تكون كأس العالم المزمع إقامتها في دولة قطر عام ٢٠٢٢ سبباً في إمكانية تغيير الطقس! لقد أعلن فريق من الخبراء القطريين عن فكرة إنتاج غيوم صناعية فوق الملاعب من شأنها أن تخفض درجات الحرارة. ويهدف هذا الابتكار إلى تخفيض درجة الحرارة ١٠ درجات فهرنهايت من أصل ٤٥ درجة فهرنهايت تصلها في قطر. والابتكار عبارة عن تصميم غيمة صناعية طائرة تستخدم لتظليل الملاعب المفتوحة، وبالإمكان تحريك الغيمة عن بُعد باستخدام أجهزة التحكم عن بُعد. الجدير بالذكر أن هذه الغيمة مصنوعة من مواد قطرية محلية، وتعمل بأربعة محركات تعمل بالطاقة الشمسية. وتطير على ارتفاعات عالية يمكنها من حجب الشمس.

إسفلت من الزجاج

ابتكرت ثلاث فتيات سعوديات من مدينة جدة نوعاً جديداً من الإسفلت. وهو تركيبة فريدة من نوعها مكونة من البلاستيك والزجاج وبعض المواد غير الضارة بالبيئة تضاف إلى الإسفلت.

وجاء هذا الابتكار الذي يقاوم عوامل التعرية والأمطار، ويساعد على جعل القيادة آمنة وسلسة متزامناً مع تعرض مدينة جدة للسيول باستمرار. المبتكرات أروى، وود، وفاطمة أوضحن أن هذا الإسفلت البلاستيكي نجح في تجربة مقاومة الهواء الجوي الملوث ومقاومة تسريب المياه. كما أوضحن أن هذا الابتكار سيقلل من الضجيج في الأنفاق وعلى الجسور المعلَّقة.



طرف صناعي بحاسة اللمس

وأخيراً.. تم ابتكار طرف صناعي يملك حاسة اللمس! لقد نجح فريق طبي في معهد شيكاغو من ابتكار ذراع صناعية قادرة على الاستشعار بنوع الملمس ودرجات الحرارة. وذلك عن طريق الاستعانة بالأعصاب التي ما زالت موجودة بالرغم من عدم وجود الذراع. ولقد تمكن الأطباء من زراعة هذه الذراع لمصاب فقد ذراعه منذ زمن، حيث استبدلت بالذراع الصناعية القديمة. ولقد شعر المصاب بالفارق بين الذراعين، إذا قال إن الثانية تشبه الحقيقية، وتوفر حرية أكبر، وإحساساً أكبر بكائنات المكان.





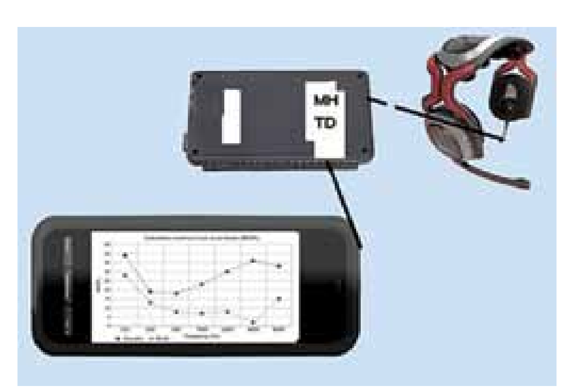
نايلون في قوة المعدن

ومن البلاستيك إلى النايلون، حيث توصّل فريق من المهندسين بعد أن أمضوا سنوات عشر إلى ابتكار طريقة لاستخدام النايلون المقوى في صناعة الطائرات والسيارات ذات السرعة العالية، وذلك بجعل النايلون يوازي صلابة المعدن. والطريقة تتلخص في استخدام برنامج حاسوب يقوم عن طريق آلات بوضع طبقات النايلون الرقيقة بعضها فوق بعض في فرن متطور يعمل على حرارة مرتفعة، وذلك لصناعة قطع تشبه المعدن في صلابتها وقوتها. ولقد صمم النايلون بأشكال متعددة ليدخل في صناعات مختلفة كقطع للطائرات، وقطع لسيارات الفورمولا 1 التي ما زالت بعض شركاتها تدرس إمكانية استخدام هذا النايلون المقوى.
يتميز هذا الابتكار بخفة وزنه مقارنة بالمعدن، ما يقلل من كمية الوقود التي تستهلكها الطائرات.



لقاح جديد

«وداعاً للوخز بالإبر» هذا ما يبشر به اللقاح الجديد الذي أُبتكر، مؤخراً، وقاية ضد جميع أنواع الإنفلونزا مثل إنفلونزا الطيور والخنازير، والأمراض الوبائية مثل الطاعون الدملي. ولقد توصّل العلماء في كلية أولباني الطبية في نيويورك إلى هذا اللقاح الفاعل من خلال إضافة مركب تحصيني طبيعي يمكن أن تكون فاعليته أقوى إذا أُخذ عن طريق الأنف. المادة الكيماوية تدعى IL-12، وهي تنشط جهاز المناعة من خلال تفاعلها مع مواد كيماوية أخرى في جهاز مناعة الإنسان، حيث الكريات البيضاء.



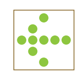
مراقبة الجروح عن بُعد

كما هو معروف تحتاج الجروح بعد العمليات الجراحية إلى متابعة لاكتشاف مدى التئامها، أو ما تعرَّضت له من تلوث والتهابات. وبناءً على ذلك توصَّل فريق من الباحثين في كلية الطب في جامعة الملك خالد وهما د.علي القحطاني، بالاشتراك مع د.رضا سيرج إلى ابتكار جهاز لمتابعة الجروح بعد العمليات الجراحية، واكتشاف الالتهابات التي قد يتعرّض لها الجرح، حيث تُعدُّ الالتهابات بعد العمليات الجراحية من أكثر المشكلات خطورة على المرضى من كبار السن وقليلي المناعة. يتيح هذا الجهاز متابعة حالة جرح المريض من قبل الجراح أولاً بأول ليتسنى للطبيب التدخل السريع في حال وجود التهابات أو تلوث.



تلوث الماء والطعام بالبكتيريا

تُعدُّ وجبات الطعام الجاهزة من الأسباب الرئيسة لكثير من حالات التسمم الغذائي الميكروبي. رئيسة الجمعية الأردنية للعلوم المخبرية الطبية د.سلوى عمارين تتناول أنواع التسمم الغذائي وتشخيصه.



تنتشر في بيئة الإنسان والحيوان أنواع كثيرة من الميكروبات المفيدة والضارة، ومنها الفيروسات والبكتيريا والطفيليات والفطريات. وأكثر هذه الميكروبات مفيدة ومهمة لحياة الإنسان، وخصوصاً الأنواع التي تستقر وتتكاثر بصورة طبيعية وبأعداد كبيرة في الأمعاء، وفي مقدمتها بكتيريا القولون. ولكن على الجانب الآخر هناك أنواع قليلة من الميكروبات المعدية التي تسبب الأمراض والوفيات إذا وصلت إلى الجهاز الهضمي للإنسان وبعض الحيوانات الأليفة التي يتغذى عليها الإنسان. وتدل الدراسات وتقارير منظمة الصحة العالمية على أن ملايين الأشخاص يمرضون سنوياً نتيجة تلوث المياه وتسمم الطعام.

ويُعد الماء والطعام الوسيلة المناسبة والسهلة لنقل الميكروبات الممرضة. فلذلك يجب منع تلوثهما بالميكروبات للمحافظة على الصحة العامة في أي تجمع بشري. وقد يحدث أن تصل إلى أمعاء الإنسان أو الحيوان أنواع من الميكروبات الممرضة، وتتكاثر هناك بأعداد كافية تنتج عنها أمراض مثل الإسهالات، وفي حالات قليلة خمج الدم والأنسجة الداخلية للجسم. وإصابة الإنسان أو الحيوان بهذه الميكروبات قد يجعله حاملاً مؤقتاً «من أيام إلى أشهر» أو مزمناً لهذه الميكروبات المعدية. وقد تبقى بعض الميكروبات كامنة داخل الجسم طوال حياة الشخص المصاب مثل السالمونيلا وحمى التيفوئيد. وتُعد فضلات الإنسان والحيوان مصدراً محتملاً لنقل الميكروبات المُعدية والممرضة. وأي تلوث يلحق بمياه الشرب أو مصادرها عن طريق هذه الفضلات مباشرة أو من خلال مياه المجاري سيؤدي، بالضرورة، إلى حدوث حالات مرضية فردية أو جماعية على شكل أوبئة يزداد عدد المصابين بها مع مقدار التلوث الحاصل.

التسمم الغذائي

وفق بروفيسور علم الميكروبات عاصم الشهابي فإن التسمم الغذائي بالميكروبات المعدية في مقدمة الأمراض التي يمكن أن تصيب الإنسان خلال حياته اليومية، وتصل حالات التسمم الغذائي الجماعي في العالم، بحسب إحصاءات عديدة وموثوقة، إلى عشرات الملايين سنوياً. وفي البلدان المتقدمة، وبسبب اعتماد كثير من الناس عليها، تُعد وجبات الطعام الجاهزة من الأسباب الرئيسة لكثير من حالات التسمم الغذائي الميكروبي. أما في البلدان النامية والفقيرة فيحدث تلوث الأطعمة في أثناء تحضيرها في البيت، أو المطاعم نتيجة نقص كميات المياه النقية، وعدم العناية بتنظيف الأيدي والأدوات والمواد التي تستعمل في إعداد وجبات الطعام بالشكل المطلوب، إضافة إلى انخفاض مستوى نظافة العاملين ومكان العمل. وتكثر حالات التسمم الغذائي خلال فصل الصيف، وخصوصاً مع ارتفاع درجات حرارة الجو.

وتشمل أعراض التسمم الغذائي الميكروبي: القيء، والإسهال، والمغص الباطني، والغثيان. ويحتاج ظهور العلامات المرضية، بحسب نوع التسمم ودرجته، ما بين ساعة إلى 48 ساعة لظهور أول أعراض ذلك التسمم. وتلاحظ في حالات قليلة حمى وصداع، ومضاعفات خطيرة تؤثر في الجهاز العصبي والتنفسي في جسم المصاب.

التسمم الغذائي بالميكروبات

بحسب المراجع الموثقة فإن معظم حالات التسمم الغذائي بالميكروبات التي تحدث بشكل جماعي تسببها أنواع قليلة من البكتيريا المعدية في أثناء نموها وتكاثرها في الغذاء الملوث، أو عند وصولها إلى أمعاء الإنسان بعد تناول الغذاء

خطة وقائيـة

تشتمل خطة مكافحة الإصابة بالميكروبات التي تؤثر في الجهاز الهضمي للإنسان على عدة خطوات بسيطة سهلة التطبيق في البيت، والمطعم، ومصانع الألبان والأغذية، ومركز تحضير مياه الشرب والمشروبات. ومن أهم هذه الخطوات:

- الاهتمام الشديد بنظافة أيدي العاملين، واحتساب عملية غسل اليدين بالماء والصابون أساسية وأسهل عمل وأرخصه يمكن أن يقوم به الشخص لمنع خطر انتقال الميكروبات من الإنسان إلى المواد الغذائية، وبالعكس في أثناء تحضير وجبات الطعام.

- المحافظة على نظافة مكان العمل، والأدوات، والأواني التي تستعمل في تحضير وجبات الطعام.

- عدم ترك وجبات الطعام الجاهزة للأكل مكشوفة للغبار، أو في مكان دافئ ولفترة تزيد على نصف ساعة خارج الثلاجة.

- الانتباه لأي تغير في لون اللحوم والأسماك والألبان أو رائحتها أو مظهرها، وكذلك أي مواد غذائية، أو وجبات طعام جاهزة.

- مراقبة المطاعم والشركات والمؤسسات التي تعمل في مجال إنتاج الأطعمة والأغذية وتقديمها من قبل الدوائر الصحية الرسمية والمختصة، والتأكد بأنها تمارس عملها ضمن شروط صحية سليمة، وتطبق قانون الصحة العامة الذي يضمن سلامة الغذاء والماء من المواد والميكروبات الضارة بصحة الإنسان.

الملوث بها، ومنها مجموعة سالمونيلا الالتهاب المعوي Salmonella gastroenteritis التي يتم تشخيصها بزراعة عينات من براز المريض في المختبر. وإذا تم عزل بكتيريا السالمونيلا أو غيرها من البكتيريا المسببة للحالة المرضية، فيجب إجراء فحص مدى تحسسها للمضادات البكتيرية. وينصح بعدم إعطاء المريض البالغ الذي يتمتع بصحة جيدة المضادات البكتيرية، لأن استعمالها يؤدي، أحياناً، الى إطالة مدة المرض، وزيادة مقاومة بكتيريا السالمونيلا للمضادات المستعملة، وخصوصاً إذا لم يتناول المريض الدواء بصورة كافية وصحيحة في أثناء فترة العلاج. أما في حالة المريض الذي يعاني أمراض نقص المناعة أو الطفل الوليد، فيجب أن تتم المعالجة في المستشفى بإعطاء الأدوية الضرورية بما فيها المضادات الحيوية.

وهناك، أيضاً، مكورات ستافلوكوكس أوريس/ الذهبية Staphylococcus aureus التي يكثر وجودها في مناطق مختلفة من جسم الإنسان مثل الأنف، وثنايا الجلد، والجروح. وتقوم بعض سلالاتها بإفراز نوع من الذيفان/ السم المقاوم لحرارة غليان الماء «مئة درجة مئوية» ولمدة لا تقل عن عشرين دقيقة. وهذه البكتيريا تفرز الذيفان في أثناء تكاثرها في أنواع الغذاء الغني بالملح والبروتينات، مثل وجبات الطعام التي تحتوي على اللحوم ومشتقات الألبان والبقوليات التي يتم حفظها بعد التحضير في مكان دافئ بحدود 20 درجة مئوية وأكثر، ولفترة عدة ساعات قبل تناولها. ولأن بكتيريا ستافلوكوكس أوريس تنتشر بكثرة في تقرحات الأيدي وجروحها، كما توجد في الأنف وتحت أظفار اليد عند نسبة غير قلية من الأفراد، فمن السهل تلوث وجبات الطعام بها في أثناء تجهيزها في المطابخ مباشرة عن طريق أيدي العاملين، أو الأواني والأدوات المستعملة والملوثة بالبكتيريا.

> تكثر حالات التسمم الغذائي خلال فصل الصيف، ولعدم العناية بتنظيف الأيدي والأدوات والمواد المستخدمة في إعداد الطعام

وتشير معظم المراجع العلمية إلى أن التسمم الغذائي بهذا النوع من البكتيريا واسع الانتشار، ويأتي في المرتبة الأولى أو الثانية بعد السالمونيلا كمسبب لحالات التسمم الغذائي في العالم. ومن أعراضه: الغثيان، والمغص مع القيء، وفي حالات قليلة يحدث إسهال مائي، ولا يلاحظ ارتفاع بدرجة حرارة الجسم. ومن الجراثيم الملوثة عصيات باسيلس سيريوس Bacillus cereus التي تنتشر بكثرة في التربة والغبار لكونها تتميز بتكوين الأبواغ Spores المقاومة للجفاف لفترة طويلة في أثناء وجودها في الطبيعة، وعصيات كلوستريديوم بيرفرنجيس Clostridium perfringens المنتشرة بكثرة، أيضاً، في الطبيعة، وفي فضلات الإنسان والحيوان، وغيرها من العصيات والمجموعات الميكروبية المسببة لكثير من الأمراض وحالات التسمم.

تشخيص التسمم

يتم تشخيص حالات التسمم الغذائي الفردية، غالباً، بالاعتماد على الأعراض والعلامات المرضية التي يشكو منها الشخص المصاب. وفي حالات التسمم الجماعية يطلب الطبيب من المختبر الكشف عن المسبب الحقيقي، ولذلك يوصي بأخذ عينات بسرعة من بقايا الطعام الذي استهلك، وكذلك عينات فضلات جميع الأشخاص المصابين أو بعضهم.

نظام مراقبة

كشف باحثون أمريكيون، مؤخراً، عن نظام مراقبة جديد يستخدم العلامات والمادة الوراثية في البكتيريا، مثل «آي. كولاي»، للكشف عن وجود الجراثيم بصورة دقيقة وسريعة، وتظهر نتائجه في غضون ساعة إلى ثلاث ساعات.

ووفق د.بيشيزكيل كاشي، من كلية الهندسة الغذائية والتكنولوجيا الحيوية ومعهد بحوث المياه، الذي طور التقنية بالتعاون مع زملائه في كلية المصادر الطبيعية في معهد فيرجينيا التكنولوجي الأميركي، وقسم التغذية بجامعة واين، فإن التعرف الدقيق على السلالات البكتيرية قد يكون حاسماً في سرعة التشخيص، وتحديد الاستراتيجيات العلاجية الفعالة. وكمثال: يحتاج الأطباء إلى عدة أيام لتحديد إصابة المريض بالتهاب القناة البولية، الذي يؤدي إلى تلف دائم في الكليتين. أما مع التقنية الجديدة فقد أصبح بإمكان المريض تعاطي العلاج فوراً خلال ساعات قليلة بعد الفحص.

ويرى الخبراء أن هذه التقنية ترفع من حساسية الكشف وسرعة التعرف على البكتيريا المؤذية مثل «آي. كولاي»، وتقدم طريقة مثالية للفحص الميكروبي لمصادر الطعام والمياه الملوثة، وتحمي من الهجمات باستخدام الأسلحة الجرثومية.

وهناك أنواع عديدة من الفيروسات، والبكتيريا، والفطريات، والطفيليات المتسببة في حالات إسهال واضطرابات معوية تشابه حالات التسمم الغذائي. وتشمل، غالباً، حدوث التهاب في بطانة الأمعاء، وإسهالاً مائياً أو مخاطياً- دموياً يستمر لفترة يوم إلى ثلاثة أيام. ومن أهم



هذه الميكروبات التي لا تزال تنتشر مع تلوث المياه ويجب الحذر منها ومنع وصولها إلى مياه الشرب: سالمونيلا حمى التيفود S. typhi، وبكتيريا الشيغلا- Shigella، وبكتيريا الكوليرا Vibrio cholera التي تشير تقارير حديثة أصدرتها منظمة الصحة العالمية إلى أنها لا تزال خطرة وتسبب مئات آلاف الإصابات سنوياً.

هناك، أيضاً، مجموعة بكتيريا فبريو باراهيموليتكس Vibrio parahaemolyticus، ومجموعة بكتيريا أيروموناس Aeromonas التي تعيش في مياه البحار وتلوث الأسماك والمحار، ومجموعة بكتيريا كامبيلوباكتر المعوية المعدية Campylobacter التي يكثر انتشارها بين جميع أنواع الحيوانات والطيور اللاحمة، وكذلك القطط والكلاب المنزلية. وهذه الميكروبات واسعة الانتشار في الطبيعة وبين البشر والحيوانات. وهناك أنواع من البكتيريا والفطريات يؤدي تلوث الطعام بها إلى تحلل مكونات اللحوم، والألبان، والبيض، والسمك، وإنتاج مواد شبه سامة تعرف بالبتومينات Potmaines، وهذه بدورها إذا وجدت بكمية كبيرة في الطعام تفسده وتسبب اضطرابات معوية مختلفة.

الفيروسات المعوية

تحتوي أمعاء الإنسان والحيوانات والطيور، عادة، على أنواع مختلفة من الفيروسات المعوية المعدية التي تسبب زهاء 80٪ من مجمل التهابات المعدة والأمعاء، خصوصاً بين الأطفال وبشكل أقل بين الأشخاص البالغين. وقد ثبت علمياً أن نسبة كبيرة من حالات الإسهال «من 30٪ إلى 50٪» في العالم تحدث نتيجة تلوث مياه الشرب بفيروسات روتا Rota Viras، ومجموعة فيروسات نوروك Norwalk Viruses، وفيروسات أدينو Adenovirus. وهناك فيروسات تنتقل عبر مياه الشرب إلى الإنسان وتتكاثر في أنسجة الأمعاء مسببة، أحياناً، إسهالاً خفيفاً، وبعضها تنتقل من الأمعاء إلى الدم وباقي أعضاء الجسم الداخلية، وتنتج عنها أمراض معدية خطرة تصيب الأطفال، مثل فيروس شلل الأطفال Poliovirus، وفيروس التهاب الكبد الوبائي «أ» و«ياء» Hepalitis A and E، ومجموعة فيروسات كوكساكي Coxsachie Viruses.وهناك، أيضاً، الطفيليات المعوية المعدية التي ينتشر كثير منها في الجهاز الهضمي، خصوصاً في بلدان العالم النامي التي تعاني الفقر، وتدني مستوى الخدمات الصحية الأساسية، وعدم توافر مياه الشرب النقية بكميات كافية. وتحدث معظم حالات التسمم الطفيلي لدى الأطفال الصغار، إذ تشاهد عندهم مضاعفات مرضية مثل ضعف النشاط العام، ونقص الوزن ونمو الجسم، وتكرار الإسهال المائي أو الدموى وفقر الدم.

قصة ابتكار

محرك الاحتراق الداخلي

يقوم اختراع محرك الاحتراق الداخلي على مبدأ سرعة الاحتراق، ويُعدُّ ذلك من التطبيقات العملية للديناميكا الحرارية، والتي نجحت في تطويع الطاقة الحرارية وتحويلها إلى طاقة أو حركة ميكانيكية. فإذا ما قمت بوضع نقطة من الوقود سريع الاشتعال كالبنزين مثلاً داخل حيز صغير ومغلق وقدحته بشرارة فسينتج عن ذلك كمية كبيرة من الطاقة على شكل انفجار، وهذا ما يحدث بالضبط داخل محرك السيارة أو محرك الاحتراق الداخلي (Internal Combustion Engine)، وهو المبدأ نفسه الذي تعمل عليه بندقية البارود القديمة، التي كان يتم حشو أنبوبها بالبارود ثم توضع فوقه الطلقة أو القذيفة، وعند إشعال البارود تتولد طاقة تدفع بالقذيفة بقوة خارج البندقية صوب الهدف، إلا أنه في محرك السيارة تحدث تلك العملية بشكل تسلسلي مئات المرات في الدقيقة الواحدة.

وقد توصَّل المخترع الألماني نيكولاس أوتو عام 1876م إلى اختراع المحرك الذي يستفيد من خاصية طاقة وقود البنزين الانفجارية لتوليد طاقة قوية ومستمرة، وأطلق عليه محرك أوتو الرباعي، كونه استلهم الفكرة من محرك الاحتراق الخارجي الأقدم (External Combustion Engine)، الذي كان يستخدم وقود الفحم لتوليد البخار وكطاقة لتحريك السفن والقطارات، من خلال محرك الديزل ثنائي النقلات.

ويُعدُّ نيكولاس أوجست أوتو من أبرز المخترعين في العالم الحديث، على الرغم من أنه عاش بداية عمره حياة بائسة، إذ توفي والده وهو لا يزال بعد في السادسة عشرة من عمره، وترك المدرسة ولم يكمل تعليمه، وانخرط في أعمال لا تتناسب ومقدراته العقلية الإبداعية، حتى إنه عمل بقالاً، بيد أن ذلك لم يثنه عن توجهه الحقيقي ومتابعته لأعماله وبحوثه في حقل الميكانيكا الذي برع فيه لدرجة اختراعه آلة تُعدُّ من أهم الآلات التي غيَّرت وجه التاريخ.



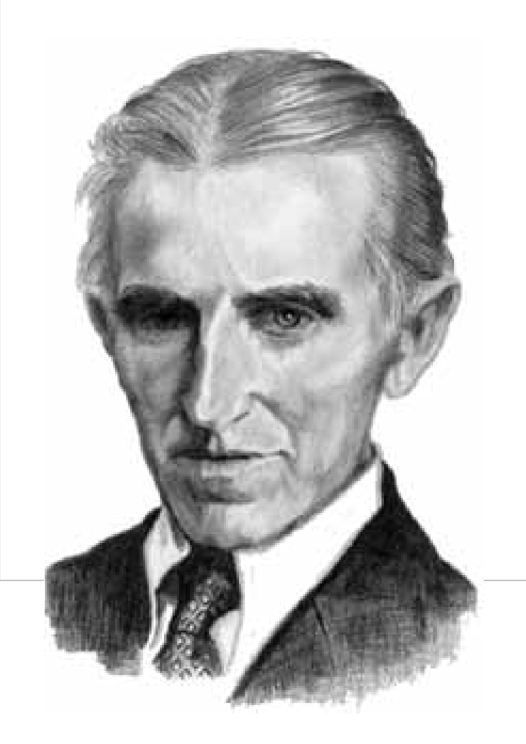
تتم حركة محرك الاحتراق الداخلي على أربع مراحل أو نقلات، وهذا ما دعا المخترع أوتو إلى تسميته بالمحرك الرباعي، والمراحل هي:

- مرحلة الاستيعاب (Intake stroke).
- مرحلة الضغط (Compression stroke).
- مرحلة الاحتراق (Combustion stroke).
- مرحلة العادم (Exhaust stroke).

يدفع الانفجار بالمكبس داخل المحرك عندما يكون في وضع رأسي إلى أسفل، ثم يقوم عمود الحركة المتصل به إلى إعادته إلى أعلى مرة أخرى. وهكذا تتولد الحركة التي بدورها تحرك السيارة عن طريق زخم هائل من الأعمدة والمسننات «التروس» الميكانيكية، وماكينة الأربعة سلندر تعني ببساطة أنها عبارة عن أربعة محركات احتراق داخلي مدمجة مع بعضها، وهكذا في الستة سلندرات والثمانية سلندرات.

قصة مبتكر

نيكـولا تسـلا



عالم أمريكي من أصل صربي، ولد في كرواتيا عام 1856م، وكان مخترعاً عظيماً، ومهندساً ميكانيكياً وكهربائياً، ويُعدُّ أبا الكهرباء الحديثة لكثرة إسهاماته في هذا المجال الحيوي، لما كان له من الدور الكبير في تلك النقلة الحضارية للإنسانية، بل إن اختراعاته بمجملها تُعدَّ من أكبر أسباب الثورة الصناعية الثانية التي صاغت القرن العشرين، وهو المخترع الحقيقي للمذياع «الراديو» وليس ماركوني كما يُعتقد، وقد تبيَّن ذلك للجهات المسؤولة عن براءات الاختراع، حيث بادروا بسحب براءة الاختراع المسجلة باسم ماركوني وتسجيلها باسم نيكول تسلا، على هذا الأساس تكون جائزة نوبل التي أعطيت لماركوني على اختراع المذياع تعود أصلاً لتسلا.

عندما قدم تسلا إلى نيويورك في الولايات المتحدة عام 1884م حصل على عمل في شركة المخترع الشهير توماس أديسون، الذي بادر على الفور مشرفاً على تطوير آلاته الميكانيكية والكهربائية، وسرعان ما ترقى في منصبه حتى بدأ يتعامل مع أصعب مهام الشركة ومشكلاتها، ويضع لها الحلول الجذرية، وغدا ضليعاً في هذا الأمر إلى درجة أن عُرض عليه إعادة هيكلة شركة أديسون برمتها. بيد أنه سرعان ما دبت الخلافات بينه وبين أديسون، وتطورت إلى شحناء وقطيعة لازمتهما طوال حياتهما المثيرة، ربما بسبب أمور مالية أو لمجرد الشعور بالغيرة والحسد تملكت كل واحد منهما تجاه الآخر، كمتلازمة فطرية ونزعة إنسانية تلقائية كانا رهن سطوتها، ولم تفلح عبقريتهما في كسرها، وقد كان ذلك سبباً في انفصال تسلا وتركه لشركة أديسون.

وفي عام 1891م أسس تسلا مختبرات الشارع الخامس في نيويورك بعد حصوله على الجنسية الأمريكية، وطوّر نقل الطاقة لاسلكياً، وعمل على تطبيق ذلك فعلياً عندما نجح في إشعال مصابيح كهربائية عن بُعد لاسلكياً ودون أي موصل، واستطاع في عام 1895م نقل الطاقة الكهرومغناطيسية عبر الأثير لاسلكياً، وقام ببناء أول مرسل للموجات «الراديوية» في مدينة سانت لويس بولاية ميزوري، والذي تطوّر فيما بعد ليصبح المذياع المعروف، وليمهِّد الطريق للنقل اللاسلكي للتلفون والبث التلفازي وللتلفون النقال.

ولا شك في أن اختراعات تسلا ونظرياته قد أسهمت بشكل فاعل في وضع الأسس للطاقة الكهربائية ذات التيار المتناوب، فضلاً عن اختراعاته الكثيرة، خصوصاً المحرك الكهربائي الذي يعمل على التيار المتناوب، ما كان سبباً في النهضة الصناعية الثانية في جميع أنحاء العالم، ما حدا ببعضهم إلى إطلاق أسماء مبالغ فيها على تسلا، تجسد قدرة الرجل ومدى أهميته في سياق التطور المعرفي، مثل: «مخترع القرن العشرين» و«أبو الفيزياء» و«أبو الكهرباء الحديثة». وفضلاً عن اختراعاته في مجال الاتصالات اللاسلكية، فقد أسهم، أيضاً، في تقدم «الروبوت» أو الإنسان الآلي، وأشعة إكس، والرادار، والتحكم في الآلات عن بُعد «الرموت»، وله باع طويل في الفيزياء النووية، زيادة على كل تلك المواهب كان يملك موهبة تعلم اللغات، إذ كان يجيد سبع لغات إجادة تامة مع لغته الصربية، كالإنجليزية، والتشيكية، والألمانية، والفرنسية، والإيطالية، واللاتينية والهنغارية، وكان ممن يؤمنون بالقوى الخفية، ويحبون الحيوانات والطيور، وممن يبالغون في النظافة الشخصية حد الوسوسة، وكان الكاتب الأمريكي ملرك توين من أعز أصدقائه ومن المقربين إليه إلى درجة أن الناس كانوا يعتقدون أن بينهما وشيجة قربى. عاش في شبه عزلة ولم يتزوج أبداً. توفي نيكولا تسلا في نيويورك عام 1943م عن عمر ناهز التسعين عاماً.

الانفجار الأعظم... وتمدد الكون



كل المجرات تبتعد عنا بسبب إزاحات أطيافها الحمراء التي تعني أن الكون يتمدد. هاني الضليع، عضو الاتحاد العربي لعلوم الفضاء والفلك، يتحدث عن الانفجار من وجهة نظر إعجازية قرآنية.





في العشرينيات من القرن الماضي ومن على قمة جبل ويلسون في أمريكيا حيث المرصد الفلكي، كان الفلكي أدوين هابل يعمل في رصد نجوم السماء ومجراتها البعيدة، وتحليل ضوئها القادم عبر فتحة التلسكوب، باحثاً في تكوينها وصفاتها عن طريق دراسة الطيف المرئي المنبعث منها، وبما يدعى علم التحليل الطيفي، حيث يدخل الضوء القادم من النجم إلى المحلل الطيفي فيخرج مجموعة ألوان، تماماً كمبدأ عمل المنشور الزجاجي.

لاحظ هابل أن كل الأطياف التي يقوم بتحليلها تختلف عن أطياف المختبر المقياسية، إذ لاحظ أن لها انحرافاً نحو اللون الأحمر. فسمَّى هذه الظاهرة ظاهرة الحيود نحو الأحمر (Red shift)، ولاحظ أن هذه الإزاحة أو الحيود تزداد كلما كان الجسم المرصود أبعد «مثال المثلثات».

قام هابل حينئذ بمقارنة نتائجه بالظاهرة الفيزيائية المعروفة آنذاك وهي ظاهرة دوبلر، حيث اكتشف كريستان دوبلر أن الأمواج الكهرومغناطيسية إذا كانت مقتربة منا فإنها تنضغط، وإذا كانت مبتعدة عنا فإنها تستطيل، وهو ما يحدث تماماً حين يقف شخص على رصيف القطار منتظراً، فيمر به قطار قادم من بعيد وهو يصفر، فإن صوت الصافرة يكون حاداً جداً، ويزداد مع اقتراب القطار، حتى إذا ما مر القطار خف الصوت وذهبت حدته.

وهكذا أدرك هابل أن كل المجرات تبتعد عنا بسبب إزاحات أطيافها الحمراء التي تعني أن الكون يتمدد. وأدرك العلماء هذه الحقيقة. ومن قبل ذلك جاءت معادلات نظرية النسبية العامة لأينشتاين لتؤكد ذلك. فوضع العلماء نماذج ثلاثة للكون هي الكون المفتوح المتسارع الذي يبدأ بتسارع كبير في تباعد مجراته ثم يخف مع الزمن. والكون المفتوح المستقر الذي يبدأ بتسارع كبير ثم تستقر سرعته وتصبح ثابتة. وفي هذين النموذجين يستمر الكون في التوسع إلى ما لا نهاية. وأخيراً الكون المغلق الذي يبدأ التوسع بتسارع كبير ثم يقل تدريجياً حتى يقف تماماً في النهاية، وبعدها يعكس اتجاهه فيبدأ بالانكماش على نفسه كما بدأ أول مرة.

الانفجار الأعظم:

ولقد دفع توسع الكون العلماء إلى التساؤل عن اللحظة الأولى التي ولد فيها الكون. المجرات التي نراها متباعدة بسرعات كبيرة لا بد أنها كانت متراصة مع بعضها في زمن ماض سحيق، ولا بد أن هذه الكتلة الهائلة انبثقت من نقطة واحدة كانفجار عظيم انبثقت من خلاله المادة بسرعات هائلة وأخذت بالتباعد مع الزمن. ولقد دعيت هذه النظريات بنظرية الانفجار الأعظم (Big Bang).

جاءت بعض الاكتشافات فيما بعد تؤيد صحتها كاكتشاف درجة حرارة الخلفية الإشعاعية للكون، وذلك عندما كان آرنو بنزياس وروبرت ويلسون يعملان في مختبرات بل للاتصالات ويستقبلان الأشعة الكهرومغناطيسية عبر تلسكوب راديوي على شكل بوق لدراسة تأثيرها على الاتصالات، حين سمعا طنيناً «هسيسًا» خفيفاً يأتي في كل الأوقات ومن جميع الاتجاهات، وحسبا درجة الحرارة المكافئة لهذا الصوت فوجداها تقارب «3» درجات كلفن أي «270» درجة مئوية تحت الصفر. دعيت درجة الحرارة هذه بالخلفية الإشعاعية المايكروية الكونية.

هذه الإشعاعات تحمل معلومات ثمينة عن مراحل خلق الكون وتكوين المجرات وبداية الانفجار الأعظم، لأن الحسابات أشارت إلى أن الكون كان ساخناً جداً لحظة الانفجار ثم أخذ يبرد، ويجب أن تكون درجة حرارته بعد مضي 15 مليار سنة «عمر الكون المعروف» نحو 3 درجات كلفن، فكان اكتشاف بنزياس وويلسون تأكيداً لذلك ودعماً لنظرية الانفجار الأعظم.

ولكن هل سيستمر الكون في التمدد بحسب نظرية الانفجار الأعظم؟ يعتمد ذلك حقيقة على كثافة المادة في الكون، فإذا كانت قليلة فإن الكون سيستمر في التمدد إلى الأبد. أما إذا كانت كبيرة ووصلت المقدار الحرج أو أكثر منه، فإنها ستوقف الكون عن التمدد بعد حين وتجعله ينكمش كما بدأ من الانفجار. كما جاء في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء 104)

أم أننا يجب أن نسلم لقول الله تعالى ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام 67) وننتظر ما سيكشفه لنا العلم يوماً ما؟

فلا يزال العلماء حائرين في ذلك، حيث إن أكثر من 90 % من مادة الكون هي مادة غير مرئية ولا يعرف العلماء ماهيتها...

وجهة نظر إعجازية

ذهب بعض المجتهدين في الإعجاز العلمي إلى أن القرآن الكريم قد وافق العلم في الحديث عن نظرية الانفجار الأعظم مستدلين بالآية الكريمة التالية:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء 30).

وهذا استدلال ليس في محله أبداً لأسباب عديدة، منها:

- أن الانفجار الأعظم هو مجرد نظرية تفسر نشأة الكون بناءً على بعض القياسات العلمية لحركة المجرات وقيمة الثابت الإشعاعي الكوني ونسبة الهيدروجين إلى الهيليوم. وربما ظهرت لنا مستقبلاً ثوابت تنفي ما تقدم فتتغير النظرية ويتغير بناءً عليها فهمنا للآية السابقة.

- وقد جاء لفظا «السماوات والأرض» في الآية السابقة معرفين، أي أن الأرض كانت أرضاً والسماء سماءً «رغم أنها كانت دخاناً» ثم حدث الفتق، في حين أن أي شخص مطلع على نظرية الانفجار الأعظم يعلم يقيناً بأنها تتحدث عن حقبة لا زمان فيها ولا مكان، فالانفجار الأعظم هو حدث سابق للزمان والمكان، فكيف تكون هناك سماء وأرض قبل الانفجار الأعظم؟

المجرات التي نراها متباعدة بسرعات كبيرة لا بد أنها كانت متراصة مع بعضها في زمن ماضٍ سحيق

- ألا يمكن أن يكون الانفجار الأعظم «إن صح» مرحلة سابقة لمرحلة الفتق، بل إنه لا يوجد توافق أبداً بين هذه الآية التي أوضحت عملية خلق السماوات وبين نظرية الانفجار الأعظم نفسها. فكيف تكون الأرض موجودة قبل الانفجار الأعظم؟ أليست الأرض والسماء والمجرات مراحل لاحقة تلت الانفجار؟



إذاً، فإن القول بأن الفتق هو الانفجار الأعظم قول لا يصح أبداً، بل إن آية سورة فصلت هي أقرب إلى آية الفتق والرتق من نظرية الانفجار الأعظم، قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت 11-12).

وعلى أي حال، فإن كل تلك الأخبار تبقى على سبيل النظريات لم يشهد حدوثها إنس ولا جان مهما تقدَّمت العلوم وتطورت الوسائل، ولن ترقى يوماً لتصبح حقيقة علمية، وهي قاعدة يجب الإقرار بها وتذكرها دوماً، وذلك مصداقاً لقول الله تعالى:

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف 51)

عالم في صور



لا بحر..
لا بر..
ركام فوق ركام فوق ركام
دخان منتصر
يعلن هزيمة الحياة
بالموجة القاضية
م.ع



هذا ما خلفته الهزة الأرضية التي ضربت شمال اليابان في ١١ مارس ٢٠١١، وما أعقبها من مد بحري عظيم (تسونامي)



من الأرض إلى الأرض ماء
من الماء إلى الماء أرض
من الماء إلى الأرض خرابٌ
من الأرض إلى الماء دمار
ماء ونار..
ماء ونار يلهوان معاً في ساحة الموت
الموت رطب
والبيوت تشتعل





تصطف عربات الموت عربة عربة
تحمل الرعب إلى المحشر...
الركاب؟.. نزلوا قبل الجسر،
قبل الموج،
بعد الموج،
قبل الموت،
بعد الموت...
يسبحون كالأغصان المتكسرة
كالجذوع المهجورة
بقايا شظايا الحياة الميتة...





عقدة النعناع

عندما كنت طفلاً، كنت أسكن في منزل صغير في وسط مزرعة. كنت وقتها، أعتقد أن حدود العالم هي حدود تلك المزرعة. كان اللون الأخضر هو لوني المفضل، ليس لأنه اللون الذي يستهويني، ولكن لأنه اللون الذي كان يغلف عالمي. كبرت وخرجت من المزرعة، وأدركت أن هناك ألوانًا أخرى غير الأخضر، وأناسًا آخرين غير إخوتي. انتقلت نقلة أكبر عندما سافرت إلى أمريكا للدراسة. كنت خائفًا من تلك التجربة، كنت أسأل نفسي وأنا في الطائرة: كيف سيتقبلني الناس هناك؟ هل سيحبونني؟ هل سأجد صديقًا مثل بندر صديق طفولتي؟

وصلت مدينة لوس أنجلوس وتلك الأسئلة لا تزال تدور في رأسي. عرفت أن أمامي حلاً من اثنين: إما أن أبحث عن الطلاب السعوديين والعرب في المدينة لأبقى في بيئة أشبه بالتي عشت فيها طوال حياتي، وإما أن أواجه المخاطرة وأحاول الدخول في المجتمع الأمريكي الذي لا أعرف عنه الكثير. كان في داخلي رفض للمخاطرة، فالمزارعون بطبيعتهم لا يحبون المخاطرة، فوالدي لا يزال يزرع النعناع منذ أكثر من خمسين عامًا، ولم يفكر يومًا في تجربة شيء جديد.

قررت هذه المرة أن أختار الطريق الأصعب وأخاطر، وكأن المزارع الذي في داخلي قد تخلص من عقدة النعناع. قررت أن أفتح قلبي للعالم الجديد وأتحدث مع كل من أقابله في سكن الجامعة، بغض النظر عن لونه أو شكله أو جنسه أو دينه، قررت أن أبتسم لكل الوجوه حتى الوجوه التي لا تعرف الابتسام.

توجهت لغرفتي في سكن الجامعة بعد أن علمت أن طالباً يدعى ميتش هو من سيشاركني الغرفة. انتابني القلق عندما عرفت أنه يدرس الموسيقا، فقد كنت جاهلاً بالموسيقا أكثر من جهل جمل بتضاريس القطب الشمالي، ولكني قررت أن أتشجع وأدخل الغرفة وأنا أهز رأسي طرباً بغض النظر عن المقطوعة الموسيقية التي يدندن بها ميتش. لحسن الحظ لم يكن ميتش يعزف عندما دخلت الغرفة، ولكني كنت مصرًا على الاستمرار في هز رأسي. نظر لي ميتش نظرة سريعة خاطفة وقال: «مرحباً رفيق الغرفة».سارت الأمور بأحسن مما توقعت، وعشت مع ميتش في الغرفة نفسها طوال مرحلة اللغة، ساعدني ميتش كثيراً على تعلم نطق الكلمات الإنجليزية بشكل صحيح. في المقابل علمته كثيراً من جغرافية الشرق الأوسط وتاريخه. تطورت بيني وبينه صداقة قوية ما زالت مستمرة حتى اليوم.

عندما عدت إلى الرياض وجدت صديقي بندر ينتظرني بالمطار بابتسامته المعهودة. أحسست أن ميتش وبندر وجهان لشخص واحد، أو بالأصح وجهان لقلب واحد. أدركت وقتها أن الإنسان هو الإنسان، بغض النظر عن المكان، ولكن أحكامنا المسبقة على الآخرين هي التي ترسم شكل العلاقة التي سنعيشها معهم. صدقوني، لو استطعنا التخلص من أحكامنا المسبقة على الآخرين فسنجد أصدقاء جدداً في كل رحلة جديدة.

د.تركي العواد



الماتدورز
أبطال الموت الأنيق

من يذهب إلى الموت بأناقة مفرطة إما أن يكون «قرباناً»، أو مصارع ثيران إسبانياً متأنقاً بزي فاقع الألوان موشىً بالذهب، ومطرزاً بالحرير. عبير الفوزان تتجول بنا بين تاريخ حلبات هذه المصارعة، وتفاصيل من الحياة الإسبانية.

إن مصارعي الثيران في حلبات المصارعة هم قرابين لمتعة المشاهدة، وفي أفضل الحالات هم أبطال ناجون من الموت بأعجوبة فنهم، وبراعة أدائهم.

وبالرغم من كل الحركات المناهضة لهذه المصارعة المغرقة في الوحشية إلا أن طقسها لا يزال مستمراً حتى اليوم، وكأن الماتدورز الإسبان ينتقمون من الثيران لمقتل زميلهم في الهواية أغناثيو ميخياس في عام 1935م، والذي رثاه لوركا بواحدة من أجمل قصائده وفيها يقول:

«يا جدار إسبانيا الأبيض!
يا ثور الأسى الأسود
يا دم أغناثيو الجاف
لا..
لا أريد أن أراه
لا قدح ليمتلئ به
لا سنونو ليشربه
لا جليد ضوء ليبرده،
لا أغنية ولا غمر زنابق
لا بلور يطليه بالفضة
لا أريد أن أراه».

لقد سجل لوركا زمن ذلك المشهد الأليم شعراً حيث بدأ مرثيته بقوله: «في الخامسة عند الأصيل»، مسجلاً وصفاً دقيقاً للفاجعة التي حدثت في الخامسة عند الأصيل،



ولم يحتملها صديق يشاهد، وهو بين جموع الجماهير، صديقه الحميم يهجم عليه موت مفاجئ إثر طعنة قرن ثور أسود في حلبة المصارعة.

لقد قتل ثور الأسى الأسود أغناثيو، فانتقم لوركا لصديقه من الثور والموت بمرثية طويلة كتبها قبل عام من وفاته، وعرفت كواحدة من أكثر قصائده نضوجاً وحدّةً، كما عُدّت من روائع الشعر الإسباني المعاصر، إن لم تكن هي الأروع على الإطلاق.

إن فاجعة الموت في حلبات صراع فن البقاء في إسبانيا موجعة ومؤلمة للروح المتطلعة للانتصار. هذا حال مصارعي الثيران وحال أصدقائهم ومشاهديهم، فعندما ينتصر الثور يُخيم الموت على إشبيلية، وتحزن بيوتها لموت بطلها الذي هزمه ثور، ويبقى الانتصار والفرح نصيبين يتقاسمهما الموت والثور، قال لوركا في بكائيته:

«الموت منتصر في النهاية
والثور وحده جذلان القلب»



على اليمين يبدو أغناثيو ميخياس صديق الشاعر لوركا في إحدى المباريات، وعلى اليسار لويس ميغيل الملقب دومينغن.

أغناثيو سانشيز ميخياس ليس أشهر مصارع ثيران، لكن القدر ساقه لكي يكون صديقاً لأشهر شاعر في إسبانيا، ما خلد موته في مرثية رائعة حد الألم بتفاصيل حزنها. ولد أغناثيو عام 1891م في إشبيلية لطبيب إسباني، أراده والده أن يدرس الطب على غراره، لكنه لم يكمل تعليمه، وامتهن العمل الصحافي، وانخرط في الكتابة التي تنوعت بين الكتابة المسرحية وكتابة المقالات. فكان ضمن من يسمونهم في إسبانيا «جيل 27»، وهي مرحلة أدبية مهمة في تاريخ الأدب الإسباني. يضاف إلى ذلك كله شغفه بمصارعة الثيران منذ طفولته، والذي تشربه من بيئته. فهو ابن إشبيلية الشهيرة بإنجاب المصارعين الأكثر شهرة. ولقد كانت بدايته عام 1910م وعمره تسعة عشر عاماً، حيث عمل باندريلليروز «مساعد مصارع» مع أون موريليا في إشبيلية.

بعد نهاية المصارعة يمنح المصارع أذن الثور أو أذنيه معاً، وإذ كان أداؤه متميزاً فيمنح أذني الثور وذيله

بالرغم من قصر حياة أغناثيو إلا أنها كانت مليئة بالمحطات الكثيرة. فقد حورب من قبل معاصريه من النقاد ومنظمي مباريات المصارعة، بالرغم من براعته. في عام 1941م أصيب بكسر في فخذه من جراء طعنة قرن ثور، وبسبب قوته البدنية وشبابه تجاوز أغناثيو هذا العارض. لكن مسيرته الرياضية تأخرت وسبقه خوان بلمونتي، ولويس ميغل دومينغن. ولعل شهرة أغناثيو إضافة إلى براعته كمصارع ثيران، تعود لقصة حياته، وموته الدرامي في حلبة المصارعة بين قرني الثور.

مصارعة الثيران رياضة تراثية رائجة رغم صدور أمر ديني بمنعها عام 1567م. في أواخر القرن الثامن عشر، اتخذت مصارعة الثيران شكلها العصري والسائد. وكانت تقام كرياضة شعبية تحظى بحضور جموع غفيرة من المهتمين. وقد انتشرت حلباتها، وازداد عددها، إلى أن بلغت في إسبانيا وحدها أكثر من 400 حلبة. يبلغ قطرالحلبة 50 متراً، إضافة إلى المدرجات التي يتسع بعضها لأكثر من 20 ألف متفرج. وثمة كثير من الحلبات في البرتغال والمكسيك، وتمارس فيها هذه الرياضة التي تتسم بالعنف والوحشية، ما دفع جمعيات الرفق بالحيوان إلى مناصبة القائمين على هذه الرياضة، العداء السافر. ولم يشفع لهم تطوير سلالات الثيران المشاركة في المصارعة، بحيث أصبحت الثيران أثقل وزناً، وأكثر عنفاً وقوة، مقارنة بالمصارع الرشيق الأنيق. فالثور يبلغ وزنه 450 كيلو غراماً أو يزيد. وهو من فصيلة تسمى البرابو. ويربى في مزارع إلى أن يبلغ من العمر أربع سنوات. بعدها يُدفع به إلى الحلبة، ليواجه مصارعاً رشيق القد، أنيق الزي، فينشب الصراع الأخاذ بين وعي الإنسان وهمجية الثور، أو بين همجيتين إنسانية وحيوانية!

الماتادور دوتوروس

«الماتادور» هو لقب المصارع الرئيس في حلبة المصارعة، ويمنح هذا اللقب وسط احتفال بهيج، ومن حقه بعد ذلك أن يرتدي زي المصارع وهو بدلة تسمى «تراجي دو لوسيز» فاقعة الألوان، ومشغولة بالتطريز والخيوط الذهبية، ولمصارع

الثيران مساعدون يطلق عليهم لقب «باندريلليروز»، يدخلون الحلبة قبله، ومهمتهم إثارة الثور ليهاجم.

بعد إثارة الثور، يدخل المصارع الحلبة، ويواصل إثارة الثور بردائه الأحمر، الذي هو في الأصل معطف المصارع بوجهه الآخر، ليكون هو الأقرب من الثور الهائج، والأخطر موقعاً. أما مساعدو المصارع فتنحصر مهامهم في الإثارة والطعن بالأنصال الحادة في رقبة الثور، دون محاولة قتله، وهذه العملية تزيد من شراسة الثور التي يواجهها الماتادور وحده، فإما أن يقتل الثور في نهاية الأمر بسيفه كفارس، وأما أن يقتله الثور بقرنه.

بغض النظر عن الوحشية التي تمارس ضد الثور، إلا أن المصارعة فيها من الإدهاش ما يكتم الأنفاس، فهي تمثل الصراع بين رشاقة أداء المصارع، ومقدار الخطر الذي يعرض نفسه له، وبين عنف الثور الهائج. إن هذه المصارعة تُعمِّق الإحساس بالحياة، وتتحول فيها لذة المغامرة إلى جنون المقامرة، فالموت، دائماً، قيد أنملة من الماتادور.بعد نهاية المصارعة يُمنح المصارع أذن الثور، أو أذنيه معاً.. أما إذا كان الأداء مميزاً، فيُمنح أذني الثور وذيله!

مصارعو الثيران في إسبانيا هم بمنزلة أبطال قوميين. فهم يمتازون بالرشاقة والأناقة والنبل. فأشهر المصارعين هم من مدينة إشبيلية الإسبانية، التي ما زالت حتى اليوم تنجب مصارعين يحفظ لهم التاريخ الرياضي الإسباني حقهم في سجلاته. وعلى الرغم من كل الدعوات المناهضة لهذه المصارعة من داخل إسبانيا أو خارجها، إلا أن ملكة إسبانيا ما زالت تحضر بعض هذه المهرجانات التي تمثل جزءاً من التراث الإسباني، وتمثل عامل جذب للسياح، إذ تبدأ المصارعات في الحلبات الإسبانية من شهر مارس وتنتهي بنهاية شهر أكتوبر من كل عام.

عندما تُذكر سير أشهر مصارعي الثيران في إسبانيا، يتجاهل مناهضو هذه الرياضة التراثية الجانب الإنساني والثقافي لهؤلاء، فيتبادر إلى الأذهان أنهم من سلالة همجية يمتهنون الجزارة ويعشقون الوحشية، و في أفضل ظروفهم هم رياضيون محترفون. لكن مصارعي الثيران الأشهر في تاريخ الحلبات الإسبانية، ليسوا كذلك، فلهم حياتهم الأخرى، ومهنهم المختلفة التي ربما كانت بعيدة كل البعد عن الدم ومصارعة حيوان مثار. فهم أصدقاء للشعراء والأدباء، ومحبو الفن والفنانين.

صديق أرنست همنجواي

بلمونتي الذي يلف الثور حول خصره كالحزام. بارع في المراوغة، أستاذ في فن المخاتلة.أعظم مصارع ثيران مر على إسبانيا، ولقد ولد في تريانا، إحدى مناطق إشبيلية، عام 1892م.

التحق بمصارعة الثيران باكراً، وقام مع مجموعة من مصارعي الثيران الصغار بجولة حول إسبانيا. وقد صرع أول ثور قتلاً، وهو في الثامنة عشرة من عمره.

ولعل تفوق بلمونتي وشهرته يرجعان إلى أنه أحدث في بداية مراهقته أسلوباً جديداً وجريئاً غيّر فيه تقنيات مصارعة الثيران. فقد كان يقترب من الثور ويبقى على بُعد بوصة واحدة فقط، وهذا ما لم يتجرأ عليه مصارع من قبل، إذ كانوا يبقون بعيدين متجنبين قرون الثيران.

كان على منافسة مع مصارع آخر شهير، هو خوسيليتو الذي قضى نحبه جراء جروح مميتة في مصارعة أحد الثيران، وقد كان هذا الأخير صديقاً مقرباً له، رغم تنافسهما في هذه الرياضة. في عام 1919م، وصلت مشاركات بلمونتي في مباريات مصارعة الثيران إلى 109 مباريات، وهو رقم لم يصل إليه أي مصارع آخر على مدى عقود.
بعد اعتزاله، نشر سيرته الذاتية التي كتبها أحد الصحافيين بعنوان: «خوان بلمونتي.. قاتل الثيران». ولعل من الأشياء المدهشة في حياته أنه كان صديقاً مقرباً من الروائي الأمريكي الشهير إرنست همنغواي.

إذ ذكره الأخير في روايتين من رواياته، وهما «الشمس تشرق أيضاً» و«موت بعد الظهيرة». لقد وصفه همنجواي في هذه الرواية الأخيرة «بأنه يلف الثورَ حول خصره كالحزام». وبسبب مصارعة الثيران، وما نتج عنها من جروح ومشكلات صحية، أوصاه الطبيب بالحذر، وبأنه لم يعد بإمكانه الدخول لحلبات الصراع! وإزاء هذا المنع قرر بلمونتي أنه مستعد للموت! فاستدعى فرسه الأثيرة ومارس في تلك الليلة كل ما هو ممنوع عليه، ثم أطلق على نفسه النار، ومات في الثامن من أبريل 1962م. وبهذا تطوى صفحة كتبت بدم الثيران في ميدان المنازلة، عن أشهر «ماتادور» عرفته إسبانيا والعالم.

دفن بلمونتي في إشبيلية التي حزنت عليه كثيراً، وبعد موته بثلاثين عاماً، أي في عام 1995م، أُنتج عنه فلم عن حياته اسمه «بلمونتي».

دومينغن.. الطفل المصارع

لويس ميغيل غونزاليس لوكاس، يُعدُّ أسطورة في مصارعة الثيران، ولد عام 1926م في إسبانيا، وعاصر مصارعي الثيران خوان بلمونتي وأغناثيو ميخياس. ولقد سبقه لهذا

المجال، والده دومينغن، الذي يُعدُّ مصارعاً أسطورياً، لذا اتخذ لويس اسم والده لكسب شعبيته.

من سن الحادية عشرة، بدأ دومينغن دخول الحلبات والاشتراك في مصارعة الثيران، ولقد حصد دومينغن شهرة واسعة في الأربعينيات، حتى الخمسينيات من القرن الماضي، حتى أصبح خلالها أسطورة كوالده، فقد غزا حلبات إسبانيا والبرتغال وكولومبيا.

كما كانت للمصارع لويس ميغيل دومينغن منافسة شديدة حول الأفضل في الحلبة، مع قريبه الماتادور أنطونيو أوردونيز، وأرَّخ لهذه المنافسة الروائي الأمريكي إرنست همنغواي في كتابه «الصيف الخطير» الذي كتبه خصيصاً لهذه المنافسة، وكان آخر ما كتبه همنغواي قبيل انتحاره عام 1961م.

مثلما كان لوركا صديقاً لأغناثيو، وهمنغواي صديقاً لبلمونتي، فإن الفنان بابلو بيكاسو، الذي عشق مصارعة الثيران وصورها في العديد من لوحاته، كان صديقاً حميماً لدومينغن.. ولقد تزوج دومينغن من الممثلة الإيطالية لوسيا بوس، وأنجب منها ثلاثة أطفال، من ضمنهم المغني الشهير ميغيل بوس، المولود في بنما.

في عام 1971م عاد إلى حلبة المصارعة، بعد أن هجرها عقدين من الزمن، وهو في الرابعة والأربعين، لكنه بعدها



الماتادور بلمونتي مع الروائي الأمريكي همنجواي في كواليس حلبات المصارعة.

تقاعد سريعاً في عام 1973م، وانخرط في خدمة المجتمع، ثم توفي عام 1996م إثر أزمة قلبية، وهو في التاسعة والستين من العمر، ودفن في سان أنريك دي غوديارو، بعيداً عن حلبات المصارعة وقرون الثيران!



يلف الثور حول خصره.. أستاذ المخاتلة بلمونتي.

الأصدقاء المتخيلون..

الوهم الجميل



بعض الأطفال لديهم سلوك غريب يظهر في الحديث مع شخصيات غير مرئية، فيتساءل الأهل بذعر.. هل طفلهم ممسوس أم مريض نفسياً؟!

في طفولة بعضهم صديق مُتَخيل يركن إليه، يحادثه ويبثه همومه وشكواه. يختلق له اسماً وشكلاً من وحي أفكاره وبنات حيله. لا يراه أحد من الناس إلا هو، فهذا الصديق مرة يكون تحت السرير، ومرة في خزانة الملابس، أو داخل صندوق الألعاب. يأتي متى ما استدعاه، طفل في نفسه شيء من شغف الألفة ومحبة الآخر. فيحادثه ويلعب معه، وربما اختلف معه وغضب منه.

لماذا يلجأ هذا الطفل إلى خياله في البحث عن أصدقاء وهميين؟! هل يرجع السبب لعدم حصوله على أصدقاء يشبهون ميوله في عالمه الواقعي؟ أم هو هروب من الأسرة والإخوة؟! الصديق الوهمي: هل هو ظاهرة مرضية؟ أم طبيعية؟ وهل هذا السلوك يتفاقم مع مرور الوقت؟ أم يضمحل؟! أسئلة كثيرة ولحوحة يطرحها الأهل عندما يواجهون هذا السلوك الغريب والمريب من قِبل أطفالهم.

تناولت بعض الأفلام السينمائية ظاهرة الصديق الوهمي بحبكات درامية مختلفة، إذ تم توظيف هذا الصديق المتخيّل لإثارة الرعب في نفس المشاهد حيناً، أو لإثارة تساؤلاته حيناً آخر. لقد استغل صُناع الأفلام هذه الظاهرة النفسية في الترويج لأعمالهم الفنية، فظهرت أفلام حول هذا الصديق المُتخيل مثل فلم «الحاسة السادسة» الذي تدور أحداثه حول طفل في الثامنة من العمر اسمه كول، تلحظ عليه والدته أنه يتحدث مع أشخاص غير مرئيين. في بادئ الأمر، لم تلق بالاً، لاعتقادها أن طفلها يستحضر أصدقاءه المتخيلين. لكن الحقيقية التي أرادها صُناع الإثارة غير ذلك. كذلك تطرق فلم الغماية «هايد آند سيك» إلى هذه الظاهرة بمنظور مرعب، إذ تدور أحداثه حول طبيب نفسي، تعيش معه ابنته الصغيرة إميلي التي تقوم بينها وبين صديق مُتخيل اسمه شارلي علاقة صداقة، ما لبث أن تكشفت معها أشياء غريبة. إن الرؤية الفنية التي تخضع للإثارة جعلت من شارلي وحشاً بشرياً، مثلما جعلت من أصدقاء كول في «الحاسة السادسة» موتى! لكن ما يؤسف له أن الإضاءة حول هذه الظاهرة في الأفلام جاءت في سياق صناعة الإثارة فقط، وذلك بإضفاء أجواء مثيرة على المشاهد من خلال الأطفال الذين يلجؤون، عادة، إلى خيالهم لاستحضار أصدقائهم.

> **تناولت بعض الأفلام السينمائية ظاهرة الصديق المتخيل بحبكات درامية مختلفة، إذ تم توظيفه لإثارة الرعب والتساؤلات**

الأصدقاء المتخيلون في الواقع!

بعيداً عن السينما وإثارتها، نجد أن الأصدقاء المتخيلين، حسبما جاء في الدراسات الحديثة التي قام بها متخصصون في مجال صحة الأطفال النفسية، هم ظاهرة منتشرة بين الأطفال من سن الثانية والنصف حتى سن السادسة. وخلصت دراسات بريطانية شملت أكثر من ألف منزل، إلى أن بين كل خمسة أطفال يوجد طفل لديه صديق متخيل. كما أن نسبة الفتيات اللاتي لديهن صديقات متخيلات تزيد على نسبة الفتيان، إذ بلغت نسبتهن 62٪، بينما الفتيان يشكلون 38٪. ويرى الاختصاصيون أن هذه الظاهرة لا تستدعي الخوف، فهي تنمي مهارات الحوار، واللغة، ورسم السيناريوهات. وبناء على ذلك، وبحسب دراسة أسترالية بريطانية مشتركة بين جامعتي مانشستر في المملكة المتحدة وجامعة لاتروب الأسترالية في عام 2009م، أثبتت أن الأطفال الذين لديهم أصدقاء متخيلون هم أكثر إبداعاً ومقدرة على الإقناع ومجادلة البالغين من غيرهم. فهم يقودون الوقت الذي يقضونه مع أصدقائهم المتخيلين ويديرون دفة الحوار كما يودون هم أنفسهم، لا كما يود الأصدقاء المتخيلون. الجدير بالذكر أن هذه الظاهرة، كما يُرجع الاختصاصيون، تبدأ بالزوال بعد سن السادسة، وربما تستمر حتى العاشرة من العمر، لعدم وجود صديق حقيقي يقوم مقام هذا الصديق الوهمي الذي شكّله الطفل كما يحب.

صناعة الصديق المتخيل

إن هيئات المتخيلين الذين يتخذهم الأطفال أصدقاءً لهم ربما كانت من ابتكاراتهم الخاصة، أو ربما كانت شخصيات مغرقة في الغرابة من ابتكار صُناع أفلام الكرتون، فيتخذها الطفل صديقة له لغرابتها أو للونها الجذاب أو صوتها الذي يثير حواسه وسمعه. مع ازدياد عدد القنوات الفضائية المتخصصة للأطفال، ومنافسة شركات الإنتاج التي تبتكر شخصيات كرتونية مختلفة، أصبحت غرف الأطفال مرتعاً خصباً للأصدقاء المتخيلين مثل سبونج بوب، و«منزل فوستر للأصدقاء المتخيلين» وهو مسلسل مدبلج يعرض في بعض القنوات العربية، ويناقش هذه الظاهرة ببعد مناسب للأطفال. يجتمع كل الأصدقاء الخياليين من مختلف أنحاء العالم في هذا المنزل، لكنهم يتحولون إلى أصدقاء حقيقيين عندما يبدأ الطفل يتخيلهم، ويتخيل سلوكهم. إن هذا المسلسل الماتع يناقش الظاهرة بطريقة تحمل من المفارقة ما يجعلنا نتساءل: كيف أن الصديق الخيالي يحتاج، أيضاً، إلى صديق حقيقي. لذا كان على الأهل أن يناقشوا مع طفلهم صديقه المتخيل، كأن يسألونه: كيف شكله؟ ماذا يقول له؟ عما يتحدث معه؟ لأن



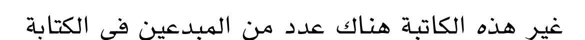


سبونج بوب، ومنزل فوستر للأصدقاء المتخيلين، جميعها شخصيات كرتونية أذكت ملكة الخيال لدى الأطفال.

وجود هذا الصديق غير المرئي ليس هلوسة أو جنوناً، إنما هو مؤشر لبداية ظهور ملكة الخيال لدى الطفل.

حبيب مُتخيل

كاتبة قصص قصيرة لديها تجربة مع الصديق المتُخيل، تقول: «مثلما لبعض الأطفال أصدقاء متخيلون، كذلك كان لي في طفولتي حبيب وصديق خيالي من كرتون. لم يكن هذا الصديق من بنات أفكاري، بل كان من صنع أفكار الروائي الاسكتلندي روبرت لويس ستيفنسون، صاحب الرواية الشهيرة «جزيرة الكنز» التي تحوَّلت إلى فلم كرتوني، وبطلها القرصان سيلفر ذو القدم الواحدة! كبرت وأنا أحب سيلفر وأعشق صوته العميق، وشعره الأصفر وأكتافه العريضة، وذكاءه الفذ، وقوته التي لا تقهر. فلقد كان فارساً لأحلام يقظتي. هذا الحبيب جعلني أتقصى المعارف، وأبحث عن كل من له علاقة بهذه الشخصية بدءاً من المؤلف الإنجليزي وانتهاءً بصاحب الصوت الذي دبلج صوته في الرسوم المتحركة. قرأت الرواية العالمية الأصلية «جزيرة الكنز»، وبحثت عن سامي كلارك المغني اللبناني صاحب الصوت، وعرفت أن الرسوم لم تكن إلا من ابتكار شركة يابانية متخصصة في الرسوم المتحركة. اكتشفت أن صديقي المتخيل «سيلفر» لم يكن إلا نتاج هجين ما بين عربي وإنجليزي وياباني. ولا وجود له في الواقع مطلقاً. كانت هذه التجربة، بعد ذلك، مفيدة لي في الكتابة، وفي صنع شخصيات مقنعة في قصصي القصيرة. أما في حياتي، فلقد توصلت إلى أن الأشياء الجميلة ليست بالضرورة حقيقية!».



غير هذه الكاتبة هناك عدد من المبدعين في الكتابة



سيلفر في جزيرة الكنز.

والتمثيل والإخراج يذكرون تجاربهم مع أصدقائهم المتخيلين في الطفولة دون حرج، أو تردد، لأن أصدقاءهم، على حد قولهم، أضافوا بهجة في حياتهم وأكملوا النقص الذي كانوا يعانونه، سواء كان في عدم وجود صديق يشبههم، أو في عدم وجود صديق يقف على النقيض من شخصياتهم ويكملهم، كأن يكون الطفل جباناً وصديقه المتخيل قوياً، أو يكون قصيراً وصديقه المتخيل يكون طويلاً.

مع اطلاعك على هذه الظاهرة وقراءة كل الدراسات التي أُجريت بشأنها ربما عرفت شخصية صديقك من أصدقائه المتخيلين في طفولته، ومن براعته في الحوار والتواصل والإبداع. ربما أيقنت أن في طفولته صديقاً من نسج خياله. لذا عندما يبدأ أطفالكم بالحديث مع شخص غير مرئي فهذا دليل على أن هناك شخصية أخرى قد التحقت بالعائلة.. شخصية لا خوف منها لأنها مؤقتة.



نيويورك التفاحة الكبرى

مدينة المفارقات والأحلام التي لها أكثر من صورة وأكثر من وجه. يجول بنا **عبدالعزيز العريفي** في شوارعها وأحيائها. كما تتناول **عبير الفوزان** جانباً من حياة الشعراء الذين مرّوا عليها. إنها مدينة لا تشبه إلا نفسها، تسحر العابر، وتملأ الدنيا، وتشغل الناس وتثير شهية الشعراء. لصحافتها نصيب تسجله **سارة السديري** من خلال نيويورك تايمز التي تصنع الحدث.

كم من فلم حمل عنوانه اسم نيويورك؟ عشاق الأفلام الهوليوودية سيتمكنون بالتأكيد من أن يحصوا عدداً غير قليل من الأفلام القديمة والحديثة، فكيف إذا انضمت إلى القائمة سلسلة الأفلام التي تدور أحداثها في المدينة التي تحتضن مقر الأمم المتحدة؟ هناك بالتأكيد عشرات الأفلام، وربما تحتل المدينة التي شكّلت جاذبية طاغية لصناع الأفلام في هوليوود رقماً قياسياً على هذا الصعيد. فنيويورك كانت عرضة للدمار الشامل مرات عديدة من قبل مخلوقات فضائية كما في فلم «الإندبندس دي» و«إسكيب فروم نيويورك»، وكانت أحياناً أخرى ساحة لأحداث غريبة، كما حدث عندما تسلق الغوريلا العملاق كينج كونج أطول مبنى فيها، كما تحولت بناطحات سحابها إلى قاع البحر في فلم «واتر ورلد»، وفيها فقد ريتشارد غير حبيبته المصابة بمرض عضال إلى الأبد في فلم «ظريف في نيويورك».

لكن ما سبب وجود نيويورك في كل هذه الأفلام؟ هل لكونها عاصمة المال والأعمال؟ أم لأنها من أكثر المدن الأمريكية كثافة من حيث عدد السكان؟

لا هذا ولا ذاك، فنيويورك المدينة الكونية التي أبهرت العالم لا يمكن اختزالها بإجابة واحدة.. هنا جولة في نطاق المدينة تقودنا ربما إلى بعض الإجابات، وإلى بعض المفارقات والغرائب.

أكثر من صورة.. أكثر من وجه

لنيويورك أكثر من صورة وأكثر من وجه، فهي التفاحة الكبرى، عاصمة المال والأعمال وناطحات السحاب، تتوسد بليلها أنغام الجاز والبلوز، وتلتحف بأضواء النيون الملونة. هي مدينة الأغنياء كما هي مأوى الفقراء، وهي مدينة التسوق، كما هي مدينة الفنون والمتاحف، وهي مدينة النظام، كما هي مدينة الفوضى الخلاقة. هذا التضاد الذي يلف المدينة جعل من نيويورك عالماً بذاته متعدد الأطياف والأجناس، يضرب بجذوره أعماق التاريخ الحديث. أنماط حياة متعددة تعيش جميعها في نطاق واحد أشبه بالموزاييك الذي بتضاداته يغني المشهد ويثري الصورة. في نيويورك حياة اجتماعية، وحيوات فردية، وعلاقات اجتماعية واقتصادية وثقافية متشابكة ومعقدة، ولعل هذا من أهم الأسباب التي تستقطب المخرجين والكتاب إلى مدينة الفن الساطعة. لكن ليس هذا كل ما يميز نيويورك ويجعل منها مدينة العالم، فنيويورك قادرة دائماً على إثارة الدهشة وإبراز روعتها.

للتاريخ حكاية

صحيح أن نيويورك تنتمي للعالم الجديد، بيد أنها في فترة وجيزة من عمر الزمن خلقت لنفسها تاريخاً وعراقة ونهضة عمرانية وثقافية. وطبقاً لوثائق أوروبية فإن جوفاني داميرازانو، قائد السفينة الفرنسية «لادوفاين» استكشف المنطقة عام 1524م وسماها «نيوفيل انغوليم» تكريماً لملك فرنسا الذي كان حاكماً لمقاطعة انغوليم التابعة لفرنسا أيضاً.

ثم بدأ الاستيطان الأوروبي وإجلاء الهنود الحمر «لنيب» في أوائل القرن السابع عشر، وسميت المنطقة نيوامستردام في بداية الاستعمار الهولندي لها. شهدت المنطقة معارك كثيرة في الحرب الأمريكية ضد الاستعمار الإنجليزي، ثم تحولت إلى عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية في بداية حكم جورج واشنطن عام 1789م لمدة عام تقريباً. وبحكم أن نيويورك تعد المنفذ الرئيس لدخول الكثير من المهاجرين، أسهم ذلك، إلى حد كبير، في بلورة ثقافاتها واقتصادها، وجعلها واحدة من أهم المناطق الحضرية في الولايات المتحدة والعالم قاطبة.





جسر بروكلين الذي يُعدُّ من أقدم الجسور المعلقة في الولايات المتحدة، ويربط حي بروكلين بحي مانهاتن أنجز عام 1883م.

كانت نيويورك في السابق عبارة عن عدد من المدن الصغيرة، تبلورت في النهاية إلى مدينة كبرى تتبع ولاية نيويورك المعروفة، أيضاً، بالامباير ستيت. وغدت المدينة منذ منتصف القرن العشرين مركز العالم الصناعي والتجاري والإعلامي، وليس غريباً، والحالة هذه، أن تحتضن أضخم الجسور، وأطول المباني، وأكبر الموانئ والمطارات وسكك الحديد في العالم أجمع.

من مدينة البحارة إلى عاصمة المال

البحارة الهولنديون هم أول من أسس نيويورك، وهم من قام ببناء حائط طويل لحمايتهم من هجمات الإنجليز، تحوَّل، فيما بعد، إلى شارع وول ستريت الشهير.

وتُعد نيويورك مركزاً للفنون والصناعات المهمة، والتقنيات العالية، والزراعة والتجارة العالمية، والدعاية والإعلام، ودور النشر والصحافة، وأشهر المجلات والصحف كصحيفة النيويورك تايمز، ومجلة النيويوركر. وتعتلي نيويورك عرش الإعلام وأدواته الحديثة، إذ تنتج بمفردها أكثر من سدس الإنتاج الأمريكي من الطباعة والنشر، وفيها أكثر من ستين قناة تلفازية وإذاعية مثل قناتي إن بي سي، وسي إن إن، والعديد من دور الأوبرا، وقاعات الموسيقا والمسرح والسينما، فضلاً عن الاستادات الرياضية، وأكبر الشركات الصناعية ذات التأثير العالمي، كشركة جنرال إلكترك، وشركة كرايسلر، وأبل، كما تضم أكبر تجمع تجاري في العالم.

وبفضل مؤشري داوجونز الصناعي وناسداك باتت نيويورك المرجع الأول للبورصة في العالم، إذ تملك أكثر من 21٪ من السوق البنكية، وتضم أكثر من 445 بنكاً، أشهرها تشيس منهاتن، وسيتي جروب، فضلاً عن وجود أغلب شركات التأمين العالمية بها.

بعد الحرب العالمية الثانية عادت نيويورك قوية متماسكة لتقود العالم اقتصادياً عن طريق شارع وول ستريت المالي، وسياسياً عن طريق الأمم المتحدة.

معالم تثير الدهشة

يكاد كل ميل مربع في نيويورك يدعوك للسياحة ورؤية شيء جديد. في عام 1886م أهدت فرنسا تمثال الحرية لولاية نيويورك كإثبات لحسن النوايا ولتعزيز الأواصر الودية بين البلدين، حيث وضع على منصة وسط جزيرة صغيرة يمكن الوصول إليها عن طريق القارب، وسرعان ما تحوَّل إلى نقطة جذب سياحي يتقاطر السياح لمشاهدته وصعود سلالمه الداخلية حتى قمة رأسه. كما تقع في ولاية نيويورك شلالات نياجرا التي تتشارك بها مع كندا، وتُعد من أكبر شلالات العالم.



وول ستريت شارع المال والأعمال في نيويورك.

في نيويورك، أيضاً، قاعة مشاهير البيسبول في كويرزتاون، وتنتشر فيها أكبر المتاحف العالمية كمتحف المتروبلتن ومتحف الشموع. وتتوسط نيويورك حديقة السنترال بارك التي تُعدُّ أكبر حديقة صناعية في العالم، أنشئت عام 1878م، وتُعدُّ المتنفس الطبيعي لأهالي المدينة. وبنيويورك أشهر الشوارع العالمية، كالشارع الخامس وبرودوي وفورتي سكند، فضلاً عن وول ستريت. وسيجد محبو التسوق ضالتهم في أكبر مجمعات التسوق في العالم، مثل مجمع ميسسز ومجمع منهاتن وكولمبس والآوت لت.

جاليات.. وأحياء

وتشتهر نيويورك بأحياء الجاليات غير الأمريكية كالحي الصيني والحي الإيطالي، وحدائق الحيوان كحديقة البرونكس التي تُعد أكبر حديقة حيوان داخلية في أمريكا. كما أن في نيويورك ساحات كثيرة أشهرها على الإطلاق ساحة التايمز سكوير التي تضم مجموعة كبيرة من المطاعم الأمريكية والعربية والصينية والإيطالية مثل بيكو وشاريسكاريا وأديسون كيف وروبي فووز. وتتألق المدينة بالليل بالأضواء حتى لتكاد تحيل أشهر شوارعها إلى نهار، وتنتشر المسارح فيها خصوصاً في شارع البرودوي، وتتنوع أطروحات المسرحيات بها من دراما تراجيدية وكلاسيكية إلى كوميدية وخيالية، كما يمكن للسائح حضور عروض تلفازية مشهورة إذا ما قام بالتسجيل مبكراً، مثل برنامج ليت شو مع ديفيد لترمان، وديلي شو مع جون ستيوارت.

السود يلوِّنون وجه المدينة

تنقسم المدينة إلى خمسة أقسام، أشهرها جزيرة منهاتن حيث أكبر تجمع لناطحات السحاب في العالم، ومهوى أفئدة الأثرياء والمشاهير، ويبلغ طول منهاتن 22 كيلومتراً وعرضها 3 كيلومترات، يحيط بها نهرا إيست وهدسون والمحيط الأطلسي. ومن منهاتن إلى بروكلين اللتين يربطهما أقدم جسر معلّق في العالم وقد تم بناؤه في عام 1883م.

ومن الأحياء المشهورة في نيويورك حي هارلم الذي تستوطنه الغالبية العظمى من الأمريكيين السود، إذ عندما بدأ بتطبيق قانون الحد من الهجرة الوافدة في عشرينيات القرن المنصرم، تقاطر السود القادمون من الجنوب الأمريكي بأعداد كبيرة للعمل في الصناعة والزراعة، وتضاعف بذلك عدد سكان المدينة ليصل إلى أكثر من خمسة ملايين نسمة، ثم إلى ثمانية ملايين أو نحوها في وقتنا الحاضر.

وقد كان للسود دور كبير وإسهامات كبيرة في بلورة الثقافة الأدبية والفنية والاجتماعية المتميزة في هذه المدينة من العالم، ومنهم شخصيات كان لها بالغ الأثر في مجريات الأحداث العالمية.



الشاعر والت ويتمان

نيويورك بين الرؤية والواقع

هناك مدن لا تشبه إلا نفسها، تسحر العابر، وتملأ الدنيا، وتشغل الناس، وتثير شهية الشعراء للقول والكتابة..!

والت ويتمان، لوركا، أدونيس، سعدي يوسف، سركون بولص.. شعراء عبروا مسترقين السمع والبصر تجاه الحياة المعاشة في بروكلين أو في شوارع مانهاتن، أو الحي الصيني، أو اليونيون سكوير، أو هارلم، منهم من مرَّ قرب برجي التجارة العالميين قبل الحادي عشر من سبتمبر. شعراء مكنتهم لغتهم الشعرية أن يدونوا أخبار نيويورك ويستودعوا أيامها بين ثنايا قصيدهم، ويمنحوها نكهة خاصة.

سعدي يوسف يمنحك الفرصة أن تتجول معه في مدينة نيويورك وأنت تقرأ ديوانه «قصائد نيويورك» متلمساً تفاصيل الحياة فيها

نيويورك عاصمة المال، وملتقى التجارب الكبرى في حياة الشعراء، بدءاً من والت ويتمان الذي ولد في لونغ آيلند في مدينة نيويورك، ويعد شاعرها «الأشيب الطيب»، مروراً بالشاعر الفرنسي بول كلودل الذي قال عن نيويورك في عام 1838م: «إن نيويورك بالنسبة للغريب الذي يزورها جاهلاً فيها كل شيء، ودواعي كل شيء، حتماً ستكون أيامه الأولى فيها مذهلة». لكن جبران خليل جبران وجد في نيويورك ملاذه الأخير بعد محطات العناء والهجرة. نيويورك، محطة كانت أو ملاذاً أو نافذة ضوء، في كل حالاتها آسرة، وعالم آخر يختلف فيه الناس والشعراء. هي مدينة تمشي الهوينى في ذاكرة الشعراء بتفاصيل الحياة المعاشة الرائعة، أو البشعة على حد سواء. لفجرها من القصيد نصيب، ولأرقام المال، وللزنوج في هارلم، ولليلها الذي لا ينام!

يقول الشاعر الإسباني لوركا عن فجرها، حيث سكن نيويورك في عام 1929م حتى 1930م:

«لفجر نيويورك
أربعة أعمدة من طين
وزوبعة حمائم سوداء تتمرغ في مياه آسنة.
فجر نيويورك يئن
عند السلالم العريضة
باحثاً بين الرفوف
عن ناردين الفزع المرسوم.
يطلع فجر نيويورك ولا من يتقبله بفمه!»

لوركا الذي أعجب بالشاعر النيويوركي الأشيب والت ويتمان «1819-1892م» وأفرد له قصيدة «إلى ويتمان»، لم تجد نيويورك في قلبه شغفاً ولا حباً. فهو الفتى الأندلسي رقيق القلب، يقول عن أهل نيويورك:

«يعون، لحظة ميلادهم
أنه لا جنة ولا حب طبيعي
يعرفون أنهم ماضون إلى وحل الأرقام والقوانين»

وبما أن شاعره الأثير ويتمان نيويوركي حتى النخاع، ويملك ما يملكه الشعراء من رؤية، فلقد خص أولئك الشعراء القادمين بقصيدة لهم في ديوانه «أوراق العشب».. يقول:

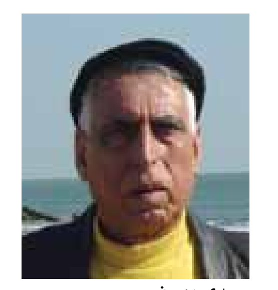
أيها الشعراء الآتون
أيها الخطباء والمغنون الآتون
ليس هذا هو اليوم الذي يبررني
أو الذي يجيب عما أريد.
ولكنكم، أنتم
النوع الجديد، الوطني، الرياضي، القاريّ
الأعظم مما عرف قبلاً
انهضوا
فعليكم أنتم أن تبرروني
إني لم أكتب سوى كلمة مختارة
أو كلمتين مختارتين المستقبل.
إنني لم أتقدم لحظة، إلا مسرعاً إلى العتمة
إنني الرجل الذي يلقي
مندفعاً إلى الأمام دون توقف -
نظرة عجلى عليكم
ثم يشيح بوجهه
تاركاً لكم أن تجلوه وتحددوه
متوقعاً الأشياء كلها منكم.
«ترجمة سعدي يوسف»

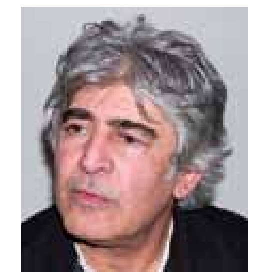
لوركا

أدونيس

الشعراء الآتون كتبوا كلاماً اختاروه واختاره المستقبل معهم. فما بين سعدي يوسف وأدونيس تتعدد الخيارات، فسعدي يوسف يمنحك الفرصة في أن تتجول معه في مدينة نيويورك، وأنت تقرأ ديوانه «قصائد نيويورك 2008م» الذي يرصد فيه الحياة المعاشة في تلك المدينة الزاخرة بالهويات والثقافات. في قصائده، تتسكع معه في هارلم، أو تدخل معه إلى مكان يُعزف فيه الجاز، تذهب إلى الحي الصيني، وجامعة نيويورك، وتعبر جسر بروكلين، وتعيش صباحاً نيويوركياً بامتياز، يقول سعدي يوسف:

«قد تبدو كل المدن، الصبح، جميلة
ذات شوارع لامعة
ومتاجر لم تفتح أبواب مصائدها، بعد
ومقاه قد فُتحت للتو
وسيارات ماثلة كتماثيل من المعدن في قاعة عرض
قد تبدو كل المدن، الصبح، جميلة
حتى لكأن التاريخ يغادرها عند الفجر
لكي تأتينا
بيضاء
مباغتة
خارجة من أسوار محارتها
خارجة عما اعتدنا أن نكتبه


سعدي يوسف


سركون بولص

هل تبدو نيويورك كذلك؟
قد تبدو
لكن هدير الطيران الحربي
يخطف لحظة غفلتنا
وبراءتنا
ويقول مديداً: لاااااااااااااا».

أما الشاعر أدونيس فقد سبق سعدي يوسف لمثل هذه القراءة الحياتية في مدينة نيويورك عام 1971م، وتفوق عليه برؤية الشعراء وحدسهم، حيث يقول في قصيدته «قبر من أجل نيويورك»

«تفتتي يا تماثيل الحرية
أيتها المسامير المغروسة في الصدور
بحكمة تقلد حكمة الورد
الرياح تهب ثانية من الشرق
تقتلع الخيام وناطحات السحاب».

لا شك أن انهيار برجي التجارة العالميين كان أهم حدث مرَّ في تاريخ نيويورك الحديث، فكان الحادي عشر من سبتمبر تاريخاً لا ينسى، أرَّخه الشعراء في قصائدهم. يقول الشاعر سركون بولص في حوار مع رسام في نيويورك حول هذا الحدث:

«نهايتكَ أنتَ
من يختارها» قالَ صديقي الرسّام.
«انظر إلى هذه المدينة. يشترون الموتَ بخساً، في
كل دقيقة، ويبيعونَهُ في البورصة
بأعلى الأسعار».
كان واقفاً على حافة المتاهة
التي تنعكسُ نازلة على سلاسل مصعد واسع للحمولة
سُفُلاً باثني عشر طابقاً إلى
مرآب العمارة.
لكل شيء حدّ، إذا تجاوزتَهُ، انطلقت عاصفة الأخطاء.
إنها حاشية على صفحة الحاضر
خطوتها مهيّأةٌ لتبقى
حَفراً واضحاً في الحجر.
أرى إصبُعَ رودان في كلّ هذا.
أراهُ واقفاً في بوّابة الجحيم، يشيرُ إلى
هوّة ستنطلق منها وحوشُ المستقبل، هناكَ حيثُ
انهارَ بُرجان، وجُنّتْ أمريكا».

إن نيويورك مدينة المال والأعمال، لم تكن في وجدان الشعراء جنة، فلم يتغزلوا بها، ولم يذكروا من محاسنها إلا شاعرها الأشيب الطيب، الذي وقف عنده جميع الشعراء إجلالاً أكبر من إجلالهم لمدينة تتكلم بلغة الأرقام.

نيويورك تايمز.. صناعة الحدث


The New York Times
OBAMA
RACIAL BARRIER FALLS IN DECISIVE VICTORY

من أشهر الصحف الأمريكية والعالمية. تأسست عام 1851م على يد الصحافي السياسي هنري جارفيس ريموند. تتميز عالميّاً لشعبية موقعها الإلكتروني ولحيازتها الرقم القياسي من «جوائز بوليتزر» من بين المنظمات الإخبارية العالمية. تستمد الصحيفة حضورها من قوة المدينة التي أنشئت فيها ولا تزال تُنشر فيها إلى يومنا هذا. يتميز شعار الصحيفة بالبساطة: «جميع الأخبار تصلح للنشر»، إلا أنها مع ذلك تحافظ على ثبات فرادتها من خلال عمق المعالجة والتميز في طرح الأفكار، ما جعلها الأكثر استقطاباً للقراء في أمريكا والعالم. تعتمد الصحيفة منهجاً ثابتاً نصَّ عليه نظام إنشائها وأعلنته في خطابها الافتتاحي مفاده:

سوف نكون محافظين في كل الحالات التي يكون فيها المنهج التقليدي ضرورياً للصالح العام، وسوف نكون ثوريين في كل أمر يتطلب إصلاحاً ثورياً. وبالرغم من عدم قناعتنا بصواب كل الأمور في المجتمع أو خطئها، إلا أننا نتمنى المحافظة على كل ما هو جيد وتطويره، والقضاء على كل ما هو سيىء أو العمل على إصلاحه.

التاريخ: أبدت نيويورك تايمز منذ فترة طويلة رغبة واضحة في الاستقلالية والفكر والنزاهة في السياسة التحريرية منذ عام 1884م، وذلك حين قدَّمت الدعم لحاكم ديمقراطي وهي مؤيدة للجمهوريين. وترك هذا التحول تأثيره في جمهور قراء الصحيفة، إلا أنها سرعان ما استعادت بعد بضع سنوات معظم ما فقدته من قاعدتها الأساسية حين امتلك أدولف أوكس، ناشر تشاتانوجا تايمز، الصحيفة عام 1896م، وعمل على إعادة صياغة الشعار المذكور أعلاه، وشكَّل طعنة للصحف المنافسة مثل نيويورك وورلد، ونيويورك جورنال أميريكان، اللتين عُرِفتا بالصحافة الصفراء الصارخة. وحققت نيويورك تايمز، تحت قيادة إدارة أوكس، انتشاراً واسعاً وسمعة دولية قل نظيرهما. وفي عام 1967م، بدأت الصحيفة بتوزيع طبعة دولية عندما ضمت إليها مُلاك نيويورك هيرالد تريبيون وواشنطن بوست لنشر صحيفة الإنترناشيونال هيرالد تريبيون في باريس.

الأسلوب: استطاعت الصحيفة بأسلوبها الفكري الغني الوصول إلى جمهور متنوع محلياً ودوليّاً، وهي تتطلع إلى أسلوب أكثر ودية يزيدها قرباً من القارئ. وقررت الصحيفة إلغاء الأجزاء الضعيفة والمطنبة في الكتابات النثرية الطويلة، ولجأت في عصر تراجُع نسبة التداول والخسائر الكبرى في عوائد الإعلانات والدعايات، إلى تقليص ما نسبته 5٪ من التغطيات الإخبارية في عام 2006م، إلا أن هذه «المساحة الأقل» حل محلها «تحرير صارم». ووعدت الصحيفة باستمرار التزامها بمنهج «صحافة رائدة قوية في طرحها»، وعدم إهمالها، بجانب عملها التحريري المتعمق، دور الكياسة واللطف أيضاً، وذلك بالإشارة إلى الأشخاص، إذ تستخدم عادة الألقاب الشرفية، بدلاً من الأسماء الأخيرة البسيطة.

السمعة: تُعدُّ نيويورك تايمز ثالث الصحف المتداولة محلياً بعد «يو إس إيه توداي» و«وول ستريت جورنال». وتوجد لدى الصحيفة مكاتب عديدة عبر منصة كبيرة من المواقع المهمة سياسياً واجتماعياً، إضافة إلى مقرها الرئيس في مدينة نيويورك، يوجد لديها 16 مكتباً إخبارياً في ولاية نيويورك، و11 مكتباً إخبارياً على مستوى الولايات المتحدة، و26 مكتباً إخبارياً أجنبياً. لا تحصد الصحيفة جوائز عن تغطياتها المتعمقة التي تقوم بها أو عن أسلوبها المثالي في الكتابة فقط، وإنما تحصدها، أيضاً، عن النتائج المحرزة التي يترتب عليها تغيير في السياسات. وعلى سبيل المثال، تم تقدير جهد الصحافي مايكل موس لقاء إسهاماته في الإدلاء بالتصريحات التوضيحية بناءً على تغطيته للمحاكمات التي تعرض لها واحد من ضحايا السالمونيلا الشباب والذي أصيب بالشلل نتيجة مرض القولون إي. وقد أدى المقال الذي كتبه موس في هذا الصدد إلى إجراء تغييرات في التنظيمات الفيدرالية حول هذا الأمر.

لقد أتاح المحتوى كثير التألق للصحيفة وأسلوبها المتفرد، المحافظة باستمرار على مكانة متميزة في جميع أنحاء العالم.

نيـويــوركـر.. الفكر الماتع



مجلة أمريكية أسبوعية تصدر في نيويورك، تعنى بالسياسة والقضايا الاجتماعية والثقافة الشعبية، وثقافة النقد، والتعليقات التي لا تخلو من السخرية. كما أنها تهتم بالرواية والشعر، فضلاً عن الرسومات الكرتونية التي تنتشر في صفحات المجلة وتتناغم مع السياق العام لتوجهاتها. بدأت في عشرينيات القرن العشرين، وصدر العدد الأول منها في 1925/2/21م. أسسها روس هارولد وزوجته جين غرانت المراسلة في نيويورك تايمز، وكانت الفكرة تتلخص في نشر مجلة فكاهية متطورة تنافس ما كان سائداً في ذلك الوقت.

بيد أنه ما إن بدأت أعدادها بالصدور حتى أخذت تتجه إلى مناح أخرى اتسمت بالجدية والعمل الصحافي المميز. وسرعان ما لاقت استحسان القراء، خصوصاً سكان نيويورك. وحرص روس على تطويرها والتحليق بها إلى آفاق تجاوزت تطلعاته. وقد ترأس تحريرها حتى وفاته عام 1951م. وبالرغم من توجهاتها المتعددة، إلا أنها غالباً ما تركز على الحياة الاجتماعية والثقافة الشعبية لمدينة نيويورك، وأجازت لنفسها أن تكون معياراً صادقاً لنبض شوارعها بطريقة احترافية ضمنت لها جمهوراً عريضاً تواقاً لصدورها، ليس في نيويورك فحسب، وإنما على نطاق العالم بأسره. ولها باع طويل واهتمام بارع في الرواية المعاصرة والقصص القصيرة، وعادة ما يكون لاستعراضاتها في القضايا السياسية والأحداث الدولية دوي هائل يتجاوز بتأثيره محيطها داخل الولايات المتحدة، كما يعرف عنها الصرامة في التدقيق والمراقبة الصحافية. ومن أشهر كتابها المعروفين على نطاق العالم هاروكي موراكامي ونايبول وسيمور هرش وغيرهم. ويصدر منها 47 عدداً كل عام، ويتجاوز إصدارها الأسبوعي المليون نسخة في بعض الأحيان، عدا إصدارها الإلكتروني.

وقد تقلب على رئاسة تحرير نيويوركر شخصيات عدة متميزة عبر تاريخها، ويرأس تحريرها الآن ديفيد ريمنيك النشط، ففضلاً عن كونه رئيساً لتحرير واحدة من أهم المطبوعات العالمية، فهو، قبل ذلك، كاتب وأديب ومثقف، استطاع مزاوجة العمل الإبداعي بالعمل التجاري، وحقق بذلك مكاسب عظيمة، ويرى من المفترض على من يشغل مهمة رئيس التحرير أن يكون ملماً حد التميُّز في كثير من المجالات الحيوية، ويرى أنه من دون اللغة الأدبية والكلمات الشاعرية فلن يكون هناك نيويوركر في الشارع الثقافي.



هو ضد التصنيف، ولأنه كذلك قدَّم «وجه النائم» في بناء وشكل خارج تماماً عن نمطية كتابة الرواية في شكلها الدارج.
الروائي عبدالله ثابت يرى ألا شيء ليس ممكناً في الكتابة المهم هو الكيفية التي نكتب بها ما نريد، ولا يوافق على أن هناك فوضوية في النصوص والمظهر، وفي كل الأحوال. فأزمة التسميات كما ينظر إليها لا يمكن تجاوزها، خصوصاً في زمن تعي دور النشر أنه تم تسليع كل شيء. حاورته رحاب أبو زيد حول نصوصه ورواياته وهواجسه.

عبد الله ثابت:
وحدة الفنان.. سجادة صلاته

بين فوضوية النصوص وفوضوية في المظهر.. هل هو اتساق متعمد؟ وإذا جعلنا المظهر اختياراً شخصياً، فما قولك في النصوص التي تعنينا؟
أقدر رأيك، لكني لا أرى أي فوضوية، لا في النصوص ولا في المظهر. في النصوص ربما يكون هناك خروج عن أنماط الكتابة السائدة، لكن هذا الخروج ليس فوضوياً بحال. بل أرجو أنه يأتي من رؤية تريد أن تعبِّر عن نفسها وتقول شيئاً، أما في المظهر فلا أعرف ما الذي يوحي به انطباعك هذا؟!

هل تتيقن بأنك تتحصن بتعويذة قديمة وأنت تعبر فخاخ كلماتك؟ أم أنك تنصت لشيطان نبيل يسر لك جمال اللغة؟
أتيقن بأنني موجود، وأن لوجودي هذا معنى، ويلزمني أن أخلص لهذا المعنى ما دمت حيّاً. أشعر بالعار أن آتي لهذه الحياة ثم أغادرها ذات يوم دون أثر يساوي معناي، أو على الأقل يقاربه. وهذا حق مشروع لكل إنسان، وأرجو أن يمكنني الله من النجاح في ذلك.

هل ثمة تناقض بين «الإرهابي 20» و«وجه النائم»؟
ليس هناك من فرضية للمقارنة ليكون هناك تناقض، في «الإرهابي20» تجربة إنسانية في سياق يختلف تماماً عن التجربة الإنسانية الموجودة في «وجه النائم»، يأتي تبعاً لذلك اختلاف عوالم الروايتين وأجوائهما وما يلحق بذلك. ما يمكنني أن أقوله، أو بالأحرى أن أرجوه، هو أن أكون بـ«وجه النائم» قد تجاوزت فنياً «الإرهابي20».

أشار حامد بن عقيل في «إله التدمير» إلى أن «الإرهابي 20» هي كتابة عن الجنون! إلى أي حد تجد ذلك صحيحاً؟ وكيف تجد روايتك في النقد وعلاقتك بالنقاد؟

أظن أن الأديب والناقد حامد بن عقيل عمد في محاولة منه إلى تحليل نص «الإرهابي20» تحليلاً نقدياً ونفسياً واجتماعياً وفكرياً، وإن كان قد أشار إلى لمحة الجنون فهي كما سميتها مجرد إشارة. لكنه في العام قدَّم جهداً نقدياً بارعاً، ورمى برأيي إلى ما هو أبعد من الجنون.. إلى تحليل البنية الاجتماعية والثقافية والسلطوية التي أنتجت تجارب حياتية من هذا النوع.

كتابك «وجه النائم» صنف على أنه رواية، ألست ضد التصنيف الأدبي؟ لماذا «وجه النائم» رواية؟

ضد التصنيف نعم. ولأنني ضده فقد قدمت «وجه النائم» في بناء وشكل خارج تماماً عن نمطية كتابة الرواية في شكلها الدارج. وفي كل الأحوال فأزمة التسميات لا يمكن تجاوزها، وخصوصاً في زمن تعي دور النشر أنه قد تم فيه تسليع كل شيء، أي تحويله إلى سلعة تجري عليها قيمتا العرض والطلب. هذا هو الواقع.

في «الإرهابي 20» قراءة نفسية لعسير وللمجتمع العسيري. هل يمكن أن يكتب الكاتب كتابة حرة عن وسط ليس حراً ولا منفتحاً دون أن يشعر بالارتباك؟ وكيف كان استقبال روايتك في المجتمع القبلي؟

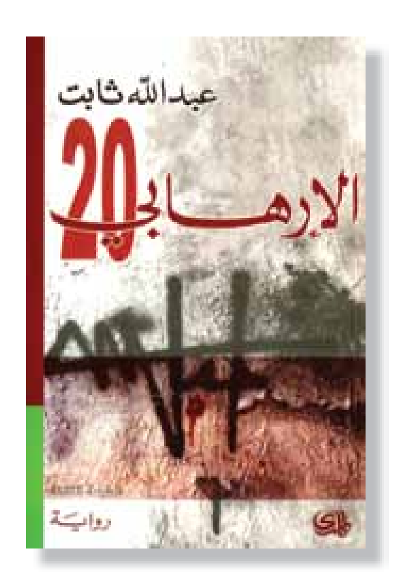
ليس هناك من شيء ليس ممكناً في الكتابة. المهم هو الكيفية التي نكتب بها ما نريد. وما كتبته عن عسير كان عفوياً، ولم أرد به أن أقدم أي قراءة نفسية لذلك المجتمع. وأظن أن الغالبية قد تقبلوا ما كتبت على هذا النحو. أما كيف كان استقبال الرواية فقد كان مفاجئاً لي بسبب الحفاوة التي أغرقتني بصدقها وطيبها الكثيرون في عسير تحديداً، وفي كل مكان عموماً.

«وجه النائم» هواجس تشبه كتابة قصيدة النثر، لماذا لم ينطلق عنوان كتابك من «المكان» وليس الإشارة مباشرة لتأطير المحتوى بأنه منامات؟

حين ينام المرء فإنه ينتقل إلى عالم آخر غير عالمنا هذا. عالم من الغيب والمجهول. ولا شيء يبقى من هذا النائم سوى جسده، وبالتحديد وجهه. إذاً فوجه النائم هو النقطة التي تتوسط عالمين، أحدهما محسوس والآخر غيب.. ولا أظن أن هناك اسماً يناسب أجواء ما كتبته في تلك الرواية أكثر من «وجه النائم».

في «وجه النائم» قسوة يولد بطلها «غسان» في اللحظة التي تغادر أمه فيها الحياة، هل هذا توصيف سوداوي لطبيعة وجودنا على الأرض بوصف أن «وجه النائم» كتاب رؤية ورؤى؟

هناك تعميق لأسئلة الغيب وطباعه وأطواره. ربما نحن نغضب



ونحتج ونحلم بقدر ما نتعذب. وربما تكون هذه المنامات التي تلج إلى أحداقنا ونحن نيام من حين لآخر ليست سوى ركون ولوذ بعالم آخر غير عالمنا هذا. عالمنا هذا الذي نفقد الثقة فيه وفي مجرياته. خذي مثلاً تسرب الإشعاعات النووية عقب زلزال اليابان الأخير، والأخبار اليومية عن تلك التسربات النووية التي تهدِّد البقاء البشري على المدى البعيد.. هل يجعلك هذا تثقين بهذا العالم؟ ثقي بالحلم أكثر.

كيف تفسِّر ما يراه بعضهم في نصك من كونه إدانة للحياة الواقعية وإعلاء للعلاقة بين الأم وابنها؟ أعني علاقة ما قبل الميلاد.

العلاقة الأولى التي تربط أي كائن بآخر هي علاقة الجنين بأمه. قبل أن يكون لك أب كانت لك أم. وقبل أن يكون لك أخ كانت لك أم. وقبل أن يكون لك صديقة وصديق وعم وعمة وخال وخالة، وقبل أن يكون لك زوج كانت لك أم. وقبل أن يكون لك سلالة كانت لك أم. في رأيي أن القصة كلها هناك.. في تلك الجذور التي لا نفكر فيها كما ينبغي.

هل تظن أن المجنون يشعر بالوحدة؟ إذ لا أحد يشاركه أفكاره وأسئلته؟ منغلق منعزل في عالم اختاره لنفسه؟

إن كنت تقصدين المجنون بالمعنى الإبداعي والفلسفي، وليس المعنى العضوي والنفسي، فلا ريب أن الوحدة تمثل جزءاً جوهرياً من شخصية كل فرد مستقل عن حياة المجموع، لكنها ليست كل حياته. الوحدة في هذه الحال تشبه السجادة التي يفرشها مؤمن صادق في غرفة نومه، وبعيداً عن كل البشر، يناجي الله وهو يقف في منتصفها. الوحدة تشبه بالتمام هذه الحالة وهذه السجادة، يرجع إليها هذا الكائن القلق والمتعب ليجد أمانه وطمأنينته في منتصفها. وحدة الفنان.. هي سجادته.



بن إيرفنغ
امرأتان في الغرفة الصغيرة

عندما تتصفح ألبوماً تتوقف عند الصور التي تبعث على التساؤل، أو تثير في النفس شيئاً من الوجع أو الجمال.



يقال إن العالم قرية صغيرة، لكن المصور بن إيرفنغ يقول إن العالم أصغر من ذلك. فالعالم مجرد غرفة صغيرة!

لقد اختار المصور الأمريكي إيرفنغ هذه الصورة من بين مئات الصور في مجموعته لتكون غلافاً لكتابه: «العالم غرفة صغيرة» الذي طُبع عام 1974م، وضمَّ صوراً التقطها في استوديو صغير متنقل باتجاه الأماكن النائية من العالم، حيث الشعوب المختلفة ذات الثقافات البدائية والسكان الأصليين من رجال القبائل والنساء والأطفال. التقط لهم صوراً بالأبيض والأسود بهيئاتهم الطبيعية التي تحكي عنهم، فكرَّس فكرة الجمال التقليدي موضوعاً لمشروعه العرقي التصويري. لقد مرَّ على غرفة إيرفنغ الصغيرة المتنقلة وأمام عدسته أصناف من البشر مليئين بالتفاصيل التي لم يبدل فيها المصور ملمحاً لكي تظهر الصورة أجمل! لقد كان مؤمناً بأن جمال اللقطة يكمن في طبيعيتها، أو في إبراز عيوب الأشخاص وشوائبهم كالتجاعيد، أو التراب، أو الطين العالق بهم، كل هذا وهم محصورون في غرفة صغيرة «استوديو» ذات خلفيات بسيطة.

كان بن إيرفنغ مؤمناً بأن جمال اللقطة يكمن في طبيعيتها، أو في إبراز عيوب الأشخاص وشوائبهم كالتجاعيد، أو التراب، أو الطين العالق بهم

لأول وهلة قد تبدو هذه الصورة غامضة وغريبة في مكان بلا ملامح، يكاد يكون مصمتاً، فقط، حيث يتزاوج فيه الضوء والظل، واللون الأبيض مع اللون الأسود، ولا كائنات أخرى سوى موضوع الصورة وهو المرأتان في الغرفة الصغيرة. ربما تصيبك هذه الصورة بالرعب، إذ تبدو لامرأتين قد تواجهان حكماً بالموت أو نوعاً من العقاب القاسي، فملابسهما تشي بذلك. فغطاءا رأسيهما يشبهان القمع، الذي يُذكرنا بملابس التعذيب في سجن أبو غريب. المرأة التي عن يسار الصورة يطوق رقبتها حبل، كأنها تواجه الإعدام شنقاً. يداها وأطراف أصابع قدمها اليمنى الحافية تشي بسمرة قاسية أحرقتها الشمس. أما المرأة الأخرى فهي أكثر غموضاً وغرابة، فلا شيء يدل على أنها امرأة. هذه الصورة جديرة بالتأمل والغوص في تفاصيلها، لعل بعض الغموض يزول.

من هما هاتان المرأتان؟ ولماذا تواجهان عدسة المصور بهذا الغموض السافر؟!

قبل التكهنات لا بد من المرور على تاريخ هذه الصورة التي التقطتها عدسة المصور بن إيرفنغ عام 1971م في الاستوديو المتنقل الذي أنشأه لمشروعه عن الثقافة البدائية والعرقية. التقطت الصورة في المغرب العربي، وهي تحمل اسم: «قويدرات في مهب الريح». والقويدرات هن راقصات القويدر، وهي رقصة طقسية بربرية تؤديها النساء وهن جالسات على ركبهن. إذ يقمن بالزحف على الأرض مع أداء بعض الحركات برؤوسهن وأجسامهن. بينما شعرهن مرفوع للأعلى على هيئة مخروطية. إن هذه الرقصة تؤديها المتصوفات لتصفو أرواحهن، على حد ما يزعمن، ولا يشارك فيها الرجال أو الأطفال إلا نادراً.

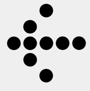
المرأتان البربريتان في الصورة لا تواجهان حكماً عنصرياً، أو عقوبة قاسية، بل ترتديان هذا اللباس لذلك الغرض. أما الحبل الرفيع الذي يطوق رقبة المرأة التي على يسار الصورة ليس إلا مسبحة طويلة بحبات خشبية. يكمن سحر هذه الصورة في طبيعتها وفي تفاصيلها الحقيقية، بدءاً من الأقدام الحافية، مروراً بخضاب الحناء على كفي المرأة، وبعض الحلي الفضية. كل شيء في هذه الصورة غير متكلف أو مصنوع لالتقاط اللقطة، لذا كان اختيار بن إيرفنغ لها في أن تكون غلافاً لكتابه: «العالم غرفة صغيرة».

الصورة بيعت في دار كريستيز للمزادات في أثناء مزاد أقيم بعد وفاة بن إيرفنغ عام 2009م بمبلغ 43.750 دولاراً. وكان سعر البيع المتوقع ما بين 40 ألفاً و60 ألف دولار. لكن الصورة لم تصل لأعلى سعر متوقع، ربما يكون السبب في الرعب الذي تثيره في النفس لأول وهلة!

بن إيرفنغ في سطور

مصور أمريكي ولد عام 1917م، يعد من أشهر مصوري القرن. وقف أمام عدسته أكثر الناس شهرة في العالم مثل: جون كيندي، بابلو بيكاسو، سلفادور دالي، سيمون دي بوفوار، وكثير غيرهم. عمل على مشروع الثقافة العرقية، وهو التقاط الصور للسكان الأصليين، وذلك من الستينيات الميلادية وحتى طباعة كتابه «العالم غرفة صغيرة» في عام 1973م. اشتهر بأنه مصور أزياء، فتصدرت صوره أغلفة مجلة فوغ الأمريكية. ظل يعمل دون توقف إلى أن توفي عام 2009م عن عمر يناهز الثانية والتسعين عاماً.

خيمة.. بدون عنوان



تشكل لوحة محمد السليم «بدون عنوان» صورة من المخزون البصري والفكري لثقافة انبنت على الميل إلى التجريد. هذه اللوحة المعاصرة تقرؤها د.مها السنان بترانيم إيقاعية فريدة.

لوحة بدون عنوان، ألوان زيتية على قماش «100×60سم» سنة الإنتاج 1981م، هي من أعمال محمد السليم الذي يعد واحدًا من أهم رواد الفن التشكيلي بوصفه الحديث أو المعاصر في المملكة العربية السعودية.

وُلد عام 1938م ونشأ في بلدة صغيرة في المنطقة الوسطى، في فترة بدايات النفط، وكان ممن بدأت معهم البعثات في مجال الفنون الجميلة. فدرس في أكاديمية الفنون الجميلة في فلورنسا، حيث افتتن بالحضارة الغربية لحظة وصوله إلى إيطاليا، فأخذ يقلد ويستلهم من مدارس الفن الغربية واتجاهاتها المنتشرة حينها كالسريالية وآثار متبقية من الانطباعية.

في أعقاب ذلك بدأت محاولاته في البحث عن هوية وأسلوب خاصين. ربما كان لعودته إلى وطنه تأثير في عملية البحث هذه، فكان يحاول جاهداً الربط بين ما تعلمه من اتجاهات فنية غربية وبين تلك الصور والمخزون البصري والفكري لثقافته وبيئته، الذي كان مؤطراً بتقاليد مجتمعه ونظرته الدينية نحو التجسيد ورسم الكائن البشري، والنزعة إلى التجريد، تجريد البيئة الصحراوية وتجريد الزخرفة الإسلامية التي تزين العمارة الدينية. من هنا توصل من خلال تجارب بنيت على بحث مستمر إلى أسلوب ذي فلسفة صحراوية لابن هذه البيئة المخلص.

تلخص هذه اللوحة هذا الأسلوب، وقد أسميتها مجازاً «خيمة» حيث العنصر الرئيس فيها يمثل المسكن الذي ينقله ذلك البدوي الذي لا يمل أو يكل من الرحيل بحثاً عن الماء والكلأ. هذه اللوحة هي لب أسلوب السليم الفني وجوهره الذي ابتدعه وأطلق عليه اسم «اللاآفاقية» وتمثل ما يمكن أن نطلق عليه العصر الذهبي في حياة هذا الفنان المبدع.

يلتزم السليم بمبدأ التجريد في عناصره، ما يزيد من تركيز خطوط الأفق المتعددة في أعماله، لتعطي بعداً آخر لا نراه سوى في لوحات هذا الفنان المبدع

موضوع العمل هو أحد المواضيع الرئيسة في أسلوبه الآفاقي، ألا وهو المنظر الطبيعي الذي يعتمد على الصحراء خلفية وقاعدة أساسية لأي موضوع يتم بناؤه على اللوحة، بينما العنصر الأساسي هو الخيمة أو المسكن الصحراوي، تتداخل معه شكلياً بحجم غير واقعي دائرة يعبر فيها الفنان عن الشمس، التي تثقله حرارتها، ولكنها تبقى جزءاً من حياته اليومية التي لا يستطيع تجاهلها مهما بلغت قسوتها. ثم نرى في الخلف أطلال مبان، ربما أراد بها الفنان تصوير حالة الانتقال إلى المدنية التي خان معها البدوي خيمته، باحثاً عن أسلوب جديد للحياة أكثر رفاهية وقدرة على حمايته من تلك الشمس.

ربما تميز هذا العمل أو الأسلوب بشكل عام بسبب ثلاثة عوامل هي اللون، والتكوين، والأسلوب. أما اللون فقط اختزله السليم في ألوان الصحراء ودرجاتها التي لا يستطيع تمحيصها وتفكيكها سوى من عاش في تلك البيئة بل عايشها، لدرجة أصبحت الألوان الأساسية فيها تتفكك لأجزاء وأجزاء استطاع السليم حصرها عبر تلك التقسيمات العرضية، التي تقودنا إلى هذا التكوين الذي يرتكز في المنتصف ثم يتشكل بهذا الأسلوب الأفقي وكأنما يمتد بنا خارج اللوحة. فقد رسم العناصر على مستويات لونية أجاد من خلالها دمج خطوط المنظور الشكلية أو الهندسية مع تلك الهوائية. ولم يكن ليوفق في ذلك لولا دراسته للأسلوب التأثيري أو الانطباعي في تحليل اللون وفق تكوين المنظر الطبيعي، فأعاد ترجمة فلسفة التأثيريين وفق بيئة صحراوية تحت مؤثر مشابه ألا وهو الضوء. ولكن شتان ما بين ضوء ربيع أو صيف باريسي لطيف وبين سعير صحراء الجزيرة العربية.

نتيجة لعدد من العوامل يلتزم السليم بمبدأ التجريد في عناصره، ما يزيد من تركيز خطوط الأفق المتعددة في أعماله، لتعطي بعداً آخر لا نراه سوى في لوحات هذا الفنان المبدع. ويفسر السليم أسلوبه هذا على أنه ترجمة لنظرته الخاصة لبيئته الصحراوية، ولعاداته وتقاليده وفكر مجتمعه. ويعتقد أن من وُلد ونشأ في الصحراء هو وحده من يستطيع التقاط الأفق بهذه الصورة التي لا نهاية لها. بل يضيف أن ما يزيد من تفرد هذه الرؤية تلك الحياة الديناميكية المحيطة بالصحراء، التي تعطيها ترانيم إيقاعية فريدة من نوعها.

لعلنا نختتم رحلتنا في أفق السليم بالإشارة إلى أنه ممن جاهروا بفن الصورة في زمن لم يكن لغير الكلمة في قاموس الفنون مكان، لدى مجتمع صحراوي حديث عهد بالتمدن أو التحضر. فلم يجد من يستوعب هذا الشكل من الإبداع والابتكارية. لذا لم يحصل على ما يستحقه من دعم أو تقدير، فكان أن تخلى عن حلمه بسبب هذا العزوف البصري لدى مجتمعه، فظل يكافح الفشل والديون ليموت وحيداً في غرفة «موتيل» صغيرة في روما عام ١٩٩٧.

مدخل إلى الآخر في الرواية



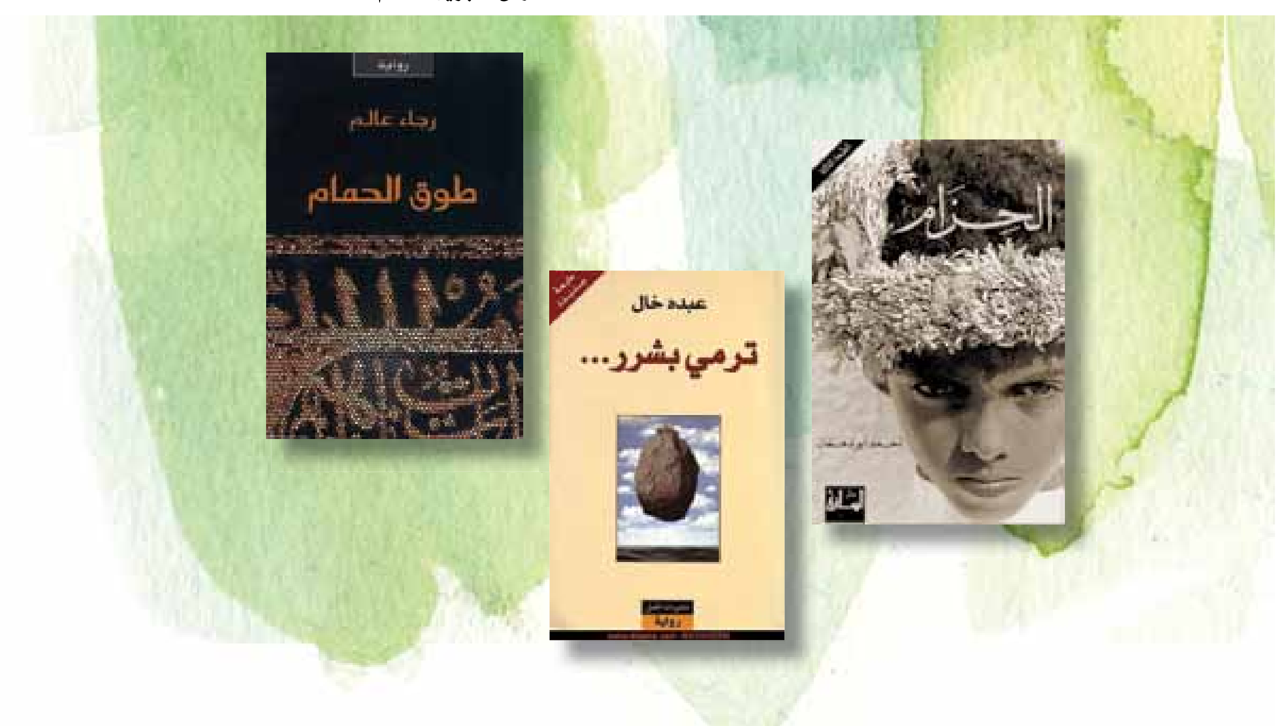
ليست الرواية تعبيراً عن وعي شخص واحد، إنما إضاءة لوعي أشخاص آخرين مختلفين. الناقد والروائي السعودي علي الشدوي يسلِّط الضوء على فهم الأنا الآخر ثقافياً وعوائق هذا الفهم من خلال المؤلف وشخصياته الروائية.

عصفور من الشرق
توفيق الحكيم

إبراهيم الكوني
نداء ما كان بعيداً

خان الخليلي

عبدالرحمن منيف
شرق المتوسط





إذا كان هناك آخر في الرواية، فإلى أي شيء يعود ذلك؟ يتبادر إلى الذهن بشكل متتال، كون الرواية مكتوبة على الشكل الذي يوجد فيه الآخر. يرتبط بهذا السبب النموذجُ الثقافي الموجود سلفاً في الثقافة التي تُكتب في إطارها رواية ما.

وإذا ما عملنا على تطوير هذا السبب في شكل أكثر تقنية فسنقول بـ«النمط»، الموجود في ثقافة الكاتب الأصلية، أي الصورة المبتسرة التي تنقل إلى الآخر رسالة واحدة يُعتقد أنها «جوهرية».

يترتب على النمط من حيث إنه يوهم أن الآخر موضوع التمثيل كائن ذو بعد واحد أزلي وأبدي، ويخلط بين ما هو نعتي وما هو جوهري، ويرفع الخاص إلى مستوى العام، والفردي إلى مستوى الجماعي. نقول يترتب على ذلك أن تعمل الرواية على نقل النمط الذي أودعه الكاتب فيها، وبمجرد ما نلحق هذه الوظيفة بالرواية يمكن أن نسأل عما يجعل الرواية قابلة لأن تكون كذلك، فلكي تستجيب الرواية لهذا النقل يجب أن تكون مؤهلة بحيث لا تمثل سوى تحقُّق للنقل.

نستخلص من هذه المقدمة الموجزة أن للرواية طابع الوسيط. لكن هل نتحدث عن الرواية فعلاً؟ ألا نخلطها بالروائي ومقاصده؟ إننا نعتقد أن الرواية تتحدث عن نفسها، لكن في الوقت نفسه يجب أن نعترف أن وراء كتابتها شخصاً يريد أن يتواصل معنا. غير أننا يمكن أن نفرز من هذا الخلط تعارفاً أولياً ما دامت الرواية تُكتَب، والراوي يَكتُب في إطار ثقافة ما.

عالم واحد.. عوالم متعددة

نمت الرواية في الفضاءات المتروكة، تاريخياً، حرة من طرف الأنواع والأشكال الأدبية الأخرى. نمت هامشية ومعزولة. في الواقع فإن هذا التطور الهامشي والمعزول هو ما أعطى الكتابة الروائية أصالتها. وُجدت الرواية وسط الأنواع والأشكال الأدبية، واستمدت قوانينها من الحرية التي تمتعت بها في ذلك الهامش والمعزول، وهي القوانين نفسها التي رفضت الأشكال الشعرية تطبيقها.

لكي نثير الانتباه سنتوقف عند الفرق بين لغة الرواية ولغة الشعر. لغة الشعر هي لغة الشاعر، يجد الشاعر نفسه فيها من غير أي شريك يقاسمه إياها. ليس هذا فحسب، إنما تنسى الكلمة في الشعر ماضي مفهومها اللفظي وحاضره. يخلص الشاعر اللغة من نوايا الآخرين، ويتكلم بلغته هو عما هو أجنبي عنه، ولا يلجأ إلى لغة الآخرين. تحتضن اللغة في الشعر كل شيء، بها يرى الشاعر ويسمع ويفهم ويتأمل ويعبر، ولا يستعين بلغة أخرى، لأن الشعر غير معني بوجود عوالم أخرى دالة ومعبرة. أحدية اللغة ووحدانيتها شرطان لازمان لفردية الخطاب الشعري.

إذا كان الشاعر يتصرف على هذا النحو فإن الروائي يتصرف بطريقة مختلفة تماماً. فالروائي لا يخلص خطاباته من نوايا ومن نبرات الآخرين. هناك عناصر لغوية مجردة من نوايا الروائي، فلا يعبر بها عن نفسه، يستخدمها من غير أن يسلم نفسه إليها، إنما يتركها نصف أجنبية أو أجنبية تماماً. يدخل التعدد الصوتي حتى يصبح الموضوع نقطة ائتلاف أصوات مختلفة، يظهر صوته ومن أجل أن يظهر تكون الأصوات الأخرى خلفية من دونها لن يدرك صوته.

هناك إمكانية لأن نميز بين الشعر والرواية بدقة وعمق، غير أنه من وجهة نظر أهدافنا يعدّ ما قدمناه كافياً، يترتب عليه ما نريد أن نصل إليه، من أن الشعر يسعى إلى أن يفرض على العالم رؤية واحدة أو تفسيراً واحداً، عن طريق أسلوب واحد ووحيد. أما الرواية فهي «حوارية» تتضمن أساليب وأصواتاً مختلفة تتكلم مع بعضها، ومع أصوات من خارج الرواية، يتناوب فيها صوت الراوي وأصوات الشخصيات. إنها مجموعة من المواقف والآراء والاهتمامات الشخصية التي تكون الموقف العقلي أو العاطفي لشخص ما في علاقته بالعالم.

عوائق فهم الأنا الآخر ثقافياً عوائق متعددة كمعنى الكلام، وعدم فهم الأفكار، وعدم فهم رؤية الآخر للعالم

وإذا ما أردنا أن نعمق هذا الفهم فلا بد من أن نأخذ في الحسبان كون الناس في الواقع لا يعملون جنباً إلى جنب، إنما يعملون من أجل بعضهم بعضاً، أو ضد بعضهم بعضاً، وأن «الحدث» هو ملتقى أفعالهم تآزراً وتنازعاً.

الطبيعة النموذجية للرواية من هذا المنظور الذي وضعنا أنفسنا فيه هو أن تكون الشخصية الروائية كاملة الحقوق، وكاملة الأهلية، لها كلمتها الشخصية: حرة ومؤهلة وقادرة على أن تختلف حتى مع المؤلف نفسه، وأن تؤكد الغيرية بوصفها ذاتاً فاعلة أخرى، وأن تقر بالوعي الغيري، وأن تتمتع بالحرية، وأن تنزع إلى الاستقلالية. يعني هذا أن تتناوب في الرواية وجهات النظر المختلفة، أن تُعكس فيها مختلف الظلال، وأن تُبرز كل الآراء ووجهات النظر المختلفة.

تُعدُّ الأصوات المتعددة الأساس الأول من أجل إلقاء الضوء على الآخر في الرواية، فمظاهر الرواية، وطبيعتها، واشتغالها، تكفي لأن يقال إن الرواية هي احتمال الآخر، لأنها منظمة بشكل يسمح لكل صوت فيها أن يمتلك ذاته عن طريق تحديد نفسه عن طريق الآخر، وأن يعي ذاته، لأن الوعي بالذات غير ممكن إلا إذا تحقق عبر الآخر. ليست الرواية تعبيراً عن وعي شخص واحد، إنما إضاءة لوعي أشخاص آخرين مختلفين. من أجل الآخر تنشأ الحبكة الروائية، وتكتب الروايات، وتذرف الدموع، ومن أجل الآخر تقام كل الصروح. هكذا إذاً فالآخر موجود في الرواية بحكم طبيعتها، إلى حد نتساءل فيه ما إذا كان ممكناً أن تكون رواية فيما لو كتبت بشكل مغاير؟

مشكلة الثقافة

يمكن أن تكون مشكلة الثقافة أشد تعقيداً مما نعتقد، فعوائق فهم الأنا الآخر ثقافياً عوائق متعددة كمعنى الكلام، وعدم فهم الأفكار، وعدم فهم رؤية الآخر للعالم، والجهل بالطقوس والعادات والقيم الملزمة، والأهم من هذا هو عائق ألا تفهم بنيةٌ عقلية بنيةً عقلية مغايرة.

يتمم هذه المعوقات الخارجية عوائق داخلية كنزعة التمركز حول الذات، ونزعة التمركز حول المجتمع، ونزعة التمركز حول العرق، والقاسم المشترك يكمن في كون ثقافة ما تموقع ذاتها في مركز العالم، وتُعدّ كل ما هو غريب شيئاً ثانوياً، لا معنى له، أو على الأقل شيئاً معادياً لها.

إن إدراك الأفراد لا يُستمد من خبرات كل واحد منهم ودوافعه وتوقعاته، إنما يصاغ من القوالب الثقافية القائمة، ويُحدد من قبل الأوضاع الاجتماعية والثقافية، حيث تمد التنشئة الاجتماعية والثقافية كل واحد من أفراد المجتمع بالإدراك الذي يقيم عليه نظامه الإدراكي.

لا يصدق هذا على الأفراد العاديين فحسب، إنما يصدق، أيضاً، على الروائيين. الكل يحدد الجزء، وفي صياغة أخرى «إن تصور الكل يحدد تصور الجزء ومفهومه». لذلك فنحن في وضع يسمح لنا بأن نرى أن تلك النزعات التي تحدثنا عنها أعلاه تتسرب إلى الروائي ومن ثم إلى الرواية.

استحضار الثقافة

إن تأليف رواية هو فعل متعمّد، فالروائي يرغب في أن يقرأ القراء روايته، ومن هذا المنظور يصعب تحقيق موت المؤلف. ليس أمراً محايداً أن ننسب رواية إلى روائي، لذلك فإن تحليل أغراض الروائي في إطار ثقافة معينة تسمح بأن يُرجع إلى فرضياته ومسلَّماته الثقافية، وفي مثل هذه الحالة لا يختفي الروائي من التحليل، إنما يصبح دوره مهماً من حيث هو مؤلف الرواية.

يمكن أن نحسّن معالجة الفكرة بأن نضع الروائي موضع الإخراج المسرحي للرواية، يظهر هذا بوضوح أكثر في الخط الذي اتبعناه في تفسير طبيعة الرواية، نعني الرواية متعددة الأصوات.

لا يُفهم جزء كبير من الرواية نفسها، إنما يُفهم، أيضاً، من السياق الثقافي والاجتماعي، لذلك لا تكفي قراءة الرواية، إنما يجب أن تُقرأ في ضوء تداخلها مع الثقافة التي كتبت في إطارها. هكذا إذاً يتطلب الأمر أكثر من مجرد قراءة، ويصبح القارئ في حاجة إلى أن يأخذ فكرة عن الثقافة التي تنتسب إليها الرواية، وعن فرضيات الروائي ومسلَّماته الثقافية، ولا بد من أن نفهم السيرورة المعرفية للروائي من خلال ما يقوله، أو يصمت عنه حينما يقدِّم ثقافة الآخر.



يترتب على هذا أن تكون طريقة تفكير الروائي في الرواية، هي الاستعداد لأن ننصت إلى الروائي وهو يكتب. ففيما هو يؤلف الرواية هناك معتقدات تستحوذ عليه، لذلك فهو يتحمل مسؤولية القيم التي يحضرها إلى روايته. يفعل ذلك ليس لأنه يعي ذلك، إنما لأن معتقداته، وأفكاره، وخبراته، وتوقعاته، ودوافعه التي استمدها من ثقافته تستحوذ عليه.

كأي إنسان يعيش في ثقافة، ومتورط فيها، هناك أصول معرفية لكل معتقدات الروائي وأفكاره ودوافعه. شبكة من المسلَّمات التي تشكل خلفيته المعرفية. حين يتصرف الروائي، أو يفكر، فهو يسلم بوجود شبكة من الأحكام يمكن أن توصف بأنها نظرية، وربما مجموعة من النظريات. لكن حين تؤدي وظيفتها، فليس الروائي في حاجة إلى نظرية، لأن مسلَّماته تسبق نظرياته. ومسلَّمات الروائي ليست تصوراته وفرضياته وآراءه فحسب، بل ما يمكن أن نسميه خلفية فكره.

حينما نركز على الروائي، فنحن نفعل ذلك، بحكم الثقافة التي ينتمي إليها، إذ يملك رصيداً متراكماً من المعارف والأفكار والمفاهيم، تتبلور في ذهنه، وتشكل استجاباته. وهي أفكار ومفاهيم يمارسها بكل ثقة، ويؤمن بها من غير أدنى شك، ويتقبلها كحقائق ذات طبيعة فكرية مطلقة.
ليس المؤلف الروائي إذاً سيد نفسه ما يجعله مهيئاً لأن يكون معبراً للثقافة التي تشربها. فالروائي يحول أوجهاً من خلفياته الاجتماعية، ومعتقداته وأفكاره، وتخميناته إلى أوجه من اللغة. يخوض حروباً سرية، ويرتب جميع أنزاع الجدل في روايته. وهو يعرف على مستوى ما أنه يفعل هذا، ليتضح لنا ما تفعله الأيديولوجيا «أفكار ومعتقدات» في ذهن الروائي وخياله وسلوكه.

من هذه الزاوية، ليست الرواية فيضاً خالصاً يفيض عن نظرية من النظريات، وهي في النهاية نص دنيوي. وتحليل الرواية ليس تجريداً، إنما تحليل يتموضع على نحو لا سبيل إلى إنكاره أو مناقشته ضمن ثقافة يؤثر وضعها التاريخي على قدر كبير مما يقول الروائي، إن لم يكن يحدد ما يقوله.

إن الرواية عمل فردي لروائي منشبك في ظروف يسلم بها الجميع كإقامة الروائي، وجنسيته، ومحلته المألوفة، وأصدقائه. حينئذ تكون المشكلة هي الكيفية التي نربط ونفصل ونجمع بها بين هذه الظروف وبين الرواية التي كتبها، والكيفية التي بها تُقرأ الرواية وشرطها الدنيوي.

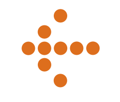
ليس الفن الذي تنتسب إليه الرواية ظاهرة من الظواهر المعزولة عن غيرها، ولا علاقة له بمظاهر الفكر الأخرى. فعندما يهب الفكر وينشط في عصر ما أو في مرحلة تاريخية فإنه يتحرك في الاتجاهات كافة، ولا يمكن لأي فن أن ينمو ويتطور من غير أن يُدعم بنمو مماثل في مجالات الفكر، وحقول المعرفة الأخرى. يُسمى هذا «روح العصر»، ففي زمن معين «مرحلة تاريخية» يُدفع كل الكُتّاب والمبدعين نحو وجهة محددة وواحدة، مطبوعين بروح واحدة هي «روح العصر».

هناك قوة عابرة للفردية، فما يتبلور في مظاهر الفكر والفن كالفلسفة، والشعر، والرسم، والموسيقا، والعلم والسياسة يفرض نفسه على المبدعين الذين يتركون بصماتهم على روح العصر.

تدفعنا هذه الأفكار الأولية عن طبيعة الرواية، وطبيعة الثقافة، وطبيعة التأليف أن نستنتج أن وجود الآخر في الرواية مبرر بهذه الطبيعة، لأن الرواية مكتوبة على الشكل الذي يوجد فيه الآخر، ويرتبط بالنموذج الثقافي الموجود سلفاً في الثقافة وفي ثقافة الروائي الأصلية.

عبدالعزيز الدوري
هيبة العلم وكبرياء الروح

صورة شخصية للدوري بريشة الفنان حافظ الدروبي في عام 1954م.



ينتمي الدوري إلى جيل من المثقفين يكاد يكون نموذجياً في توافره على الجمع بين رصانة العلم وسعة المعرفة والتواضع. كان- يرحمه الله- واحداً من أقدر الباحثين على إعادة قراءة تاريخنا العربي والبحث فيه. الشاعرة مي مظفر تستحضر من ذاكرتها هيبة الدوري وكبرياء روحه. وثمة حوار أجراه خالد نسيبة مع د.عبدالعزيز الدوري قبيل وفاته.

عندما تُذكر بغداد، قلب العراق النابض، تتداعى في الذاكرة أسماء شخصيات مهيبة جليلة كان لها فضل إقامة صروحها العلمية والثقافية وفضل بناء الإنسان معاً. فهم السبب وراء ظهور أجيال من المبدعين في مجالات الحياة كافة. في طليعة هذه النخبة يقف أستاذنا العلّامة عبدالعزيز الدوري «1919-2010م». فمن تتلمذ على يده امتلك ناصية المعرفة بأرقى مستوياتها. لاسمه صدى خاص في وجدان العراق والعراقيين، باستثناءات قليلة ربما. شخصيته لها من السعة ما يجعلني أشعر إزاء الحديث عنه بحيرة مضاعفة. فهو اسم اقترن بتاريخ الأمة أولاً قبل أن يقترن بتاريخ الجامعة العراقية أباً وراعياً لها ولأجيالها. فقوة الأمة وتماسكها، كما يؤكد، من قوة ذلك الإرث الحضاري الممتد. بفضل رؤيته المتسعة وانفتاحه على ثقافات العالم، ضمّت جامعته خيرة الأساتذة عرباً وأجانب.

أنهى د.الدوري دراسته في إنكلترا، معهد الدراسات الشرقية في جامعة لندن SOAS، وعاد إلى العراق «1942م» ليتولى منصب معاون عميد دار المعلمين العالية. كان متأثراً بالأجواء العلمية الراقية التي عاشها هناك، ومتحمساً لبناء صرح تعليمي في العراق قائم على تلك الأسس المتينة، وأن يوجد فيه فضاء ثقافياً رحباً يواكب التطورات العالمية الواسعة المعنية بتقدم المعرفة وتوسع آفاقها. عندما تولّدت لدى المسؤولين قناعة بأن الوقت قد حان للإعداد لتأسيس جامعة، كانت الخطوة الأولى إقامة كليتين مندمجتين باسم كلية الآداب والعلوم «1949م»، واختير الدوري عميداً لها. فأصبحت منذ البداية، مطمح طلاب العلم والمعرفة من الشباب لرقي مستواها العلمي، وجدية الدراسة فيها، وانفتاح آفاقها على ثقافات العالم.

كان القبول في هذه الكلية يعد تحدياً وامتيازاً، إذ يشترط اجتياز امتحان تحريري يخضع الناجحون فيه إلى مقابلة مع الطالب من قبل لجنة يرأسها العميد، د.الدوري شخصياً، ومعه أستاذان متخصصان. وفي عام 1957م أعلن عن تأسيس جامعة بغداد لتضم إليها الكليات العلمية والإنسانية كافة. لقد ظل د.الدوري عميداً لكلية العلوم والآداب حتى بعد تعيينه رئيساً للجامعة، لكن الانقلاب العسكري في تموز 1958م أقصاه عن هذا المنصب الذي لم يشغله غير عدة شهور، لكنه أعيد إليه عقب انقلاب 1963م، واستمر فيه حتى مجيء البعث في 1968م.

بعد ذلك اضطر إلى مغادرة العراق إلى غير عودة محتفظاً بالوطن في ضميره ووجدانه، ولتسكنه بغداد حتى الرمق الأخير.

لاسمه، رجع خاص يستدعي حضوراً أشد خصوصية، والتعرف إليه يترك أثراً في النفس لا يزول. إنه جوهرة العلم، ورمز من رموز نهضتنا العلمية والثقافية. منذ أن تولى عمادة الآداب والعلوم، أصبح اسمه يتردد على ألسنة الشباب من جيلنا بوقع متناغم حيناً ومتنافر أحياناً، إيجابي وسلبي، لكنه وقع مهيب في كلا الحالين. في السنوات العشر التي سبقت انقلاب 1958م شهدت بغداد نمواً اقتصادياً وثقافياً بقدر ما شهدت من اضطرابات ونشاطات سياسية. كانت كلية الآداب بؤرة الحركات السياسية المتضاربة التي كان يتصدى لها الدوري بما يملك من إيمان وحكمة ومقدرة وتسامح. ذلك ما جعله هدفاً لحكايات تدور حوله شخصاً وأستاذاً بنسيج متشابك تجعل منه أسطورة عصره أو داهية زمانه. كان بعضهم يراه العين الرقيبة للحكومة على الطلبة، وبعضهم الآخر لا يرى فيه غير أب رحيم متسامح، حريص على سلامة أبنائه حرصه على الحفاظ على روح البحث والانصراف إلى الدراسة وتوفير حرية الكلام والعمل. يومها أصبحت كليّات بغداد بتخصصاتها المختلفة مختبراً لخيرة العقول النيّرة والمؤسسة تأسيساً معرفياً رصيناً.

يشرّفني أنني أنتسبت إلى كلية الآداب يوم كان عبدالعزيز الدوري عميداً. كنت مصممة على دراسة الأدب بدافع غامض مبعثه همهمة مبهمة من كلمات مموسقة أحسبها كانت شعراً. وحين توجهت إلى كلية الآداب لإجراء مقابلة لامتحان الكفاءة، بموجب نظام القبول آنذاك، كنت أحمل في ذهني صورة الرجل المهيب الحازم الذي قد لا يجدني أهلاً لدراسة الأدب الإنجليزي الذي قررت بعد تردد أن أدرسه بدلاً من الأدب العربي. دخلت القاعة المخصصة للمقابلات فرأيت ثلاثة رجال يجلسون وراء منضدة طويلة، تطلعوا نحوي باستغراب ضاعف من خوفي وزادني حرجاً، فقد كنت ضئيلة الحجم، أبدو أصغر من عمري بسنتين أو أكثر. ميّزت على الفور شخصية الدوري من غليونه الذي كان يتدلى من فمه، كما تظهر صورته على صفحات الجرائد. حين جلست أمام اللجنة، بادرني بسؤال مباشر: «ما هو هدفك من الدراسة؟ ولماذا اخترت دراسة الأدب الإنجليزي؟». حين رددت بالعربية طلب مني أن أرد بالإنجليزية. كان يجلس إلى شماله أستاذ بريطاني عرفت فيما بعد أنه رئيس قسم الأدب الإنجليزي في الكلية، وعلى يمينه نائب العميد. أرادت اللجنة أن تعرف الهدف من دراستي، وإلى أي حد كنت جادة في اختيار الأدب الإنجليزي ومستعدة لمواجهة ما تتطلبه هذه الدراسة من مشقة وصعوبة. تصورت أنني كنت قد هيأت نفسي للإجابة عن أسئلة لها مساس بهذا الأدب، وكنت أحفظ مقاطع متفرقة من مسرحيات شكسبير، لم يُطلب مني شيء منها. وجدت نفسي أتحدث الإنجليزية بكلمات لا أدري كيف انطلقت من لساني المتلعثم وتسربت بسهولة، ربما كان ذلك بفضل الوجه المتسامح والنظرة الأبوية التي ارتسمت على وجه الدوري، ابتسامة وديعة لم تفارق وجهه، جمعت بين التطمين والتشجيع. كانت تلك المقابلات مصفاة يمر بها الطالب قبل قبوله.

كنا نراه كل يوم تقريباً يمر دائماً من بين الطلبة بخطوات ثابتة لا يكاد يُسمع وقعها على الأرض، وهو في طريقه لإلقاء محاضرته في قسم التاريخ، ودائماً غليونه في يده. كان إلى جانب ما عرف به الدوري من رصانة علمية وحنو أبوي على الطلاب، أديباً محباً للآداب والفنون، راعياً للطاقات الخلاقة، فهو أول من أقدم على تأسيس مراسم حرة في الكليات بإدارة خيرة الفنانين العراقيين آنذاك. فكان جواد سليم مشرفاً على مرسم دار المعلمين العالية، وحافظ الدروبي مشرفاً على مرسم الآداب والعلوم، وخالد الجادر مشرفاً على مرسم كلية الملكة عالية. وانبثق من هذه المحترفات بعض أبرز أعلام الفن الحديث في العراق. ولعل صورته الأثيرة التي جسّدها الفنان حافظ الدروبي أجمل شاهد على نشاط تلك المرحلة الخصبة من تاريخ العراق. وكان الدوري قد اختير لرئاسة وفد فني ليمثل العراق في أول معرض عربي أقامته منظمة اليونيسكو بمناسبة افتتاح مقرها في بيروت عام 1948م واشتمل على فنانين من مصر والعراق ولبنان. بل ظلّت الحركة الفنية في العراق من ضمن اهتماماته حتى آخر سنوات حياته، فكان حريصاً على متابعة المعارض المهمة التي يقيمها الفنانون العراقيون البارزون في عمّان حيث انتهى به المقام.

في عمّان كان لي شرف التعرف إليه عن قرب. فعندما انتقلت إليها مع زوجي الفنان رافع الناصري للعمل والإقامة، كنت أحمل مشروع دراسة عن تاريخ الحركة التشكيلية في العراق، والموضوع من السعة ما يتطلب توجيهاً منهجياً لم أكن أمتلك أدواته. فلجأت إلى الأستاذ الكبير الذي تحمس للمشروع وطلب مني قراءة ما كتبت. ثم بدأت أراجعه في مكتبه في المجمع الملكي



بعض مؤلفات د.عبدالعزيز الدوري.

لبحوث الحضارة الإسلامية «مؤسسة آل البيت»، والاستفادة من مكتبتها العامرة، خصوصاً في مجال البحث عن الحضارة العربية الإسلامية، ودلّني إلى مراجع كثيرة كنت غافلة عنها. حين عملت على مدى خمس سنوات في المؤسسة نفسها «مؤسسة آل البيت»، ظلت توجيهاته وملاحظاته خير عون لي فيما أنجزت.

حين ينظر الدوري إلى الدراسات التاريخية الأولى للأمة العربية والإسلامية، فإنه يرى أن كثيراً من المؤلفات الحديثة كُتبت بأقلام خارجية، غربية أو شرقية، نشأ أصحابها في بيئات غربية وفي ثقافات أخرى، ومن الطبيعي أن تتأثر مؤلفاتهم بالاتجاهات القائمة في تلك الثقافات والبيئات. ومع أنه يقرّ بأن بعض تلك المؤلفات قد خدمت الدراسات التاريخية، فإنه يرى أن بعضها الآخر طرح آراءً واتجاهات غريبة قبلناها مبدئياً، ولكن لا بد من إعادة النظر فيها جذرياً. من أجل ذلك يقول أستاذنا الجليل إننا بحاجة إلى فهم النظريات والاتجاهات الحديثة في علم التاريخ لنستفيد منها في بحوثنا التاريخية وإن كنا لا نستطيع تطبيق طرق بحثها تطبيقاً حرفياً. فلا عجب، إذاً، أن نعرف أنه أمضى سنوات عمره الأخيرة منكباً على إعادة كتابة التاريخ العربي، مستعيناً بهذا الفكر النيّر المنفتح على حضارات العالم ومسيرتها التاريخية.

كنت وزوجي شديدي الحرص على زيارة د.الدوري وعائلته الكريمة بين حين وآخر. إنه يستقبل ضيوفه بحفاوة، ويصغي بكل هدوء لما يسمع من غرائب ما يحدث في عالمنا العربي، خصوصاً العراق الذي عاد به التاريخ قرناً إلى الوراء، ثم يأتي تعليقه مفعماً بالشواهد التاريخية الحاضرة في ذهنه أبداً، حتى بعد أن تمكّن منه المرض. في السنوات الأخيرة لم نره إلا مهموماً بالعراق: شاغله الأكبر ومصدر قلقه على الأمّة التي كرّس فكره وجهده لكتابة تاريخها وإعادة كتابته. لقد رأى في احتلال العراق وما لحق به من دمار وتخريب حدثاً جللاً فاق كل سابقة تاريخية. مع أن الحيرة كانت تتملّكه من أمر ما يجري ويغمر وجهه الأسى، لم أجده يتخلى قط عن نبرته الهادئة في استقراء الشواهد والإيمان بالمستقبل.

يقول إن التاريخ لا يبدأ من نقطة محددة ولا يقف عند مرحلة واحدة. لا يستقري الدوري حاضرنا إلا بعين الماضي، فيرى لكل مشكلة من المشكلات التي نعيشها اليوم جذورها في التاريخ، ولها أسبابها المتوارثة من الماضي، الأمر الذي يتطلب غوصاً عميقاً في ذلك التاريخ ومعرفة شاملة به. وعلى هذا الأساس يرى أن ارتفاع وعينا بالتاريخ حري برفع إنسانيتنا إلى مستوى الواقع الذي نحيا فيه فنكون خُلفاء به وقادرين عليه.

ظل عبدالعزيز الدوري متمسكاً برسالته العلمية، لم يغره أي منصب آخر في الدنيا غير كرسي الأستاذية. ترفّع عن كل ما لحقه من سلوكيات فجّة. خرج منتصراً حين ظنوا أنهم هزموه. فصفة الكبرياء كالتي يملكها الدوري مانع حصين من الصعب اختراقه أينما وُجد. هو العراق، أبداً ينجو في نهاية المطاف مهما طال الزمن. لم يعرف الدوري اليأس وإن أغرقه الأسى. لذلك لم يتوقف عن البحث والتقصي وإعادة النظر فيما قيل ويقال من شواهد التاريخ. مراجعه، التي لم تعرف كيف تنام بلا تقليب، ظلت أبداً تتفاعل مع عقل يملك من المعرفة والشك ما يجعله يقيم طوال النهار في عالم قوامه الورق والحبر في سعي حثيث لاسترداد حقائق فقدت أو شوّهت وتشتت ما بين جاهل ومغرض وتقويمها. أراد أن يسابق الزمن وينتصر على شيخوخة أبى أن يستسلم لها. فظل ممسكاً بالقلم حتى سرت الرعشة في أصابعه بما لم يعد من الممكن أن تطيعه. مع ذلك ظلت رحى ذاكرته تعمل وتفيض من علمها على كل من يحضر مجلسه.

رحل عالمنا الجليل وشُيّع في عمّان صباح العشرين من تشرين الثاني 2010م تاركاً إرثاً لا يُفنى. كان من أجمل ما قيل فيه من كلمات قصيرة مرتجلة في مجلس عزائه، إنه: لم يجمع العرب على محبة شخصية كما أجمعوا على محبة عبدالعزيز الدوري.



د.عبدالعزيز الدوري: التراث أساسي في تكوين الهوية

يُعَدُّ التاريخ من العوامل المهمة في تسجيل تراث الأمم والشعوب وتكوين هويتها. ما دور عالم التاريخ والمؤرخ في حياة الأمة؟

علم التاريخ في الأساس هو ما تحفظه ذاكرة الأمة مكتوباً أو شفهياً، أو ما تخلفه من آثار عن مسيرتها في الزمان والمكان، وهو عنصر أساسي في تكوين هوية الشعوب والأمم، وهو لذلك الخلفية اللازمة لفهم الحاضر، وعامل في مسيرتها أو في التخطيط للمستقبل.

نحن نقرأ التاريخ ونفهمه عن طريق المؤرخ، وما لا يذكره المؤرخ لا وجود له، إلا إذا توافرت آثار دالة، أو ما يبقى في الذاكرة الجماعية. وقد تكون لمؤرخي فترة أو فترات اهتمامات معينة ومناهج في كتابة التاريخ لتعقبها. وقد تدخل في فترة تالية اهتمامات ومناهج أخرى، ما يُحدث تغييراً في المناهج، وإعادة نظر في كتابة التاريخ. لذلك يمكن أن يكون للتاريخ دور في سياسة الأمة أو البلد الخارجية، وفي توجهاتها المستقبلية، وفي برامجها الإصلاحية، وفي مسيرتها العامة.

يشكل الدين الإسلامي عنصراً مهماً في تكوين الهوية العربية. ما الدور الذي يمكن أن يؤديه الدين في الوحدة المنشودة للأمة العربية؟

إن الحديث عن الوحدة العربية وغيرها

يتطلب استيعاب حركة التاريخ من جهة، والحاضر من جهة أخرى.

وأود أن أوضح هنا أن الدعوة إلى الوحدة تستمد أصولها من فكرة «العروبة»، أو فكرة «الأمة العربية» التي تكونت في التاريخ. والإسلام هو الذي أكد الرابطة اللغوية والثقافية العربية، ليجعلها أساس الانتماء والرابطة الأولى، ولا يخفى أن البلاد العربية، كما نعرفها، تحددت في إطار من الإسلام والثقافة العربية عبر المسيرة التاريخية.

أكدتم من خلال كتاباتكم التعاون الفكري، والثقافي، والسياسي في صياغة التاريخ قديماً بين العرب وغير العرب. هل يمكن لذلك أن يتكرر ويتجدد في هذا العصر؟ وكيف يمكن للأمة العربية أن تعزز علاقاتها مع الدول الإسلامية؟

يلاحظ أن التعاون الفكري والثقافي في التاريخ بدأ في إطار دولة واحدة، ثم استمر في إطار أمة واحدة. والمهم أن لغة الثقافة في الأساس كانت اللغة العربية، وهذا خلَّف تراثاً ثقافياً مشتركاً بين البلاد العربية والإسلامية. نحن أمام دائرتين، واحدة أوسع من الأخرى، عربية وإسلامية لا تعارض بينهما. ومن المهم والمفيد إظهار المشترك بينهما وتأكيده. ويحسن إنشاء معاهد في مختلف البلاد العربية والإسلامية لتعليم لغات تلك البلاد وآدابها لأهميتها في التفاهم والتقارب، بالإضافة إلى تنمية المشترك الثقافي، ويمكن أن يكون ذلك بالتعاون بين البلاد المعنية.

يلزم، أيضاً، تقوية المنظمات العامة وتنشيطها عربية وإسلامية كالجامعة العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، من جهة تمتين التعاون بينهما لخدمة العرب والمسلمين.

بالنسبة لعلم التاريخ، أنت تدعو وتمارس تاريخاً يجمع بين عوامل الدين، والاقتصاد، والجغرافيا معاً لفهم الظواهر التاريخية وحركة الحضارة، ولعل المؤرخين ابن خلدون وتوينبي فعلا الشيء نفسه. كيف يمكن لمؤرخي هذا الزمن من العرب والمسلمين أن يجمعوا بين دلائل العقل والنقل في فهم التاريخ؟

يمكنني التحدث عن المؤرخين العرب فحسب. أما المؤرخون الغربيون الآخرون فلا أعرف إلا بعض كتبهم المترجمة، فلا أتحدث عنهم. أقول ابتداءً عن التاريخ عند العرب والمسلمين إنه يعد من العلوم النقلية، والنقد فيه ينصب على عدالة الرواة أو المصادر، وقد ينصب، بدرجة أقل، على متن الرواية. لذا شاع أن المؤرخين العرب يسردون الأخبار والروايات دون نقد، وهذا غير دقيق، فهناك انتقاد للروايات أولاً، وهناك تشكيك في روايات أو تفضيل بعضها. هذا بالإضافة إلى الصورة التي تعطيها مجموعة الروايات عن حدث، أو شخص، أو أمر، وهي تختلف عند التدقيق من مؤرخ لآخر. ولا نغفل مؤرخين أبدوا رأيهم صراحة في الروايات والأخبار. وجاء ابن خلدون ليضيف شرطاً آخر قبل نقد المصادر، وهو موافقة الأخبار لطبيعة العمران، وهو شرط لم يحدد ولم يجد طريقه.

هكذا نجد العقل إلى جانب النقل في انتقاء الروايات، وفي الصورة التي تعطيها مجموعة الروايات عن موضوع ما، وفي تقييم الرواة والمؤرخين. وفي الفترة الحديثة يأتي موضوع تأريخ التاريخ وفلسفة التاريخ لدراسة المؤرخين ومعرفة مناهجهم وميولهم واتجاهاتهم كضرورة أولى في البحث التاريخي. هذا بالإضافة إلى التحليل والنقد في الكتابة التاريخية. أما سرد الروايات والمعلومات فلا يُقبل وحده في البحث التاريخي.

ومن منهج البحث أن يحيط الكاتب في التاريخ بالمصادر الأولية كافة، وأن يدقق في ميولهم واتجاهاتهم، وأن يتعرف على الدراسات الحديثة قبل البدء في الكتابة، ليكون محيطاً بالمادة والآراء، ولا بد أخيراً من القول إن العقل يغلب في الكتابة التاريخية الحديثة.

المؤرخ يتناول عوامل عديدة في عملية كتابة التاريخ، فأحدهم يركز على العامل الاقتصادي مثلاً، وتوينبي يركز على دور النخبة الإبداعية في التاريخ. ما توجهكم في هذا الخصوص؟

إن فلسفة التاريخ مهمة لتجاوز الجزئيات إلى الكليات، وتجاوز الأحداث إلى دلالتها، وتجاوز التفاصيل إلى الخطوط العامة التي تنظمها. وقد أجد في فكرة التاريخ أو في فلسفة التاريخ لمؤرخ أو فيلسوف ما أعجب به وأفيد منه أو ما أختلف معه، ولكنني لم أقتنع يوماً بأن عاملاً واحداً يمكن أن يستأثر بحركة التاريخ.

وجل من كتبوا في فلسفة التاريخ ركزوا على التاريخ الغربي، وعدوه التاريخ الحي، بل ومحور التاريخ العالمي، وهذا فيه نظر. فقد يكون كذلك في العصر الحديث، ولكنه لم يكن كذلك في التاريخ القديم أو الوسيط.

لقد كانت لي محاولتان في تفسير التاريخ العربي الإسلامي: الأولى في تاريخ «صدر الإسلام» «القرنين الأولين للهجرة»، والأخرى في تفسير التاريخ العربي الإسلامي حتى مطلع القرن العشرين «مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي». وفي الكتابين ركزت على العناصر الرئيسة التي كونت هذا التاريخ والخطوط الرئيسة لتطوره.

في صدر الإسلام كان الالتفات إلى الصراع التاريخي بين البوادي والحواضر، ثم ظهور الإسلام ودوره التاريخي في توحيد العرب، ثم انطلاقهم بالفتوح لتكوين دار الإسلام، ثم الصراع بين المبادئ الإسلامية، ورواسب المفاهيم القبلية لتنتصر المبادئ الإسلامية قبل نهاية الفترة.

أما الكتاب الثاني، فتناولت فيه الخطوط الرئيسة في التطور العام حسب مراحله: من الأمة والجهاد، فالإسلام والقبلية، ثم المجتمع التجاري وازدهار المدن، أما رابعها ففي تسلط الأجنبي وبدء الإقطاع العسكري، ثم الركود الاقتصادي، والتخلف، والإقطاع العسكري.

بيني وبينكَ يا صَديقي

حينما أخلو إليّ أقولُ لي: من أنتَ ؟

لكن لا يردُّ سوى الصّدى، من أنتَ ثانيةً !!

وها إنّي كبرتُ وما اهتديتُ إلى جوابْ

جرّبتُ أدخلُني لأقتلَ حيرتي

فوجدتُني بشَراً كثيراً

بعضهُ ينعى -على بابِ الدقائقِ- عمرَهُ الماضي..

وبعضٌ ساهرٌ في الحزنِ يكبرُ في غيابةِ جُبّهِ

يبكي الذينَ تصرّموا من أهلهِ وصِحابِهِ..

والبعضُ ما زالتْ لديهِ وشائجٌ

بالحلْمِ والفرحِ اللّذينِ تحدّيا هذا التُّرابْ

بيني وبينكَ يا صَديقي:

لا يزالُ الوقتُ يفتكُ بي..

نهاري كوكبٌ مُتوهِّجٌ بالكدحِ والشكوى

ولَيلي كوكبٌ مُتوهِّجٌ بالهجسِ والنجوى

وبينهُما

يظَلُّ الوقتُ ينسجُ لي مؤامرةَ اكتئابْ

حُلْمي عصاً سحريّةٌ

أُلقي بها فتجيءُ بالفرحِ المُغيّبِ

خَلفَ أبعادِ البحارِ السُّودِ

أو خلفَ النجومِ بأفقها

أو خلفَ أكتافِ الهضابْ

وأعودُ بالشمسِ التي انتحرتْ

على حبلِ الغروبِ

لكي يعودَ لي الصباحُ مُحمّلاً بالأغنياتِ

فلا أفيقُ على غرابْ

بيني وبينكَ يا صَديقي:

لم أزلْ جُملاً مبعثرةً على أطرافِ دائرةِ الحياةْ

فمَن سيجمعُني لأُطبعَ في كتابْ؟!!

شعر: جاسم محمد عساكر



العطر

ليس ثمة ما يترك أثراً في النفس ما يتركه العطر في نفوس الناس وفضاءاتهم وذكرياتهم وليلهم ونهارهم. في مقدماته جميل، وفي خواتيمه أجمل. لقد جعل له في التاريخ فصولاً، وفي الصناعة تاريخاً، فكان طيباً عطّر به الشعراء عالمهم وعالم من يحبون متفرقاً في رياحينهم وأزاهيرهم وفتيت مسكهم.

وكما عطر الشعراء فضاءات التاريخ بقصائدهم الساحرة، كان للعطر تجارته وصناعته وطرقه وقوافله ومدنه وأسراره الساحرة.

لا ينسى أهل الشعر والعطر من امرئ القيسِ خيله ولا فتيت مسكه، كما لا ينسون كيف عطر نزار كثيراً من شعره بياسمين دمشق الساحر.

فريق القافلة سبر غور تلك الفضاءات وقطف من الطائف بعض وردها، ومن دمشق بعض ياسمينها، ولملم من آثار الأطلال ومما سقط على طريق القوافل بعض ذكريات العطر وحكاياته.

العطر في الوجدان الشعري العربي

بقي العطر قروناً رفيق درب الشاعر العربي، ومكوناً أصيلاً من مكونات القصيد الجمالية.

على مدى قرون هي عمر ذاكرة الشعر العربي، لم تتراجع يوماً مكانة العطر، بوصفه مكوناً عميقاً من مكونات أكثر اللحظات الشعرية الأثيرة ارتباطاً بوجدان الشاعر والمتلقي على السواء. رائحة اللحظات، رائحة الذكريات، التي كانت دائماً الأقرب والأحب والأكثر استحواذاً على المخيلة، تلك الرائحة التي تفنن الشعراء في اختيار أزهارها، ليرشوا بها أثرى المشاهد حميمية وولهاً وعشقاً برائحة العطر.

فهذا امرؤ القيس في بواكير مشاهد العشق التاريخية يأسره من محبوبتيه أم الحويرث وجارتها أم الرباب رائحة المسك الممتزج بالقرنفل:

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِث قَبْلَهَا
وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ
إذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُمَا
نَسِيْمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ

ويتجاوز ولع المغامر امرئ القيس رائحة عطر محبوباته وكلهن من بنات النعمة والثراء فيقدم لنا وصفاً لأسلوب حياتهن الفخم، فمحبوباته من أولئك اللائي يطيبن مخادعهن بفتيت المسك:

وتُضْحِي فَتِيْتُ المِسْك فَوْقَ فراشها
نَؤُوْمُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ



ويفسر لنا هذا الأسلوب العربي القديم في التطيب الذي كان متبعاً عند نساء العرب في الماضي، إشارات الشعراء التي كانت تركز دائماً على موضع محدد يضوع منه عطر المرأة العربية قديماً هو ردن «كم» ثوبها، يقول الأعشى:

إذا تقومُ يضوعُ المسكُ أصورةً
والزنبقُ الوردُ من أردانها شملُ

وعلى الدرب نفسه يسير ابن هانئ الأندلسي، حين يقول في عطر محبوبته:

هلما نحيي الأجرع الفرد واللوى
وعوجاً على تلك الرسوم وعرجا
مواطئ هند في ثرى متنفس
تضوّع من أردانها وتأرجا

بينما اشتق ابن معتوق الأندلسي من كل ملمح من ملامح محبوبته عطراً وكأنه يرش معطراً من هذا الخليط في جو اللقاء، يقول:

خفرت بسيف الغنج ذمّة مغفري
وَفَرَتْ بِرُمْحِ القَدِّ دِرْعَ تَصَبُّرِي
وجلت لنا من تحت مسكة خالها
كافور فجر شقَّ ليلَ العنبرِ

أبو نواس، أيضاً، يرسم صورة فواحة العطر لهذه الفاتنة، مزج فيها بين اللون والرائحة حين يقول:

يا قَمَراً أَبْرَزَهُ مَأْتَمُ
يَنْدُبُ شَجْواً بَيْنَ أَتْرابِ
يَبْكِي فَيَذْرِي الدُّرَّ من نَرجِسٍ
وَيَلْطُمُ الوَرْدَ بِعُنَّابِ

ولقد احتلت رائحة الخزامى مرتبة عالية في أشعار العرب، حتى جاورت رائحة المسك في جوزائها، فعطروا بها أصفى اللحظات الشعرية والإنسانية التي سطروها شعراً. فهذا عبيد بن الأبرص يقول:

وَمِلْنَ إِلَيْنَا بالسَّوَالفِ وَالحُلَى
وَبالقَوْلِ فيما يَشْتَهي المَرِحُ الخَالي





كَأنّ الصَّبَا جـاءتْ بريـح لَطيمَة
مِنَ المِسْك لا تُسطاعُ بالثّمن الغالي
وَرِيـحِ خُزَامَـى في مَذانب رَوْضَة
جَلا دِمْنَهَا سارٍ مِنَ المُزْن هَطّال

وهذا عنترة يقول:

وريحُ الخُـزَامـى يُـذَكِّـرُ أنْفي
نَسـيم عَـذَارَى وذاتَ الأيــادي

وفي الشعر الحديث، تجاوز حضور العطر في القصائد كونه رائحة وحسب، إذ تحول إلى رموز شعرية ذات دلالات مضمونية، لكنها مضامين عطرية، أيضاً، اشتقت من الزهر، حتى إن قصائد بأسرها عنونت بأسماء زهور أشهرها الأقحوان والريحان. نجد هذا في «الريحان» قصيدة مظفر النواب، و«زهرة أقحوان» قصيدة إيليا أبوماضي، و«زغب الأقحوان» قصيدة إدريس علوش، و«ثورة الأقحوان» قصيدة جمعة عبدالعال، و«جمرة الأقحوان» قصيدة مصطفى بدوي.

ثم أصبحت الروائح مكوناً من مكونات الفعل الشعري لدى شعراء الحداثة، فأصبحنا نطالع قصائد تحمل عناوينها إشارات لفعل شعري خاص لهذا الحضور الطاغي لروائح امتزجت بفكر الشعراء وسكنت أعماق أكثر لحظاتهم الإبداعية عمقاً في قصائد مثل «رائحة الحياة»، و«رائحة البكاء» و«رائحة المطر»، و«رائحة الكلمات» و«رائحة الأرض» و«رائحة بيضاء»، في دلالة على تطور حضور العطر الذي أشرنا إليه سلفاً بوصفه فكرة إبداعية رافقت رحلة القصيدة العربية عبر القرون.

فهذا عدنان الصائغ يقول في قصيدته «ندم القرنفل»:

كلما هذّبتْ دمَهُ حكمةُ الكهل
أغوتهُ تجربةُ الطفل
قلتُ: تجيءُ المدينةُ
أشجارُها ندمٌ أخضرٌ يتفتّحُ تحتَ رذاذ النوافير، مرتعشاً
والمصابيحُ حافيةٌ تتسلّقُ أعلى النوافذ
أعلى قميصك، منفتحاً للحمام يطيرُ إلى غابة السنديانْ

إن القرنفل هنا تجاوز كونه زهراً يذكر لشذاه، إلى رمز للمدينة التي أصبح لها في وجدان الشاعر إيقاع رائحة القرنفل التي يحبها.

غرائب العطور

مسك الغزال وعنبر الحيتان

ليست كل مكونات العطور نباتات وأعشاباً وزهوراً، بل من بعض الحيوانات يضوع أجود أنواع العبق، وتُصنع منه أجود أنواع العطور الشرقية. من بين اللحم والفرث تخرج أغلى المكونات العطرية لأغلى العطور العربية مثل المسك والعنبر. فالمسك عطر مصدره لذة الظبي، إذ ينتج من مادة في الدم تنمو في سرة الظبي وعندما يأتي موعد خروجها، تتضجر الظباء، فتحك سرتها على أحجار الجبال، وتجد في ذلك لذة حتى تسيل منها المادة المكونة من المسك. وتوجد ظباء المسك في كل من الصين وجبال التبت والهند. ولقد ذُكر المسك في القرآن الكريم وحديث الرسول- صلى الله عليه وسلم- وفي قصائد الشعراء، ما أعلى قدره كطيب عند المسلمين فتطيبوا به قدوة بالرسول- صلى الله عليه وسلم- لقوله: «أطيب الطيب المسك».

كما أن العنبر كالمسك يستخرج من مصدر يستغرب أن ينتج عطراً، أو رائحة زكية، فهو مادة شمعية توجد في أمعاء الحيتان العنبرية، وعندما تجف بعد أن يقذفها الموج تصبح زكية الرائحة. وكان العرب يجلبون عنبرهم من سواحل الشحر في اليمن وعُمان.

من المسك والعنبر ومن غرائب العطور صنع المسلمون عطورهم. فالمسك والعنبر كانا مكونين لعطر يسمى «الغالية» تطيب به خلفاء العصرين الأموي والعباسي، وحفظوه في أوان من الذهب الخالص، ومن الزجاج المعتم، ولقد سمي بالغالية لغلاء ثمنه وندرة مكوناته. ولعل أشهر غالية صُنعت كانت غالية هشام بن عبدالملك، وذلك لجودة مسكها وطيب عنبرها.





قوافل العطر

تاريخ تجارة الطيب والبخور عند العرب والمسلمين الأوائل.

لم تكن قائمة البضائع التي يتاجر فيها العرب، قديماً، طويلة. لكنها كانت تشتمل على سلع للرفاهية مثل: الحرير، والثياب الأرجوانية، والتماثيل المنحوتة والأبنوس، والزعفران وخشب الصندل والقرفة. وكانت قوافل طريق الحرير التي تنطلق من الصين إلى أوروبا، مارة بالهند وخراسان والشام وبلاد ما وراء النهرين والجزيرة العربية ممولاً مثالياً، لكل البلدان التي تمر بها، لما تفتقر إليه تلك البلدان من موارد. فنشأت مع طريق الحرير وقوافله الرغبة في معرفة ما يمتلكه الآخر وامتلاكه. لذا كان التبادل متاحاً مع هذه القوافل التي تعبر العالم من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. إن مسيرة القوافل التجارية كانت بمنزلة ناقل للثقافة والحضارة من خلال بضائعها المتنوعة. كما كانت قوافل قريش الشهيرة برحلتيها في الشتاء والصيف، إذ تنطلق صيفاً باتجاه بلاد الشام، وشتاءً باتجاه اليمن والحبشة. إن في هذا التنوع في الاتجاه تنوعاً في السلع أيضاً. فما يوجد في دمشق لا يوجد في عدن.

مع هذه الطرق المتاحة للتجارة برز العطر سلعة رابحة، ومهنة متاحة، إذ كانت مكوناته تأتي من الشرق والغرب. فمن ساحل الشحر يأتي العنبر، ومن دارين في بلاد البحرين يأتي المسك، ومن بلاد الحبشة يأتي اللبان، ومن الهند يأتي الصندل. فمارس القرشيون مهنة العطارة في ظل توافر هذه المكونات العطرية، ومن ثم صدروا عطورهم بعدما استوردوا مكوناته. ولقد ورد في كتاب «مثالب العرب» لهشام بن الكلبي أسماء مَنْ مارس هذه المهنة وهم: أبو طالب بن عبدالمطلب، وهشام بن المغيرة، وأبو عبيدة بن الجراح، وأمية بن خلف، وعبدالله بن جدعان.

كما كانت أسماء بنت مخرمة بن جندل أم أبي جهل تستورد عطراً ثميناً من اليمن وتبيعه لنساء قريش.

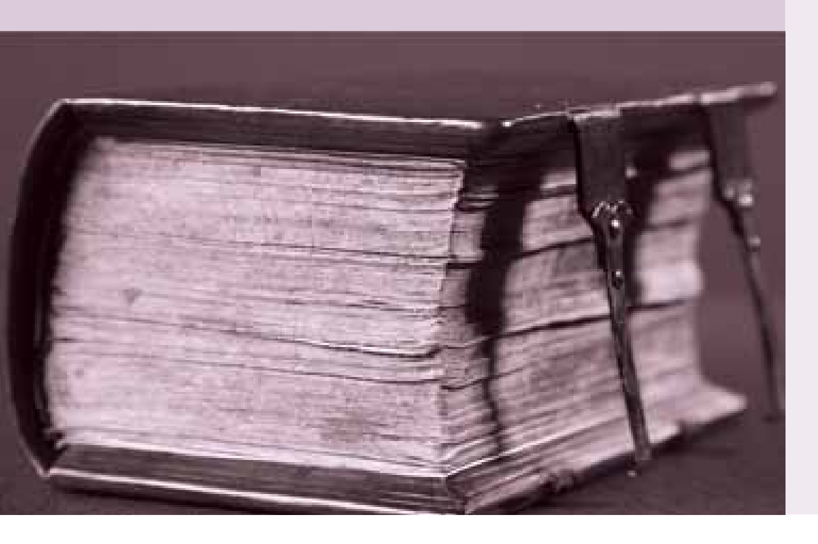
لقد كان القرن التاسع الميلادي إيذاناً ببدء تجارة واسعة للعطور في العالم الإسلامي، وذلك بعد اتساع رقعة الدولة العباسية، وكثرة مواردها، وتنوع أراضيها، وتوطد علاقاتها مع بلاد الصين والهند أكبر مُصدرين لمواد العطور، وانتشار حياة الدعة والترف في قصور المترفين، ما جعل العطر مطلباً للخاصة والعامة، فانتشرت أسواقه وكثر صناعه، وتعددت أنواعه. فكانت مهنة العطارة من المهن الرفيعة التي يمتهنها علية القوم، ويصرفون من وقتهم الثمين مساحة لتركيب عطورات يتفاخرون بتوليفاتها. ولقد عُرف من الوزراء في العصر العباسي من يقوم بخلط عطوره بنفسه مثل: جعفر بن يحيى البرمكي، كما كانت أم الخليفة المقتدر تصنع بنفسها ما تتطيب به.

إن ولع العرب والمسلمين بالعطر، وانشغالهم التاريخي بالتجارة جعل منهم سادة هذا النوع من الاتجار، فصدروا ما استوردوه متباهين بما صنعوه من تركيبات عطرية أخاذة. فُفتحت لهم أبواب أسواق السند والهند، بعدما جلبوا من الصين والهند ما صنعوا منه عطراً عربياً بامتياز.

مصنفات في العطر

لم يكن العطر في شعر العرب إهداءً وتغزلاً بحبيب يضوع فتيت المسك من فراشه، بل كان علماً صنفوا فيه الكتب، ووضعوا فيه المؤلفات. ذكر ابن النديم في فهرسه، في الكتب المؤلفة في العطور، كتابَ العطر الذي ألّف ليحيى بن خالد، وكتابَ العطر لإبراهيم ابن العباس، وكتابَ العطر للكندي، وكتابَ كيمياء العطر للكندي، وكتابَ العطر لحبيب العطار، وكتابَ العطر وأجناسه للمفضل بن سلمة، وكتابَ العطر وأجناسه ومعادنه لرجل جبلي لم يذكر اسمه.

(الفهرست لابن النديم، ص385، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ-1994م)





العطر ذكرى

العبق لا يبقى في ذاكرة الرسائل التي من ورق، لكنه يترك أثراً لا ينسى لأول وهلة عند فض الرسالة. لذا فإن الحبيبة في الزمن الجميل كانت تُعطر رسائلها إلى الحبيب بعطرها، كي تضوع رسائلها برومانسية الورد. فكم من الحروف التي سال حبرها من قطرات العطر، فاحتار الحبيب: هل هذه دموع الحبيبة أم ماء الورد؟! فهل كانت مي زيادة تعطر رسائلها لجبران؟ وهل كانت غادة السمان تعطر رسائلها لغسان، مثلما تفعل الحبيبات قديماً؟!



العطر شؤم

ربما لا يخطر على بال أحد أن العطر زكي الرائحة كان نذير شؤم! هكذا كان الحال في الجاهلية عند بعض قبائلها. فيقال: «أشأم من عطر منشم». ومنشم حسب رواية الأصمعي امرأة تسكن مكة وتمتهن العطارة، حيث تبيع العطر والحنوط. وكان القوم إذ أرادوا دخول معركة غمسوا أيديهم في عطرها، فيقال إنهم دقوا عطر منشم استعداداً لحرب ضروس. وكانت قبيلتا خزاعة وجرهم إذا أرادتا الاقتتال تطيبتا بعطرها فكثر الضرب والقتل. قال زهير بن أبي سلمى في ذلك:

تداركتما عبساً وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

الطيب..
وصية النبي للأمة

تؤكد جميع الأحاديث التي صحَّت عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه أريد للأمة الإسلامية أن تكون أمة عطرة، زكية الرائحة، ولاسيما في تلك المناسبات التي تلتقي فيها جماعة المسلمين، حرصاً على أن يكون هذا اللقاء لقاءً محبباً إلى نفس كل فرد من أفراد الجماعة، وحتى يكون التعطر أبرز سمات هذه الجماعة، وأيضاً تعطر الزوجين وتزيُّن كل منهما للآخر، ما يضمن أجواءً من الإقبال والأريحية والسعادة، ومن ثم الاستقرار للأسرة التي هي قوام المجتمع المسلم. ولهذه الأسباب وغيرها، ولما للطيب والعطور بشكل عام من وقع طيب في النفس، فليس عجيباً أبداً أن نجد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يحتفي بالتطيب أيما احتفاء، بل يحرص على أن يبرز هذا التعلق منه- صلى الله عليه وسلم- بالطيب، بل يوصي أمته بالتطيب.

فهذا أنس بن مالك- رضي الله- عنه يقول: «ما شممت عنبراً قط، ولا مسكاً، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله- صلى الله عليه وسلم-»، وقد كان- صلى الله عليه وسلم- يحرص على أن يتطيب بأطيب ما يجد من الطيب. وهذه عائشة- رضي الله عنها- تقول: كنت أطيب النبي- صلى الله عليه وسلم- بأطيب ما يجد، حتى أجد وبيص الطيب في رأسه ولحيته». رواه البخاري. وقالت، أيضاً- رضي الله عنها-: «كنت أطيب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لإحرامه حين يحرم ولحلِّه قبل أن يطوف بالبيت». رواه البخاري.

وبينما يصف أنس بن مالك النبي- صلى الله عليه وسلم- نجده يقول: «كَانَ رَبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ، أَزْهَرَ اللَّوْنِ لَيْسَ بِأَبْيَضَ أَمْهَقَ وَلَا آدَمَ، لَيْسَ بِجَعْدٍ قَطَطٍ وَلَا سَبْطٍ رَجِلٍ، أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، فَلَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ، وَقُبِضَ وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعَرَةً بَيْضَاءَ قَالَ رَبِيعَةُ فَرَأَيْتُ شَعَراً مِنْ شَعَرِهِ فَإِذَا هُوَ أَحْمَرُ، فَسَأَلْتُ فَقِيلَ احْمَرَّ مِنَ الطِّيبِ». رواه البخاري.

أما حث النبي- صلى الله عليه وسلم- أمته على التطيب فنراه في حديث أنس- رضي الله عنه- قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صلى الله عليه وسلم-: حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» رواه النسائي.

ويؤكده، أيضاً، في حديث عَمْرُو بْنُ سُلَيْمٍ الْأَنْصَارِيُّ يقول أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ قَالَ أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ- صلى الله عليه وسلم- قَالَ: الْغُسْلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ وَأَنْ يَسْتَنَّ وَأَنْ يَمَسَّ طيباً إِنْ وَجَدَ. قَالَ عَمْرٌو أَمَّا الْغُسْلُ فَأَشْهَدُ أَنَّهُ وَاجِبٌ وَأَمَّا الِاسْتِنَانُ وَالطِّيبُ فَاللَّهُ أَعْلَمُ أَوَاجِبٌ هُوَ أَمْ لَا وَلَكِنْ هَكَذَا فِي الْحَدِيثِ». رواه البخاري.



الطائف

واحة الورد الجوري المعلقة فوق جبال السروات.

تلتقي بالطائف المأنوس، كما يحلو لأهله أن يطلقوا عليه، معطيات عدة تجعل منها عروس المصائف السعودية بلا منازع. أرض خصبة، وبتلات ورد جوري تنقاد في طواعية قرباناً لمعامل التقطير في المصانع الصغيرة المنتشرة بمرتفعات الهدا والشفا، بهدف الحصول على رحيقها النادر. يؤكد المزارعون أن الورد الجوري بالطائف لا مثيل له في العالم، فهو أقوى رائحة وعطراً من الورود المشابهة له في غير أرضه. ويعود السر في ذلك إلى التربة التي تُسقى عادة بماء المطر وندى الضباب. يبيع المزارعون كل ألف وردة بخمسين ريالاً سعودياً تقريباً (نحو 13 دولارًا)، مع العلم بأن كل شجرة في موسم الحصاد، الذي يستمر عادة شهر ونصف الشهر، تنتج قرابة 250 وردة يومياً.

يمر إنتاج عطور ورد الطائف بمرحلة طويلة وشاقة في معامل الإنتاج البلدي، إذ توضع 20 ألف حبة ورد في قدر كبير، ويضاف إليها 50 لتراً من الماء، إضافة إلى 30 لتراً من ماء ورد العروس، ثم يحكم الغطاء ويترك ليغلي لفترة تراوح بين ست وسبع ساعات. بعد ذلك يستخلص منه تولة واحدة تعادل عشرة جرامات من الورد الطائفي.

ويقدر حجم العائد السنوي لسوق ورد الطائف من 30 مليون إلى 35 مليون ريال، منها عشرة ملايين قيمة عشرة آلاف تولة، و25 مليون ريال قيمة عشرين قارورة ماء ورد.

وقد كتب الكثير من الشعر في الطائف وطبيعتها الخلاّبة، خصوصاً مع ارتباط اسمها بالورد والعطر والأريج الفواح إلى خارج حدود أراضيها، وكأن قنينة ورد صغيرة تنقل مدينة الطائف بأكملها إلى حيث حلت الأقدام وسكنت الأرواح. من ذلك ما قال الشاعر حسين عرب:

كم لهونا بين أسراب الطيور
وتملينا بألوان السرور
وشدونا لا نرى من حولنا
غير جنات بها الحسن يمور
حبذا العيش بأكناف المصيف
بين نفح الورد والجو اللطيف
ملعب للحسن يجلوه الهوى
وظلال الدوح والغصن الوريف

ياسمين دمشق ونزار قباني

الياسمينُ الدمشقيّ
لهُ أظافرُ بيضاءْ..
تثقبُ جدرانَ الذاكرَةْ...

على قدر رقة الياسمين.. على قدر قوته! ينشب رائحته الساحرة في أعماق الوجود الوجداني بالقلب، وفي الذاكرة أيضاً. احتفى الشاعر نزار قباني كثيراً بالياسمين والورد الدمشقي. وله قصيدته المطولة «الوضوء بماء العشق والياسمين» التي تمتلئ حنيناً لكل ركن بالشام، وتعد واحدة من أبرز معالم شعر نزار، إذ ضم فيها معظم معالم التاريخ في دمشق، ما يبعث في القصيدة روائح وراء الحروف والسطور كأننا «نتنفسها» في المكان من حولنا:

الطيب والعطر في الشرق

المؤلفة: نادية الغزّي
الناشر: الدار العربية للعلوم ناشرون

بالنظر إلى الوثاق الوطيد بين المرأة والعطر، فقد تكون خير من يمثل العطر تمثيلاً مجسداً في الواقع والخيال حين تمشي وتنفعل وتتزين لمن تحب. لا تخلو منضدة امرأة من قنينة عطر تنشر سمة خاصة لشخصيتها وحضوراً بهياً من حولها دون أن تتفوه بكلمة. في هذا الإصدار تجمع الكاتبة نادية الغزي، من سوريا، أسرار الطيب والعطر من التراث العربي وتتغنى بعطر الشرق.

تقول المؤلفة: «فليتعطر أهل الدنيا بعطور الشرق... وليمزجوا عشرات الروائح العابقة في الكون... وليتطيب أهل الدنيا بالمسك والعنبر والمُرّ والنّد والبان... فحكاية العطر لعلها بدأت... أو لم تبدأ بعد... وَرَشات الشذى المنتشرة في آسية... تتحدّث كل صباح عن الألوان والغزلان والزهر.. فهي لن تسكت قط... حين تهتز أغصان الصنوبر.. وتطلق الجبال آهات عطورها... ليبدأ الشعراء بالسرد... وتنطلق الربابات تتسابق مع كل ناي... لتغنِّي «مَيّجنا» الطيب والعطر في الشرق».

تتنوع موضوعات الكتاب لتشتمل على بعض ما ذكر عن الطيب والعطر في القرآن الكريم، والطيوب الحيوانية، والعطور النباتية، والأسواق الكبرى في الجاهلية، ومع العطر والطيب في الحضارات القديمة، والعطور والأدهان المستخرجة من النباتات، والزيوت العطرية.





جئتُكُم ..
من تاريخ الوردة الدمشقيّةْ
التي تختصرُ تاريخَ العطرْ ..
ومن ذاكرة المُتنبِّي
التي تختصرُ تاريخَ الشِّعرْ ..
جئتكمْ..
والأضاليا ..
والنَرْجس الظريفْ
التي علَّمَتني أول الرسمْ ....
جئتكم..
من ضحْكَة النساء الشاميَّاتْ
التي عَلَّمتني أول المُوسيقى ...
وأول المراهقةْ ..
ومن مزاريب حَارَتنا
التي علَّمَتْنِي أول البكاءْ
ومن سجادة صلاة أمي
التي علمتني
أول الطريق إلى الله ....

هذا التسجيل الحي للوردة الدمشقية في نفس نزار يؤكد الأثر العظيم الذي يتركه العطر الطبيعي في المكان، ما يوقع الزائر في حب الرائحة المرتبطة بالمكان إلى درجة تثير العديد من الذكريات لمجرد عبق في الأرجاء. وبما أن الياسمين الدمشقي يتميز برائحته العطرة النفاذة، ولونه الطاهر النقي، فإنه يشبه الحبيبة الصادقة، ينعش الفؤاد والروح..

شكراً.. لطوق الياسمين
وضحكت لي.. وظننت أنك تعرفين
معنى سوار الياسمين
يأتي به رجل إليك
ظننت أنك تدركين
وجلست في ركن ركين
تتسرحين
وتنقطين العطر من قارورة و تدمدمين
لحناً فرنسي الرنين
لحناً كأيامي حزين



«صانع العطر»

من أجمل اللوحات، وأكثر الصور المستنسخة مبيعاً. رسمها المستشرق النمساوي رودلف أرنست 1854-1932م. تسجل اللوحة مرحلة من مراحل صناعة العطر، في المغرب العربي، وهي استخلاص الزيت العطري من الورد الجوري، بعد قطف الورد من شجيراته والتي تتم، عادة، في فصلي الخريف والربيع. تحمل هذه اللوحة الرائعة اسم «صانع العطر»، وهو الشيخ الطاعن في السن الذي يجلس في الزاوية اليمنى من اللوحة، حتى إنه لا يكاد يُلحظ أمام جمال الورد المنثال على الأرض وروعة الآنية الفيروزية وسحر فتاتين بجمال الورد! إن هذه اللوحة رائعة بشخوصها الأربعة وبالورد وبالمكان الذي هو بيت عربي بكل تفاصيله الشرقية وأثاثه البسيط. يجلس صانع العطر منزوياً في الظل ليراقب أهم مرحلة من مراحل صناعة العطر، وهي استخلاص الزيت العطري من الورد المقطوف تواً، بطريقة التقطير التي كانت متبعة في ذلك الوقت، وتعتمد على الحرارة. إن مكمن الخطر في هذه المهمة هو ارتفاع درجة الحرارة عن الحد المعقول، أو زيادة الفترة الزمنية في تعرض الورد المغمور بالماء للمصدر الحراري. لذا فإن صانع العطر الذي لا يبدي حراكاً ويجلس منزوياً في الظل يقوم بأهم عمل على الإطلاق في صناعة العطر. إنه المراقب الحذر الذي يراقب تلك الفتاة الجميلة خوفاً من أن تُدمر محصول الورد بجهل أو غفلة أو تناسٍ.

أنف «الأنف»

العقل الذي لا ينام والأنف القادر على تمييز آلاف من مكونات العطور.

تخيل لو أن شخصاً يناديك «أيها الأنف»!
في غراس الفرنسية لا تعد مناداتك بالأنف شتيمة، بل هي بمنزلة أن يقول لك قائل: أيها الأستاذ. إن تسمية الأنف في عالم صناعة العطور هو لقب يوازي لقب العطار الذي يمتلك من الحس الشمي ما يجعله قادراً على معرفة مكونات العطر، ونسب تركيز كل مكون على حدة. فالأنف قادر على فك سر التركيب، وتركيبة توليفة أخرى لا يستطيع فكها إلا نظيره في الإبداع والحس. كما يستطيع معرفة الخلل في العطر، أو الخلل في أحد المكونات. لذا كان الأنف ينتقي مكونات عطوره بدقة الكيميائي الحصيف، وحس المتذوق العارف بنفس الزبون.

إن رأس مال «الأنف» هو أنفه الحقيقي الذي لا تمر أمامه الرائحة مروراً سريعاً، بل تتمهل إلى أن يقتنصها كاملة. هو دائم اليقظة لا ينام حتى وإن نام رأسه. كما أن الروائح في ذاكرته مختزنة في خلاياه العصبية، جاعلاً لكل جزء من مكون الرائحة نظيراً له من الطبيعة. فمثلاً ربما كانت رائحة الغابة في ذاكرته نظيراً من مزيج خشب الصندل والعنبر ووردة بحيرة بتركيزات مختلفة. إن أنف العطار أكبر محلل يعرفه الناس. يمتلك من الدقة والحس والتحليل المنطقي للرائحة ما يجعله قادراً على صناعة عطر خلاب.

كثيرة هي الأنوف في عالم صناعة العطور اليوم، لكن الموهوبين منهم لا يتجاوز عددهم خمسين أنفاً في العالم. لذا كان استخدام هذه الأنوف من قبل شركات العطور مكلفاً للغاية. فالأنف هو الذي يفكر في تصميم روائح لأشخاص بعينهم. والأنف هو الذي يفكر في رائحة يتم تسويقها


الأنف إرنست دالتروف


الأنف جان كارلوس


الأنف هنري آلمرز

على المستوى العام. والأنف هو الذي يفكر في مزيج ملكي يتحدى به أنوف أخرى في شركات منافسة على فك سر تركيبه. و«الأنف» يؤمّن على أنفه، ويتجنب مسببات الزكام، وكل ما يضر بالشم. فالأنف له مهمة محددة في الحياة، وهي استنشاق ما في الطبيعة من روائح زكية لتعبئتها في قوارير لتدوم أطول وقت ممكن.

من مشاهير الأنوف في العالم جان كارلوس 1892- 1966م الذي يُعدُّ أسطورة في عالم العطور. فقد أنتج خلال مسيرته المهنية عطوراً ظلت في الذاكرة مثل عطر مس ديور، كما كان معلماً لعدد من الأنوف أمثال جاك بولغ ومونيك شلنجر. ومن المشاهير، أيضاً، الأنف الشهير هنري آلمرز 1892– 1965م الذي صمَّم عطر جان باتو. أما الأنف إرنست دالتروف 1867–1941م فقد هاجر من روسيا إلى فرنسا ليؤسس أهم بيت للعطور الفرنسية، وهو بيت كرون الشهير بعطوراته الثمينة.

إن هذه الأنوف الشهيرة القادرة على تمييز 4.000 مكون من الرائحة إلى 10.000 مكون، لم تنتج خلال مسيرتها المهنية إلا عطورات لا تتجاوز أصابع اليدين. ورغم ذلك كان لها من الشهرة ما يؤهلها أن تكون أنوفاً تدخل التاريخ والذاكرة.

العطار الذي أصلح ما أفسده الحظ

عطر شانيل 5 حكاية أحجية ساقها القدر، وفك أسرارها الحظ، وأنف العطار أرنست بيكس. إنه عطر من وحي البحيرات وشمس الليل! هكذا عبّر عنه بيكس العطار الفرنسي الذي قام بتركيبته. فهذا العطر الأخاذ يُعدُّ أول عطر صناعي في العالم مُصنع من مركبات وسطية بين الكحول والأحماض العضوية تسمى الألدهيدات. ولد أرنست بيكس في موسكو عام 1881م إبان القيصرية الروسية لإدوارد بيكس الذي كان قيِّماً على أهم مصنع للعطور والصابون في روسيا. بعد أن أنهى أرنست دراسته الثانوية انضم تحت إمرة والده مساعداً في مختبر الصابون. لكنه لم يستمر طويلاً إذ غادر إلى فرنسا ليقضي خدمته العسكرية كمواطن فرنسي. بعد عامين عاد إلى موسكو، وكله شغف بمهنة العطارة. فدرس الكيمياء ما فتح له آفاقاً واتجاهات جديدة في صناعة العطور. وتحولت مهنته من فني في مختبر الصابون إلى مسؤول عن مختبر العطور. كان أول نجاح له عام 1912م مع عطر قام بتركيبه احتفالاً بالذكرى المئوية لمعركة بورودينو التي دارت رحاها بين نابليون والجيش الإمبراطوري الروسي. بعدها بعام أنتج عطراً آخر احتفالاً بالذكرى المئوية الثالثة لسلالة رومانوف الروسية. لقد كانت مناسبات عطور أرنست مغرقة في الاحتفالية الأرستقراطية، فهو كابن عائلة موسرة تمتهن العطارة، ومصدر قوتها من كماليات العائلات المترفة، لم يكن للفقراء أو الأيتام فسحة في خططه العطرية. لكن الحروب التي تضع أوزارها بين حين وآخر جعلت بيكس يتنقل كمقاتل في جيش أصبح عدوّاً لروسيا. ما جعل بيكس يغادرها نهائياً مع أصدقائه ومختبره العزيز إلى قلبه.



العطار إرنست بيكس

عندما تتحول جميع الحواس إلى أنف يقظ، فهذه هبة ربانية جديرة بالشكر والمران، والاستفادة من يقظتها. هكذا كان أنف أرنست بيكس الذي جاءته فرصة العمر لعرض تركيبات عطوره أمام الآنسة غابرييل شانيل في كان الفرنسية عام 1920م. فقد كان في أشد الحاجة لانطلاقة جديدة بعدما ودع الموسرين، إلى الأبد، في روسيا. فكانت انطلاقته الفرنسية جديدة على جميع الأصعدة، فشملت التركيب والزبون. لم يكن الزبون هذه المرة شركات عطور، بل كانت مصممة أزياء تطلب ببساطة عطراً يتماهى مع المرأة لا أن يكون أقوى منها، ويبقى ليلة كاملة خلافاً للعطور الأخرى. كان في تركيبات العطار أرنست بيكس ما تطلبه شانيل من الثبات والانسجام. فعرض مجموعته الأولى التي كانت مرقمة من العدد واحد إلى العدد خمسة. وبعد أن مر أنف الآنسة شانيل على العطور اختارت الرقم خمسة. وعندما سألها بيكس ما هو الاسم الذي ستختاره لهذا العطر، ابتسمت وقالت ببساطة: الرقم خمسة. لم يكن خمسة إلاّ دلالة على التركيب الكيميائي الذي ينتهجه بيكس في تسمية عطوراته كي لا يلتبس الأمر، ولم يكن اسماً مطلقاً.. لذا كان استغرابه يحتاج إلى تبرير من سيدة الموضة في القرن العشرين التي قالت: كنت الطفلة الخامسة في ملجأ الأيتام. وأرى أنه رقم حظي، لذا أصدر مجموعة أزيائي في اليوم الخامس من الشهر الخامس.

لم يكن بيكس ولا الآنسة شانيل يعلمان أن هذا العطر المكون من ياسمين غراس، وخشب الصندل، والفانيلا، وزهر البرتقال، والإيلنغ، سيكون من أهم عطور القرن العشرين وأشهرها، فهو كما قيل عنه «لو كنت في ازدحام شديد وشممت روائح عديدة فبإمكانك أن تميز من بينها العطر رقم 5». هو عطر لا يلتبس فيه أحد، ولا يحتار فيه أنف. هو هدية رائعة تُصلح ما أفسدته الظروف مع الأحبة، كما أصلح العطار ما أفسده الحظ مع شانيل.



نسخة من عطر رقم 5 من شانيل الذي أنتج عام 1920م.



إرنست بيكس وكوكو شانيل في غراس الفرنسية.





أسرار العطر

تركيبات وتوليفات وشركات قابضة.

من أين جاءت هذه الرائحة؟

أمن زهرة ياسمين أم فل، أو من عشبة غار ورائحة طل؟ رائحة دغدغت الحواس وأبهرت الأنفاس، وجعلت لحاسة الشم أجنحة لتحلق وراء الرذاذ.. من أين جاءت؟ تارةً، هي رائحة حديقة ياسمين شامي وأنت لا تزال في بيتك الذي تحيط به قساوة الطقس، ووعورة التضاريس. وتارة، هي رائحة غابة ساحرة تتزاحم فيها أشجار معمرة وأنت لا تزال في مكتبك الرمادي! روائح مختلفة تبهج النفس وتبعدك عن محيطك لتسافر بك إلى حيث الطبيعة. فمن هو الفاعل؟ من الذي يقوم بفعل نقلك من مكان إلى آخر في لحظة لا تستغرق سوى ثانية من عمر الزمن؟! من أين جاءت الحديقة؟! ومن أين جاءت الغابة؟! من يستطيع أن يقوم بهذا الفعل الفيزيائي؟!هل هي الكيمياء التي تنافس الفيزياء كعلم فتخترق الضوء والزمن بتركيبة كيميائية تسمى عطراً؟! وكيف للرائحة المنتشرة في الأجواء أن تحبس في زجاجة كأنها مارد المصباح؟!

عندما ينتشر رذاذ العطر تغلق عينيك لوهلة.. تستنشقه بملء إرادتك.. تختزنه ذاكرتك. بعدما اختزنته الشركات المُصنعة في قنينة زجاجية. فالمارد الذي في الزجاجة قد شغل العطارين والشركات، ليصنعوا مارداً يلبي ذوق الناس.

حين تذوب الزيوت العطرية في الكحول يفوح عبيرها، ولكي يبقى العبير أطول فترة ممكنة يحتاج إلى مسك أو صندل يقوم بتثبيت رائحته. إن هذه التوليفة البسيطة والسهلة المتنعة هي السر الكيميائي بين الذوبان والثبات، ولأن ذوبان الزيت العطري هو بمنزلة تفتح الوردة كانت مذيباتها الكحولية عديدة، وأكثرها استخداماً هو الإيثانول، وأجودها الإيزوبوبيل الذي يحتاج تعتيقه إلى مدة 7 أشهر، وهو الذي تستخدمه أكبر الشركات المصنعة للعطور، ليكون تفتح الوردة سلساً ومتناغماً كأنه سلم موسيقي، إذ لا مكان لمفاجآت الرائحة. في هذا العصر يستثمر كثير من الناس في النكهة والرائحة، وتتنافس الشركات في الاستحواذ على صناعة العطور لكتلة السوق، والتي تم توليفها من قِبَل عطارين لدور أزياء شهيرة، أو عطارين كيمائيين ينتمون لهذه الشركات التي حُصر عددها في خمس شركات فقط، تسيطر على صناعة العطور والنكهات في العالم هي: شركتان سويسريتان، وشركة أمريكية مقرها نيويورك، وشركة ألمانية، وأخرى متعددة الجنسيات بين ماليزيا وهونج كونج. وتملك معظم هذه الشركات استثمارات في التعليم والبحث والتطوير، ولقد حصل اثنان من كيمائيي إحدى هذه الشركات المسيطرة على جائزة نوبل في الكيمياء. إن الكيمياء سحر وسر، لذا كان لكل جسم كيمائيته الخاصة التي لا تتوافق بالضرورة مع الآخر. فربما كان عطر رائع يليق بشخص فيتفاعل معه مفتقاً عبقه، بينما لا يتفاعل مع جسم الآخر ويبقى بلا عبق يضوع. فالعطور المنتجة لم تَعد في العصر الحديث تخضع للذوق فقط، بل تخضع لمدى التفاعلات الجسمية معه. لذا كانت العطورات بتوليفات مختلفة، كما جاءت العطور مصنفة كعطر للمرأة يضم رائحة الورد والياسمين، وعطر للرجل بنكهة الخشب والتوابل، وعطر مركز وآخر مخفف بالماء والكحول، خاضعة، بذلك، للذوق وبصمة الجسد وسعر المنتج.





متحف العطور في برشلونة

نزهة في الرائحة والتاريخ



مجموعة قنينات عطر تعود إلى العائلة المالكة البريطانية في القرن التاسع عشر.

وراء كل زجاجة عطر قصة تستحق أن تروى. ووراء كل عبق حاسة شم تستحق أن يُشاد بها. ووراء كل إبداع عطري تاريخ يبقى. في برشلونة، وتحديداً في منطقة باسيودي جراسيا التي تُعدُّ من أهم المناطق لما قام عليها من مبانٍ هندسية معمارية فنية، يوجد أكثر المتاحف إثارة لحاسة الشم في مبنىً يعبق برائحة التاريخ ويحفظ حكايات العطور الثمينة، وقصص صناعتها، وتركيباتها التي تطورت عبر الزمن.

يُعدُّ متحف العطور من أهم المعالم السياحية في مدينة برشلونة في إسبانيا. تأسس عام 1963م، ليحفظ أهم المعلومات التاريخية والكيميائية العطرية. كما يهدف المتحف إلى استقطاب محبي الفن والباحثين الأنثروبولوجيين عن ثقافات الشعوب من خلال عطورها. ينقسم المتحف إلى قسمين منفصلين: الأول يحتوي على جرار العطر التي استخدمت لحفظ العطر في الحضارات القديمة مثل: الحضارة الفرعونية، واليونانية، والرومانية، والعربية. كما يحتوي على عرض بعض الكتب العربية التي تطرَّقت لصناعة العطور مثل كتب الكندي وابن سينا، وبعض المنمنمات والأدوات المستخدمة في صناعة العطور حسب تسلسل زمني، بالإضافة إلى عرض لتاريخ فن صناعة العطور في أوروبا الغربية، والتي بدأت عام 1221م على يد الرهبان لأغراض دينية. أما القسم الآخر فيمثل العصر الحديث، ويحتوي على زجاجات عطرية من العلامات التجارية المختلفة، ومعلومات مهمة حول هذه



مجموعة قنينات من تصميم باكارا كانت تحتوي على عطور كريستان ديور.

العطور وعطاريها، والإعلانات التجارية التي ظهرت فيها، وأهم الشركات المصنعة للعطور، والأزهار، والتوابل التي تشكل المادة الرئيسة للعطور. يضم المتحف 5000 عبق لرائحة عطرية، لا يستطيع الزائر شمها مرة واحدة، بالإضافة إلى العطور الطبيعية من القرن السابع عشر حتى التاسع عشر. كما يضم المتحف معرضاً لجميع العطور الصناعية الحديثة. إنه روض من العطر والحكايات الموغلة في جرار العطر وزجاجاته.

زجاجات تحمل عبق التاريخ

يحتوي المتحف في القسم الآخر على قطع فنية نادرة مثل قوارير العطور المُصنعة من الكريستال أو الزجاج الثمين، وتعود لزمن مضى. ومع كل قارورة توجد قصة تبدأ من فكرة تصميمها إلى تصنيعها، مثل قوارير عطورات كريستيان ديور لعطري مس ديور وديوراما، وهما من أهم عطور الدار وأعرقها. ولقد أنتجتها دار كريستيان ديور عام 1949م. جاءت نسخ هذين العطرين في تعبئة محددة الإصدار في الأربعينيات الميلادية في زجاجات كريستالية ذات ألوان مختلفة ومطلية بالذهب من تصنيع باكارا الشهيرة بتصنيع الكريستال الثمين. كما احتوى المتحف على نماذج لزجاجات نادرة، تكاد تكون فريدة لا توأم لها في العالم، مثل مجموعة فانتي، وهي زجاجات عطر صغيرة مصممة كتحفة فنية داخل بيضة نعام تعود إلى القرن التاسع عشر، وكانت من مقتنيات العائلة المالكة في بريطانيا العظمى. ولعل أكثر القوارير فنية هي قارورة عطر «ملك الشمس»، التي صممها الفنان سلفادور دالي عام 1945م، والتي تمثل رمزياً ملك فرنسا لويس الرابع عشر. وكان عطرها احتفالاً بنهاية الحرب العالمية الثانية. وقد صنعت من الكريستال الذي يمثل الأمواج وحددت باللون الأزرق والتذهيب. أما سداداتها فكأنها وجه للشمس، ولقد حُفر أسفل القارورة اسم الشركة المصنعة لها وهي باكارا.

جغرافية العطر

كما للعطر تاريخ فإن متحف برشلونة يحدد جغرافية مميزة للثقافة العطرية في العالم، حيث يحتل العرب والفراعنة المصريون مساحة كبيرة منه تشمل تفاصيل العطور وكيفية استخدامها في طقوسهم الدينية، ومدى أهميتها عندهم، وأثرها في حياة النساء. ولقد كشف المتحف بعض الحقائق التاريخية حول الحضارات القديمة، وذلك بعقد مقارنات بين عطور الشعوب وآنيتهم، ومدى تأثر بعضهم ببعض، وتأثير الحضارة الأقوى فيهم.

إن متحف العطور في برشلونة يمنح الزائر متعة مختلفة، حيث تجعله يعيد النظر إلى التاريخ والجغرافيا من خلال الرائحة، كما يعيد النظر في عدد قوارير العطور التي يتخلص منها حال انتهائه من العطر. إنه يمنح لهواة جمع القوارير الفارغة أفقاً أعلى للبحث عن قصص قواريرهم.. فلكل قارورة قصة وثروة من المعلومات.. ولكل عطر تركيبة ومناسبة.. ولكل أنف ذائقة خاصة.



رواية «العطر» للروائي باتريك زوسكيند

ربما كانت الرواية الشهيرة «العطر» تجنح بالقارئ إلى ما وراء المتخيّل والممكن والمعقول، لكنها تفتح آفاقاً من الدهشة والإعجاب بالشخصية الرئيسة «غرنوي»، الذي يملك حاسة شم حادة تفوق القدرات البشرية في إدراك النطاقات المتسعة للرائحة وتمييز العبق الخاص بمادة دون أخرى، وبكائن عن آخر! اختار الروائي الألماني باتريك زوسكيند باريس عاصمة عطرية تحتوي موهبة غرنوي الخارقة، والتي دعمها لاحقاً أحد العطّارين البارعين في رعاية موهبته الخاصة بتدريبه على اكتساب الفن القديم على خلط الزيوت الثمينة والأعشاب. لم تكتف عبقرية غرنوي بصناعة الروائح العادية، بل كانت تجذبه رائحة الفتيات في عمرهن الغض حتى كأنها «معرِّفٌ» أو هوية يستدل بها على كل فتاة على حدة. حتى صار شغفه تتبع مصدر الأريج الهائم. من يتتبع الأحداث بعين قارئ ترى أبعاداً فيما وراء المعاني، فستظهر له فلسفة مثيرة لم يسبق لها نظير، ألا وهي أن للرائحة مدارات وأفلاكاً كتلك التي تحيط بنا في الفضاءات! وأن لعبق الأجساد بصمات في العقل والفؤاد إذا تركت أثرها في بقعة هناك، دشنت مركزاً في الذاكرة يستثار كل مرة عند انبعاث الرائحة نفسها ولو بعد حين. تؤسس رواية العطر فكرة مهمة في المجمل هي أن العطر الثمين لا يمكن صناعته بمواد كيميائية فحسب، بل إن العبير الذي يسكن الذاكرة جدير بكل أنواع العناء.



مصطفى صادق الرافعي

العطر هدية

منذ زمن بعيد والعطور تُقدم هدايا نفيسة للملوك والخلفاء. ويتبادلها المسلمون في المناسبات، ويروى عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه لا يرد الطيب. فالعطر هدية تليق بجميع المناسبات، وتناسب جميع الأذواق، لأن كل عطر يكفل التنوع في مكوناته، وسيرضي، حتماً، جميع الأذواق، لذا تتنافس دور العطور في جميع المناسبات لتطلق عطوراً بقنينات محدودة الإصدار تعبيراً عن مناسبة ما. مداعبة بذلك رغبة المهدي في الشراء، ومراهنة على إعجاب المُهدى إليه. لقد كان عطر شانيل 5 في بداية إصداره هدية تمنحها كوكو شانيل لعملاء دار أزيائها المميزين، لكن هذه الهدية الجميلة أصبحت مرغوبة، فتحولت من هدية مجانية إلى سلعة للبيع، وربما، تشترى لتهدى أيضاً. ولعل مصطفى صادق الرافعي آمن بأن هدية العطر هي مرسول الأحبة، إذ ضمَّن في كتابه «أوراق الورد» خاطرته التي أرفقها مع زجاجة عطر ثمين هدية إلى محبوبته، قائلاً:

«يا زجاجة العطر: اذهبي إليها وتعطري بمس يديها وكوني رسالة قلبي لديها.. وهأنذا أنثر القبلات على جوانبك، فمتى لمستك فضعي قبلتي على بنانها، وألقيها خفية ظاهرة في مثل حنو نظرتها وحنانها، والمسيها من تلك القبلات معاني أفراحها في قلبي ومعاني أشجانها. وهأنذا أصافحك، فمتى أخذتك في يدها فكوني لمسة الأشواق.. وهأنذا أضمك إلى قلبي، فمتى فتحتك فانثري عليها في معاني العطر لمسات العناق. إنها الحبيبة يا زجاجة العطر، وما أنت كسواك من كل زجاجة ملأت سائلاً، ولا هي كسواها من كل امرأة ملأت حسناً، وكما افتتنت الصناعة في إبداعك واستخراجك افتتنت الحياة في جمالها وفتنتها، حتى لأحسب أسرار الحياة في غيرها من النساء تعمل بطبيعة وقانون، وفيها وحدها تعمل بفن وظرف، وأنت سبيكة عطر، كل موضع منك يأرج ويتوهج، وهي سبيكة جمال، كل موضع فيها يستبي ويتصبى، وما ظهرت معانيك إلا أفعمت الهواء من حولك بالشذا، ولا ظهرت معانيها إلا أفعمت القلوب من حولها بالحب».





مدام دي بومبادور

الملكة كليوباترا

العطر.. سلاح

يُعدُّ العطر سلاحاً في يد المرأة ضد الرجل. فكم امرأة من النساء، تفرق ذكرهن في كتب التاريخ، استطعن التحكم والسيطرة بقوة العطر. أولهن كانت الملكة الفرعونية حتشبسوت التي حكمت مصر عام 1479م قبل الميلاد. وعَدَّها علماء الآثار أول امرأة استخدمت العطر بعدما كان حكراً على الموتى. ولقد اشتهرت حتشبسوت بقوة شخصيتها ووعيها في إدارة مملكتها. أما الملكة كليوباترا والتي حكمت مصر عام 51 قبل الميلاد فقد كانت أكثر شغفاً للعطر، إذ كانت تسحر الملوك برائحة عطرها الذي لم يكن إلا من أعشاب تنمو على سفح جبل قبرصي. وحسبما قالت عالمة الآثار الإيطالية التي اكتشفت هذا الأثر أن رائحته قوية جداً وتشبه رائحة عطر بينو سيلفستر الذي أنتج عام 1955م. ولعل عشيقة الملك لويس الخامس عشر مدام دي بومبادور كانت من أكثر النساء حباً للعطر، إذ كانت تنفق مبالغ طائلة على العطور، وذلك لكي تأسر قلب الملك الذي خضع لها، وجعلها تسهم في إدارة بلاطه ومملكته.



في السينما..

أفلام من وحي عطر المرأة

للصور ثلاثة أبعاد، وللرائحة بُعد لا يُشم من خلف شاشات السينما والشاشة الفضية. لكنَّ للعطور قصصاً سينمائية تكاد تكون ضرباً من الخيال. فكيف لعطر امرأة ورائحتها أن يحول الأعمى لراقص تانجو بارع، ويحول اليافع لقاتل محترف؟! إنه الشغف برائحة المرأة العطرة.

لقد استحوذ فلم «عطر امرأة» (Scent of a Woman)الذي أنتج عام 1992م، من بطولة الفنان المبدع آل باتشينو، والذي كان يقوم في الفلم بدور عقيد متقاعد في الجيش أصيب بعاهة العمى، على إعجاب المشاهدين، وحصد عدة جوائز، أهمها ثلاث جوائز أوسكار. كان نصيب آل باتشينو منها جائزة أفضل ممثل، وذلك لأدائه المتميز في عدة مشاهد. ولعل أقوى تلك المشاهد ذلك المشهد الراقص الذي شاركته في أدائه الممثلة غابرييل أنور التي تقوم بدور امرأة شابة جميلة تدعى دونا. إن رائحة المرأة في الحفل الراقص هي التي جذبت الأعمى، وجعلت منه شخصاً يبصر بالأنف وتدله الرائحة، ما جعله يقوم بأداء راقص رائع محققاً بذلك إحدى أمانيه الأخيرة، قبل أن ينفذ خطته بالانتحار، وهي الرقص مع امرأة جميلة. ولكن كيف للأعمى أن يعرف المرأة الجميلة؟! من المفارقة الغريبة في الفلم الذي يحمل عنوان «عطر امرأة»، أنه لا توجد امرأة على ملصق الفلم. فقط يوجد آل باتشينو وكريس أودونيل الشاب الذي يعمل مرافقاً للأعمى. وكأن المرأة رائحة فقط!



أما فلم «العطر» المأخوذ عن رواية «العطر»، والذي أنتج 2006م، وتأخذ العطور فيه دور البطولة، فكان كل من يشاهده يتمنى أن تنبعث مع المشاهد تلك الرائحة الحية التي جعلت من بطل الفلم غرنوي قاتلاً، ليستأثر وحده برائحة المرأة التي كانت تقشر البرقوق. فامتزجت رائحتها الأنثوية مع رائحة البرقوق الذي اختزنهما في ذاكرته الشمية ويصنع منه عطراً لا يقاوم. كان الفلم مليئاً بالخيال والإثارة وبالحقائق التي لا يصدقها العقل وتتمحور حول العطر وتركيباته، وحول الجميلات اللاتي كان يقتلهن العطار ليصنع من رحيقهن رائحة لا تقاوم. إن باتريك زوسكيند مؤلف هذه الرواية يوحي من طرف خفي إلى أن العطر، في الأصل، هو رحيق امرأة في الطبيعة.







سوق العطارين..

ألف زهرة وألف عشبة

سوق العطارين من أوائل الأسواق المتخصصة في الوطن العربي، ولقد بدأ انتشارها منذ العصر العباسي حيث كانت توجد في بغداد أسواق عديدة أشهرها «سوق العطر» الذي يلي باب الغربة من دار الخلافة. بعدها توالى انتشار أسواق العطارين في مختلف بقاع العالم العربي، ولعل أقدمها وأشهرها سوق العطارين في القاهرة، وسوق الشورجة في بغداد، وأسواق العطارين في بلاد الشام مثل سوق بيروت، وسوق العطارين في البزورية في دمشق، وسوق العطارين في القدس. كذلك لم تخل بلاد المغرب العربي من أسواق العطارة، ولا باقي أنحاء الوطن العربي من دكاكينها المتفرقة، فهي كالصيدلية. والعطار مثل الصيدلاني الذي يبيع الدواء، وأحياناً أخرى، هو يشبه الطبيب النفسي الذي يبيع الأمل بالشفاء. تباع في دكان العطارة الأعشاب الطبية، والروائح العطرية، والمستحضرات والمساحيق، وذلك للعلاج والزينة، وسمي عطاراً نسبة إلى الأعشاب العطرية التي يبيعها أو يستحضر منها أدويته. لقد كانت لأسواق العطارة والعطارين مساحة في كتب التراث العربي، وقصصه. فالعطار من شخوص الحكايات الشعبية الذي تلجأ إليه النساء للبحث عن دواء ناجع، أو سم فاتك. والعطارون أصناف وأجناس، فمنهم النزيه ومنهم من يبيع الدجل والخرافات، لكنهم على الرغم من ذلك يعدون ضرورة في ذلك الزمن الخالي من التركيبات الكيميائية.

إن مهنة العطارة في العالم العربي مهنة يتوارثها الأبناء عن الآباء، فهي تجارة محاطة بالموهبة ومعرفة كل عشبة وكل زهرة وما يستخلص منهما، كما أن بضائع العطارين يستجلبونها من مختلف أقطار العالم، من البر والبحر، ومن أماكن موغلة في البعد وعناء الوصول إليها. فهم قد تشربوا مهنتهم إلى درجة أنهم أصبحوا ينادون بها، فنجد، مثلاً، في عالمنا العربي وفي مختلف بقاعه عائلات تسمى «العطار» وهو لقب منحتهم إياه مهنة العطارة.

إعلانات العطارين طرافة وفن

لعل من الطريف في سوق العطارين انتشار الإعلانات الشعبية، فعلى الرغم من أنه سوق محاط بأسرار الخلطات والمساحيق، إلا أنه مكان خصب لإطلاق الشائعات حول صناعة العجائب، التي تنتشر سريعاً بين العامة كانتشار رائحة العطر والأعشاب في سوق العطارين. ولعل لجوء العامة إلى العطار إزاء أي مشكلة صحية أو نفسية تواجهه جعل لهم مساحة في مضرب الأمثال كأن يقال: «لا يُصلح العطار ما أفسده الدهر». لكن عطاري بيروت في أوائل القرن التاسع عشر أطلقوا إعلاناً شعبياً ظريفاً بأن دكاكينهم تحتوي على أدوية لكل علة إلا «حبني غصباً». وكأنهم بهذا الإعلان يسوقون لبضاعتهم بنزاهة وصدق. حالهم حال عطاري منطقة نجد في الخمسينيات الميلادية الذين يقولون إن لديهم دواء لكل داء إلا «داء الموت».

العطارون هل هم صيادلة أم أطباء نفسيون؟ هل هم تجار عطر، أم بائعو وَهْم؟ هل هي ثقافة مجتمع ستبقى رغماً عن المركبات الكيميائية؟ أم ستبقىً حنيناً للزمن البعيد ورائحته؟

على الأغلب لم يبق للعطارين في هذا الزمن من العطر سوى اسمه، ولم يعد سوقهم إلا نافذة نشم من خلالها رائحة ذلك الزمن الجميل.



العطر.. علاج

تزخر الطبيعة بعدد من الزيوت العطرية التي تُستخرج من الأزهار والأعشاب مثل زيت الريحان، وزيت الورد، وزيت المرمية، وزيت زهرة البابونج وزيت خشب الأرز. وجميع هذه الزيوت العطرية تستخدم في الطب البديل وهو التداوي بالأعشاب والأزهار، وذلك بتدليك الجسم بوساطة العطور التي تعمل كالمنشطات الكيميائية وتمنحه الاسترخاء. وهذا النوع من العلاج يُعَدُّ علاجاً حديثاً يسمى العلاج بالعطور «الأروماثيرابي» وقد اكتشفه مصادفة عالم فرنسي يدعى رينيه جيتيفوسيه عندما احترقت يده ولم يجد أمامه إلا زيت الخزامى فغمس يده فيه. بعدها شعر بزوال الألم. ولعل العرب سبقوا هذا الاكتشاف، إذ أوردوا في كتبهم علاجات للأمراض بالعطر، فقد ذكر الزهراوي أن العنبر مقو للدماغ ونافع للشيوخ، ونافع لأوجاع المعدة، وإذا تبخر به فإنه يشفي من الصداع والشقيقة. أما عن ماء الورد فذكروا أنه من الأفضل استعماله في فصل الخريف فهو يقوي الدماغ، وشمه يسكن الصداع، ومضمضته تشد اللثة.



القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
مارس - أبريل 2011
المجلد 60 العدد 2

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com

